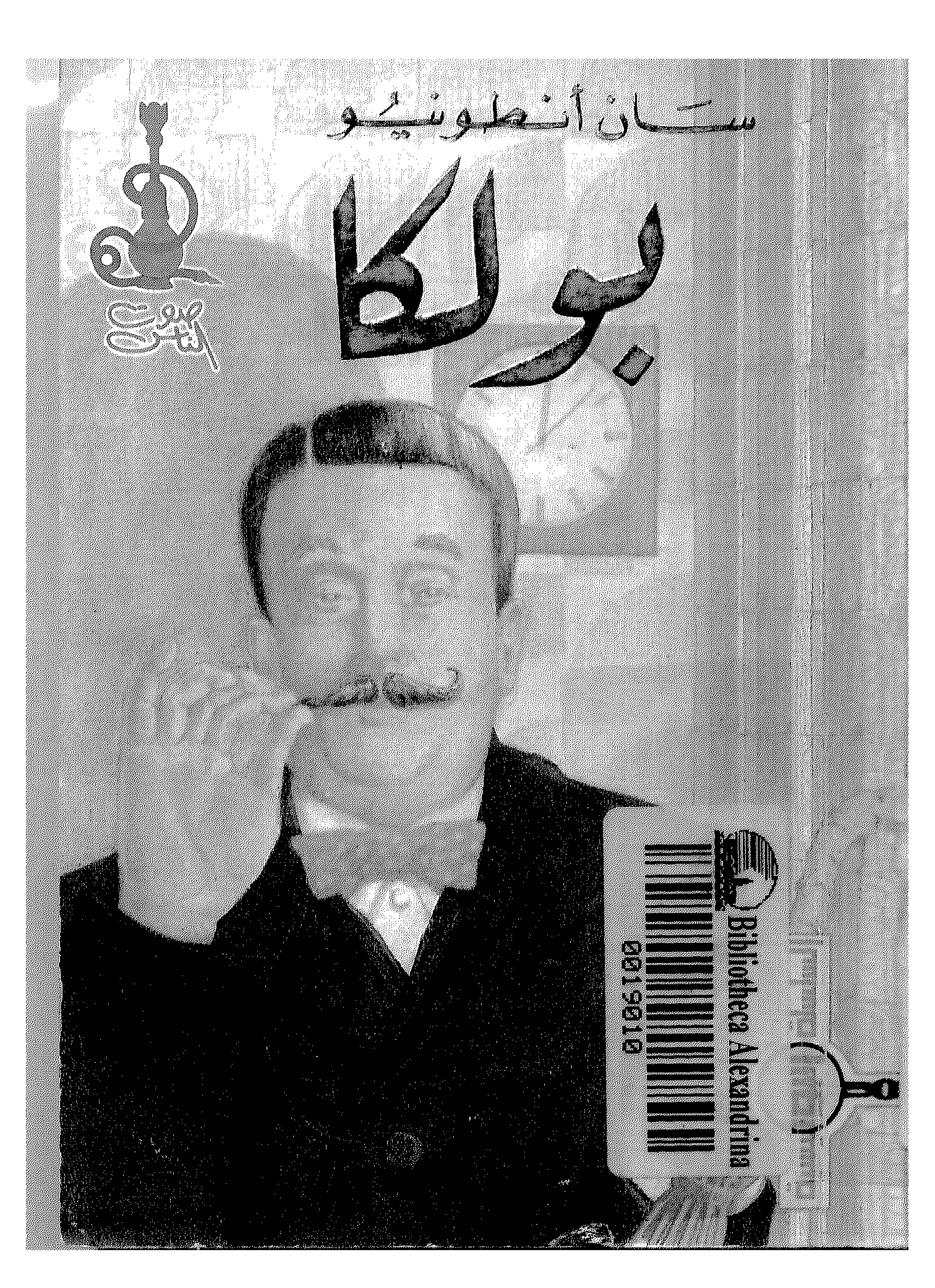
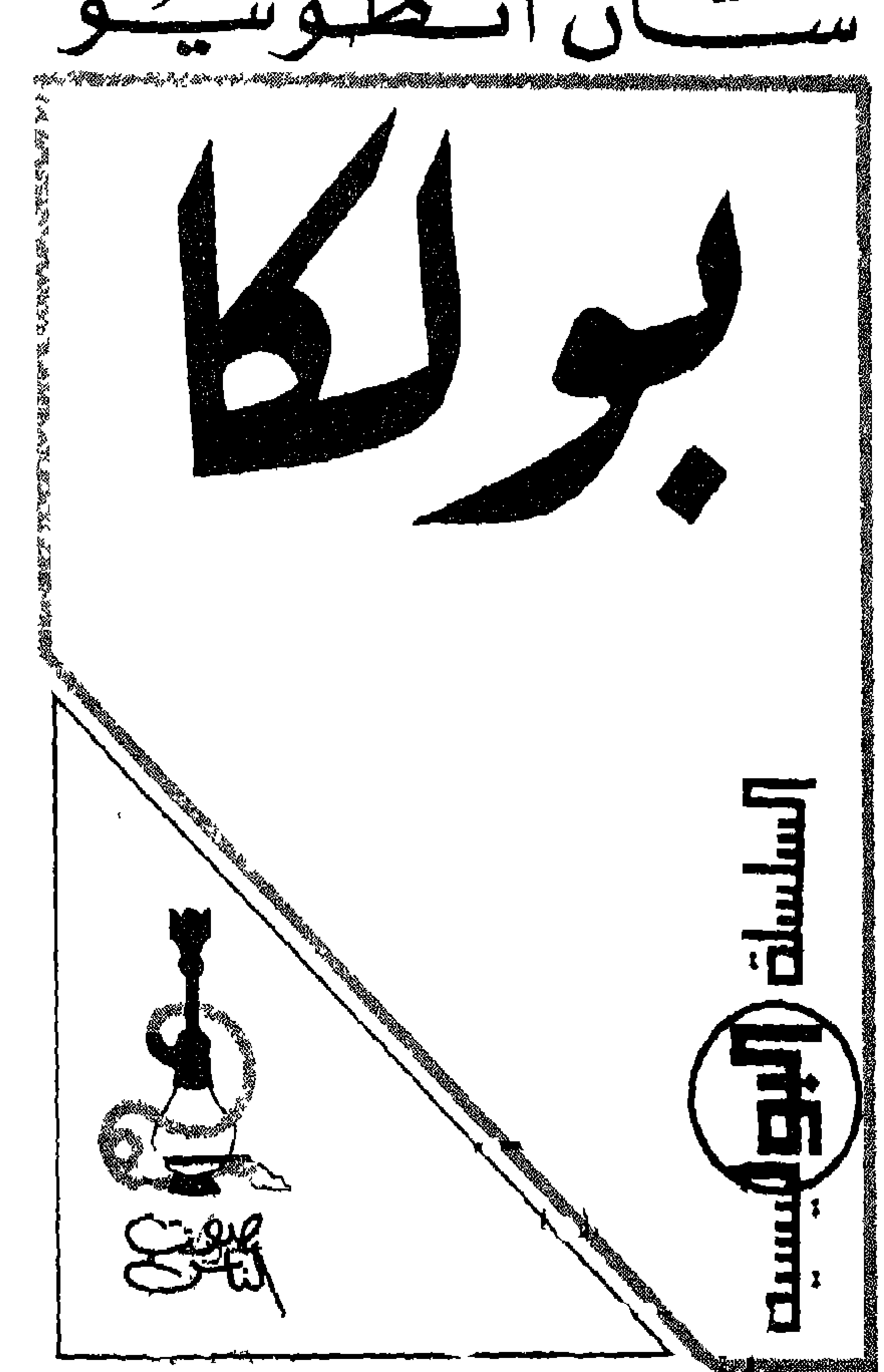

سان أنطونيو
بولكا

بولكا


سان أنطونيو
بولكا
السلسلة البوليسية

SAN-ANTONIO POLKA

by

SAN-ANTONIO

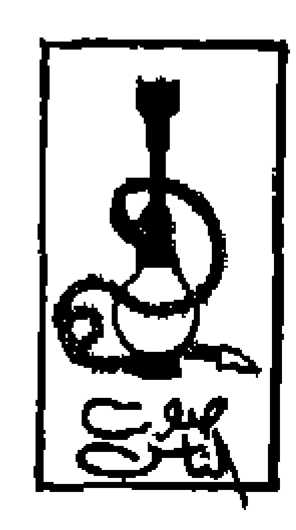
ترجمة

بسام حجار

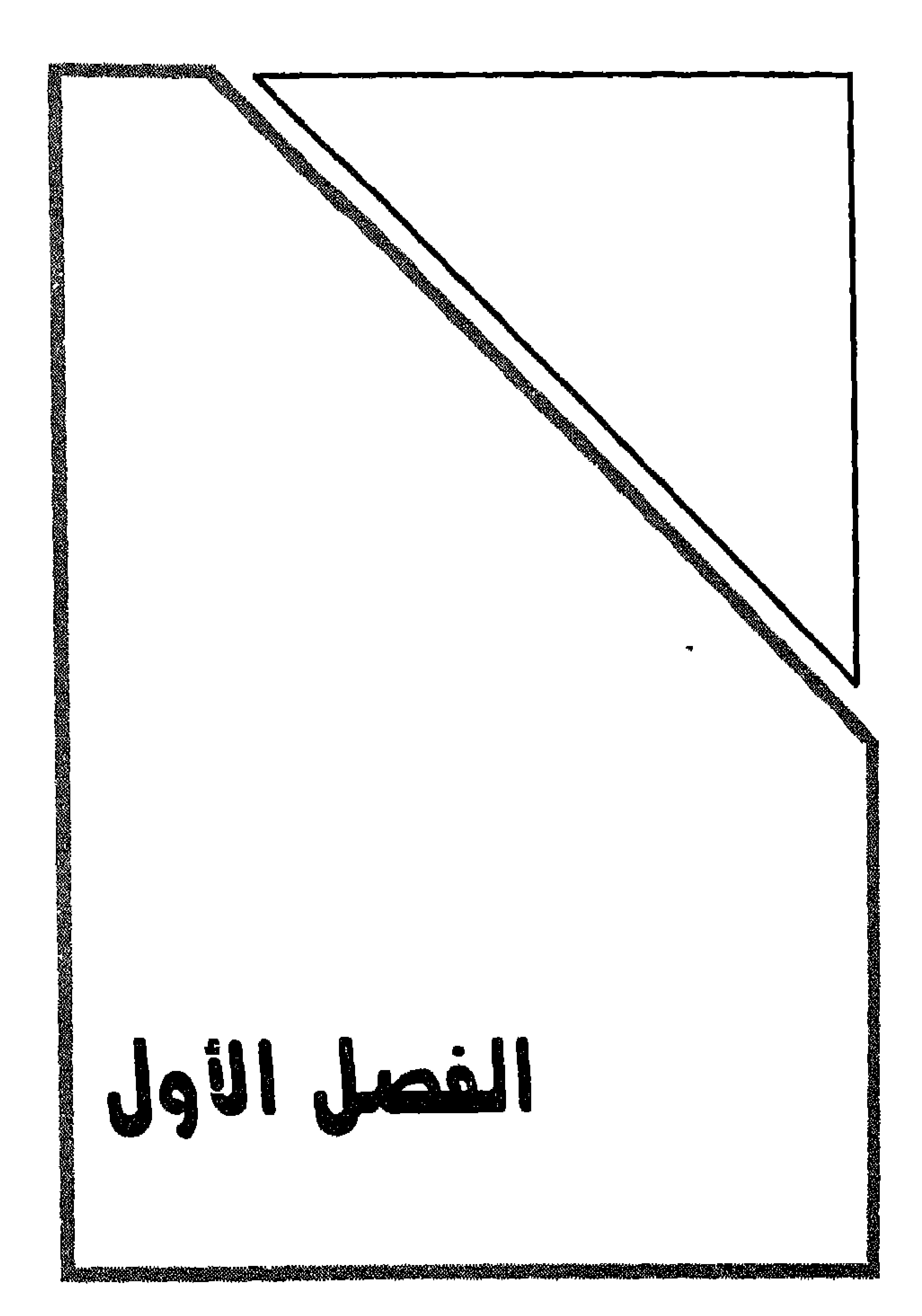
ARABIC EDITION 1994

P.O.Box:7038 - Limassol
CYPRUS
P.O.Box:113/5796 -Beirut
LEBANON

ISBN 1-85513-222-2



الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ١٩٩٤
الغلاف: تصميم رملة شماعة
رسوم: شيفورن كوريغان



الفصل الأول

كان المذياع يبث أغنية: «إن كنت لا تطيق الحرّ، تعرَّ».

هذه الأغنية الشهيرة ذات المستوى الثقافي المميّز والتي ذاع صيتها في أنحاء المعمورة مروراً بشبه مضيق بيرنغ.

وكانت السفوح المكسوة بالثلوج من حولي تومض تحت أشعة الشمس. كنت جالساً على شرفة الـ«سابان بلو» في كورشوفيل، أحتسي شراباً يُدعى «كوكتيل تريفيك»(*) تجدون وصفته في ذيل هذه الصفحة من البوح الانطولوجي، حين يتسنى لي أن أحيا أوقاتاً مماثلة.

كان كرسيّها الطويل على بعد اثني عشر سنتمتراً من الكرسي الذي اقتعده إلا ان المسافة التي تفصل بيننا بدت لي أميالاً لا تعدّ.

(*) Cocktail terrific : مكوّن من ثلث الكمية من شراب الطماطم، وثلث من الفودكا، وثلث من زيت كبد المورة، وثلث من الزبدة المخفوقة وثلث من كحول النعنع وثلث من روح التربنتين، (والحاصل ستة أثلاث لا تزيده إلا امتزاجاً)! ويُخفق المزيج بقوة في قربة من الجلد ويُرش عليه ذرور الناب. ويُحتسى عادة على الدرجة المعتادة من الحرارة، لا باردة ولا ساخنة.

تلك المنمنمة، يا أصدقائي، لا تشتري، والحق يقال، حمّالات صدرها من عند «ميشلان». وما «يترنح» أمام رئتيها، عندما تسير يبدو فعلاً جزءاً من جسدها، وليس من النوع الذي يمكن «تنفيسه» بدبوس مرضعة الحليب لكي يصبح مفلطحاً. وأنا أعرف مئة وخمسين ألفاً من السادة المستعدين لبذل ثروات طائلة لاستئجار هذه «الدرة» من الحليب مع توابعها. لها عينان تقضبان أرغدَ المضاجع وثغر أشهى من الطبعة الكاملة، غير المنقحة، لكتاب «الكاماسوترا»(*). بنطالها الضيّق يذكّرك بعدد من الهيامات المكتومة، وحذاؤها الجلدي الأسود يذكّرك بعدد آخر من القصص التي لا تروى عادة في «المناولة الأولى».

وأنا، كما تعلمون، عندما يقتحم مخلوق من هذا النوع مجالي الحيوي (كما قد يقول جان جاك) تراودني، على الفور، رغبة ملحة في ان أسأله عن لون حصان هنري الرابع الأبيض.

ثمة أساليب عديدة لاستمالة فاتنة مستوحدة. وأفضلها ان تسلّيها. وقد رأيت في المتزلجين المبتدئين الذين يهبطون سفح «بيل كوت» على طريقة «انطلق وتدبّر أمر وصولك سالماً»، المادة المثلى لإنزال مظلي ملائم داخل حصن تلك الجميلة المحصّنة. وإذ أشرت إلى امرأة بدينة، طراز خمسة عشر طناً، وقد تقوّست فوق مزلاجيها كما يفعل الغريق فوق خشبة الخلاص، قلتُ لها متظارفاً:

ـ الأجدر بتلك المرأة ان تمارس الانهيارات فوق الثلج لا التزلّج فوق الثلج.

(*) الكاماسوترا: أشهر كتاب للجنس الاباحي.

لم تحرّك جارتي ساكناً، ولم تلتفت نحوي بوجهها الجميل الذي لوّحه هواء القمم، ولم تعلّق ولو بكلمة من ذوات المقطع الصوتي الواحد. وبدا امتناعها عن الردّ قابلاً للتفسير على ثلاثة أوجه مختلفة: إما ان تكون صمّاء، وإما ان تكون أجنبية اللسان لا تفقه من الفرنسية شيئاً، وإما أيضاً – وهذه الفرضية الأخيرة هي مدعاة اكتئابي – انها لا تجد في سحنتي الوسيمة ما يُلفتها. فصمّمت، والحالة هذه، ان أتعمّق في التطفل عليها.

أوقعت كأسي من يدي، وكان من حسنات الحادثة المؤسفة انها انتفضت على الفور، وفي ذلك البرهان الساطع على ان صدفتيها المكوّرتين خصيصاً لسماع «موزار» تعملان على أحسن وجه؛ ثم سألتها في اثنتي عشرة لغة مختلفة عما إذا كانت: انكليزية، ايطالية، برتغالية، ايرلندية، أوفرانية، ألمانية، بولندية، اتحاد سوفياتية، مولدافية، يابانية (فقد يكون تلويح البشرة لديها وراثياً)، ليونية أو مصابة بفقر الدم. وإذ مكثت علي صمتها وعنادها، أرغمتني على الارتداد إلى الحلّ الثالث وقلّبت الاحتمالات في رأسي. إذ لا حاجة للمرء بأن تكون له سحنة كازانوفا، وعضلات كاسيوس كلاي وذكاء برغسون وموهبة جان كوكتو، لكي يجد نفسه في آخر المطاف أمام متفاخرة مبتدئة تتجاهل كل عروضه على ارتفاع ألف وثمانمائة وخمسين متراً! أليس هذا رأي سموكم أيضاً؟

غادرت مقعدي وانحنيت فوق مقعدها.

ـ أنت تعلمين جيداً انه أمر يمكن الشفاء منه بسهولة، قلت لها.

فقطّبت حاجبيها الرائعين المنحوتين في وجه من السواد وازدادت نظرتها الفولاذية قتامة.

ـ أرجو المعذرة، لم أفهم! قالت بلا مبالاة.

كان صوتها من تلك الأصوات التي تدغدغ القنوات السمعية من الأعماق. صوت خفيض وشجيّ. حتى ان من شأن سامعها ان يدعها تقرأ دليل مواعيد القطار بكامله لا لشيء سوى التلذذ بسماع صوتها!

ـ لك المعذرة التي تشائين، يا ملاكي الصغير.

فتبدّلت نظرتها الزرقاء كمياه بحار الجنوب إلى قتامة أشد والتمع في عينيها بريق مكّار.

ـ ماذا تقصد بقولك: «انه أمر يمكن الشفاء منه جيداً»؟ سألت.

ـ كنت أقصد البكم الذي أصابك. لديَّ صديق يُعتبر بطلاً في علاج الأوتار الصوتية. فقد توصل إلى جعل أحد مرضاه، وهو أبكم أصمّ، قادراً على انشاد «الترافياتا» بكاملها، كما أفلح في دفع إحدى أسماك الشبّوط إلى إلقاء قصيدة لفرلين، انه ساحر، أليس كذلك؟ وفي الوقت الحاضر يعمل على إعادة تأهيل مفتاح انكليزي، وتفيد آخر الأنباء عنه انه أصبح يقول: «آرّ، آرّا» وأنا واثق، يا ملاكي الصغير، ان حالتك هذه لا تدعو إلى اليأس.

ـ أرجو ان تكف عن مخاطبتي مازحاً، أجابت على الفور كرشق غير متدارك. أنا لا أعرفك!

ـ إنها لعمري هفوة يمكن تداركها. فأنا مستعد، يا حشيشتي ان أكتب سيرتي الموجزة بأحرف من «نيون» على جدران غرفتك، أدعى سان انطونيو وبعد «سان» ثمة خط اتصال وقبل انطونيو خطّ الاتصال إياه، رغبة في الاقتصاد.

ـ وفي ما عدا ذلك، ما الذي تجيده بعد؟ قالت الصبيّة الجميلة مطلقة تنهيدة مدويّة.

لقد حثّني سؤالها، وان كان لا يزال يُضمر بعض النفور، على الاعتقاد بأنني سلكتُ الدرب الذي سيفضي بي إلى غُنم وقلت لها:

ـ في ما عدا ذلك أجيد عدداً جماً من الأشياء يا صغيرتي: تمشيط زرافة، رسم فيل أبيض باللون الأسود، امتصاص برج إيفل لأجعله مسنناً، التلاعب بكريات من الغوما، أو نحت التمثال النصفي لرئيسي الجنرال في كتلة من الغوشنة القديمة المتعفنة، ثم ان ما لا أجيد صنعه قد أتعلّمه، كما ترين. فما من أحد يمتلك موهبة التعلّم التي امتلكها.

ـ وما من أحد يُضاهي قدرتك على الثرثرة، أجابت.

ـ ما هو اسمك؟ لم أعد أذكره.

ـ ربما لأنك لم تسمعه من قبل؟

وربما كان ذلك هو السبب بالفعل، أجل. أحسبُ ان أبسط التفسيرات هي أكثرها عقلانية. إذاً؟

وكانت تلك هي اللحظة الحاسمة في حديثنا. فانطلاقاً من

تلك اللحظة إما ان تفسح لي مكاناً بقربها وعندئذٍ أتلو على مسامعها ما تبقى، وإما ان تردّني خائباً بخفيّ حنين للتثبت من خفتهما.

ـ حاول ان تخمّن!

كان أمرها مفروغاً منه، «إن ذو بوكيت»، كما يقول الألمان الذين يتحدّثون بالانكليزية.

ـ بربارة؟ قلت مخمناً.

ـ لا.

ـ إيفا؟

ـ لا. أنت تبذل لعابك عبثاً، أليس كذلك؟

ـ لا بأس إذا كنت تعدين باصلاح الأمر فيما بعد!

فأطلقت الفتاة ضحكة خافتة سرت في نخاعي الشوكي نزولاً إلى الفقرة الأخيرة من عمودي الفقري.

ـ أدعى ليديا.

ـ كان من المستحيل إذاً ان أهتدي إليه، قلت متمتماً.

ـ لماذا؟

ـ لأنني طالما حلمت بالتعرّف إلى فتاة تدعى ليديا، وكان نصيبي يربو على دزينة من الانهيارات العصبية والعلاج بالصدمات الكهربائية لأنني لم أصادف إحداهنّ. ولمجرّد التفكير في انه كان ينبغي تسلّق الجبال حتى كورشوفيل للعثور

على إحداهنّ، يجعلني أحسب ان الأمر يستحق الاحتفال، يا حشيشتي الصغيرة. هلاّ شاركتني في كأس «تريّفيك كوكتيل» احتفاء بالمناسبة.

ـ كلا.

ـ ولـِمَ؟

فقطبت قليلاً: لست بمفردي!

كان ذلك إيذاناً بواقعة شؤم. وطالعتني صورتها برفقة عجل يتمنطق بحزام الفتق الطبي محشواً بالاسترلينيات والآراء المحافظة. فقد كانت من طراز الجميلات اللواتي يُغرمن بهرم تالف الصحة يعثر عليهنّ لدى غران فيغور أو «كارتييه» أو لدى «شانيل» لا لشيء سوى التظاهر أمام بائس من أمثال بانتروش انه كازانوفا حقيقي وصلب مثل السيف المرصّع بالموزاييك الدمشقي.

ـ خطأ، يا حبّي، أجبتها. ففي الحياة يكون المرء وحيداً على الدوام. ولكن المهم ان يكون وحيداً برفقة مَنْ!

وبما ان النادل كان يمرّ في تلك الأثناء «بلصقنا اللصيق» (على حد قول بيرو). فهممتُ بمناداته.

ـ نريد كأسين من كوكتيل تريفيك، يا بوب!

ـ لا: بل يريد كأساً واحدة! قال صوت من الخلف مصوّباً.

فنفّذتُ حركة استدارة على محور وحيد كيما أرمق المتطفل: وإذا بي حيال «عتعيت» صلب البنية يبدو برت لانكستر أمامه أشبه بفتى جوقة معتلّ، ماصل العضلات هزيل

الهيكل العظمي. وبدا لي من سحنته ان ما يضمره أشبه باثني عشر كلباً بوليسياً ربطت أذنابها بعلبة موسيقى كهربائية تبث أغنية لجوني هوليداي. وراودني إحساس غامض بأنني أعرف شكل هذه الخزانة النورماندية التي تشبه رجلاً، إلاّ ان ذاكرتي لم تسعفني ان أطابق الاسم على سحنة الجزّار التي طالعني بها.

ثم دنا «العتعيت» إياه وانتصب أمامي قبل ان أصاب بالتواء الرقبة.

ـ لقد مكثت لبعض الوقت أصغي إلى الهراء الذي كان يصدر عنك، يا صاحبي، قال بمودة، وأفضل ان أقول لك على الفور إنه أضجرني.

فتثاءبت ضجراً، ولكن بتهذيب، ووضعت يدي أمام مبسمي.

ـ إذاً يا حشيشتي، قلت مخاطباً الفتاة، أهو رفيق مخدعكِ، الصغير، هذا الشيء الضخم المتبجّح؟

وبدت ممتقعة الوجه قليلاً، أختنا، وصدقوني إن قلت. واستشاط حارس غرامها كما لو انه جلس على مجمرة مستعرة.

ـ اسمع، أيها الرجل المسكين، قال بصرير واضح وهو ينحني عليّ، نحن في مكان محترم لنخبة القوم ولا أرغب في إثارة الفضائح السينمائية على هذه الشرفة. لذلك ستمسك بيدك وتصحب نفسك في نزهة إلى مكان بعيد، أليس كذلك؟

ـ بأمر مَنْ، أيها الأرعن الوسيم؟

ـ بأمر أن سحنتك تستثير شياطين غيظي، يا صبي! فاغرب عن وجهي! وان صادفتك مجدداً قرب الآنسة فسأجعل وجهك أشبه بحادثة القطار، أسمعتَ جيداً ما أقول؟

فتعمّدت التثاؤب مجدداً وبشيء من التطويل!

ـ ولكن، أخبريني بالله عليك يا ليديا، باستثناء فتح مواسير المجلى أو تنظيف جرن مرحاضك بحامض الملح، بمَ يُسعفك هذا الشيء الماثل أمامي؟

وعندئذٍ ألمّت به نوبة الأعصاب، ذلك السيد النبيل! وتراءى لي انه لن يلبث ان يعيد ساعديه وقبضتيه إلى الخدمة وان ماكنة ضغط الدماغ تعمل على أشدّها.

وبالفعل. كانت لحظة الانطلاق. فيسار الرجل أشبه بصدمة القاطرة واللطمة التي اختار ان يسدّدها إلى ذقني أتاحت لي ان أرى فينوس (الكوكب) وجواره دون الاستعانة بالمنظار الفلكي. ولاحظوا جيداً انني أخطأت قليلاً. فقد كنت أرى طيلة الوقت انه لن يلبث ان يفتتح جولة الملاكمة، إلاّ ان الهوائي الذي أملكه أبطأ في الإشعار والردّ.

ـ أفهمت الآن، أيها الوقح؟ سألني بكثير من الخيلاء.

وكنت فهمت. وأدركت من هو الخصم فعلاً. فمثل هذه اللطمة لا تصدر، باستثناء ملاكم محترف، إلاّ عن رجل واحد في العالم ليذيقني طعمها.

ولست أدري إذا كان السبب هو أنني أراه مضاعفاً، ولكني عرفته: ريري بلواز، الفتى الصلب الذي يفاخر بسجلّه العدلي الذي يشبه جدران المراحيض العامة.

لأعوام خلت كان سروري عظيماً حين أتيح لي ان أهديه اسوارتين فولاذيتين محكمتي الإقفال على أثر عملية تزوير. وأحسب انه أيضاً لم يعرفني. والأرجح أن الغيرة قد أعمت بصيرته، أليس كذلك؟

ـ إذا خطر لك ذات يوم ان تتابع بعض الدروس الليلية، قال هازئاً، فليس عليك إلاّ ان تسجل اسمك في مكتبي.

وحدجني مقهقهاً. فلا بد ان سُحنتي كانت متورّمة. فتهالكت على كرسيّ الطويل وقد علا ذقني ورم دموي (طراز حمرة سحنات سكان منطقة السافوا).

ـ لسوء الحظ انني لم أحضر آلة التصوير، أيها الرجل البائس. وإلاّ لاستمتعت بالتقاط صورة لسحنتك البائسة.

وبعد ان هزّ بكتفيه علامة تقزّز واحتقار خاطب الفتاة فجأة غير مكترث لوجودي.

ـ تعالي، يا ليديا، سنقوم بجولة قصيرة قد تفتح شهيتنا للطعام.

وابتعد العاشقان.

ـ هيه! مهلاً! ناديتها قائلاً.

لم يستدر ريري سوى نصف استدارة. وبدت سحنته أشبه بسحنة غوريلاّ مصاب بإمساك مزمن.

ـ أيرغب السيد في مزيد من الشرح؟

ـ لا، بل ان السيد يرى انه لا بد ان يكون المرء مجرد مهرّج مزعج كي يبادر إلى ضرب رجل مستلقٍ على كرسيه الطويل، هذا ما أردت قوله يا بنيّ.

وكان ريري النزق لا يستسيغ دروس الأخلاق كثيراً.

وبدل ان يعترض، نزع عنه سترته النصفيّة.

ـ دعك منه يا عزيزي، قالت الفتاة راجية، لا داعي لإثارة الفضائح هنا.

ولكن من يقدر أن يجمع مجرّة عملاقة بشبكة صيد الفراشات. وإذ استبدّ به القلق شرع المتفاخر الذي يلعب دور زير النساء في الناحية يجمع ما تراءى له انه سريع العطب من أدوات زينته. ومرّ بنا زوجان من المتزلجين حسبوا ان ما يجري بيننا مجرد دعابة بين صديقين حميمين. وعندئذٍ نهضتُ مطلقاً إحدى زفراتي العميقة.

فما كان من كينغ – كونغ إلاّ ان قال هازئاً:

ـ لا جدوى من قيامك، يا صاح! وأحذرك من أنك ستلتهم التراب في غضون عشر ثوان!

وبدا لي ان الأوان قد حان لحسم الموقف، أليس كذلك يا رفاق؟ إذ تراءى لي ان كل هيبتي قد هدرت بالمجان. والهيبة كمثل إدارة محرك السيارة: إن لم نتدارك إصلاحه في الوقت المناسب خسرنا الكل دفعة واحدة!

وعندئذٍ رحتُ أعدّ بصوت عال:

ـ واحد .. اثنان ... ثلاثة...

وفي الأثناء تظاهرت بتسديد لكمة من يُسراي، فحاول صدّها بيمناه، وبما اني لم أكمل حركتي تلك منتصباً بثبات فوق ساقيّ الصلبتين فيما بدا المغترّ قبالتي مكشوفاً مثل الحساب المصرفي لمنتج سينمائي، عاجلته بإحدى ضربات يمناي المأثورة.

إذ كما تعلمون، أيها الفتيان، في خضمّ الحياة الدنيا ينبغي على المرء ان يفعل كل ما في وسعه ومن صميم القلب. فصدر عنه صوت أشبه بلفظ «زغنومففف» وترنّح.

ـ أربعة ... خمسة ... ستة، تابعتُ العد.

ألحقتها بلكمة مزدوجة على المعدة. فانطوى وبدا وجهه أشبه بقرص «همبرغر» مشبع «بالكاتشاب». فارتمى إلى الخلف باسطاً ذراعيه ووقع على مؤخرته مثل إجاصة ناضجة سقطت عن شجرتها.

ـ ما رأيك يا ريري؟ سألته منحنياً فوق هيكله المكوّم. أأتابع العد إلى عشرة أم أحتفظ بالباقي؟

بدت عيناه كقضبان نافذة وراح يتكلم بين سنّين ذلك أن يميني الأولى قد أعطبت مفصل الفكين.

ـ أتعرفون اسمي؟

ـ مهلاً، لمَ استخدام صيغة الاحترام وواو الجماعة هل غضبت مني لسبب ما؟

ـ كيف عرفت اسمي؟ ردّد بإلحاح.

ـ آه يا صديقي المسكين بلواز، ما لا أعرفه عنك لا يتعدّى حجم التوقيع فوق طابع براءة الذمّة.

استطاع ان ينهض قليلاً فمكث راكعاً لأنه لم يستطع الوقوف. وراح يدعك أسفل معدته متشاكياً:

ـ أوه! آه! يا لها من ضربة! حسبتُ ان كبدي سيخرج من أحشائي!

ولم تلبث ليديا، التي مكثت بعيدة طيلة الوقت، أن اقتربت من رفيقها الذي لم يكفّ عن الشكوى.

ـ ألا تعتقد يا سيد سان انطونيو، انك تبالغ بعض الشيء!

وبدا أن ما سمعه قد أعاد إليه بعض اللون، وبعض الحياة أيضاً. فانتصب ريري واقفاً على قدميه.

ـ سان انطونيو! بلا مزاح... هذا أنت إذا يا سيّدي الكوميسيرا لم أستطع التعرف إليك لفرط ما لوّحت وجهك الشمس، وربما بسبب عصابة الرأس هذه!

ـ أما أنا فقد عرفت قبضتك يا ريري.

ـ إنه أمر غريب حقاً! فقد كتمت ضحكتها. أمر غريب حقاً! أنتما صديقان إذا!

ـ لا أعتقد أنها الصفة الملائمة، قلت مصوّباً. لنقل اننا تعارفنا منذ بعض الوقت، أليس كذلك يا ريري؟

ـ هذا ...

ـ لقد تواريت عن أنظاري منذ قضيّة البونابرت المزيّف ولا بد ان العقوبة كانت قاسية؟

ـ سنتان!

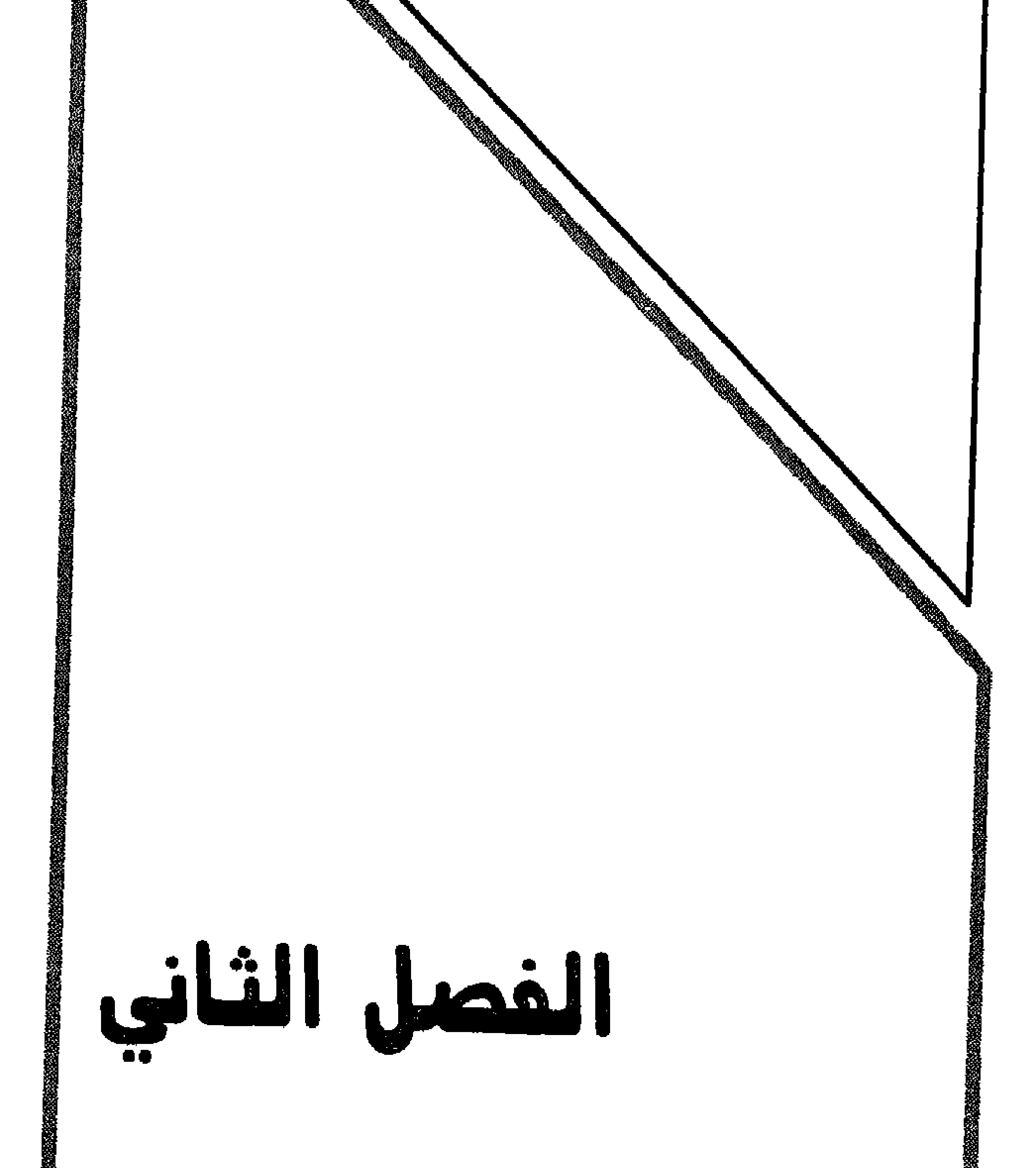
ـ لقد أمضيت أوقاتاً طيبة، إذاً! وجئت إلى كورشوفيل للإفادة من أشعة الشمس؟

ـ كنت في حاجة إلى الهواء الطلق، فالهواء الطلق في بواسي يستنشق بواسطة القشة! لمَ لا نذهب لاحتساء شراب ما يُنسينا انفعالاتنا أيها الكوميسير؟

ـ لمَ لا!

وارتسمت على شفتيه ابتسامة مكّارة.

ـ على حسابي! أردف قائلاً.



الفصل الثاني

لا يمكن القول إن ريري بلواز هذا من أسوأ ما تصادفه من أصحاب السوابق. وبالطبع لا يمكن القول أيضاً انه قد يُذكر في سجلِ القديسين، أو موسوعة «من هو؟». ولكن كما فسّر لي طويلاً أمام زجاجة الشمبانيا التي احتساها بمفرده، كانت لديه أسبابه التخفيفية: فقد كان يتيم الأب، فربّته أمه المدمنة وعاش طفولة البؤس وعِشرة السوء منذ البداية. وكان السادة الذين اعتنوا به وأحاطوه بالرعاية من خريجي السجون المركزية (خصوصاً سجن بواسي، ومنهم من أصبح الآن في عهدة التراب).

افترقنا عند ساعة الغداء وان كان ريري قد ألحّ عليَّ بالانضمام إليهما.

ـ أنت غيور جداً يا ريري! ولا أحسب ان رفقتك، في مثل هذه الحال، مريحة. فأنا أعرف نفسي جيداً. عندما أرى فتاة

جميلة لها استدارات باذخة كفتاتك، سرعان ما تستبدّ بي الرغبة في ان أعزف «ضوء قمر» على وتر حمّالة جوربيها وصدّقني، رغما عني.

فأطلق قهقهة مدوّية تلذّذت الجبال بترداد صداها.

- لست غيوراً يا كوميسير. وما جرى بيننا كان دافعه الإحساس بالإهانة فقد حسبتُ، مع احترامي لك، انك أحد هؤلاء الحمقى الذين...

غير ان عروضه لم تفلح في إقناعي. فالشراب في صحبة أحد أصحاب السوابق شيء، وقضاء عطلة الثلج برفقته شيء آخر! فقد كان عليَّ ان أحافظ على هيبتي ومقامي.

لم نلتق مرة ثانية خلال النهار. فأمضيت فترة بعد الظهر في «سولير» واستمتعت بكل دقيقة من وقتي، وعند المساء قصدت «برجري» مفتشاً عن فتاة وهناك تشرّفت وكانت لي حظوة لقاء فتاة عذبة أمضيت برفقتها أمسية كلّها عذوبة بعذوبة.

لم تكن من طراز الفتيات المتعرّيات الصاخبات. أولاً، كانت أربعينية لها طلعة جمال خفِر، وتزيدها مشيتها المغناج فتنة. سيدة من علية القوم، جاءت إلى الجبل برفقة أولادها في فترة نقاهة. وكانت تكرس لهم كل ساعات النهار فيما تحرص ان تكرس الليالي لمتعتها الشخصية.

رقصنا ثلاث رقصات وشربنا كأسين ثم خرجنا للقيام بنزهة في سيارتها. أما البقية فأكتمها عنكم لأن تفاصيلها ستجعل سحناتكم بلون الكركند، خصوصاً إذا علمتم ان السيدة الآنفة

الذكر تملك سيارة أميركية مجهّزة بمقاعد متحركة المساند وبتدفئة شاملة وقوة اندفاع وريدية مزدوجة مضافة إلى لدونة هجينية ذات ثقب وسطي مزدوج القعر.

كانت العربة تبدو بعد ان غطّاها الثلج أشبه بكوخ الاسكيمو. لكي يتسنى الدخول إليها ينبغي نبش موضع الباب بمعزقة والتبوّل على إطاره لإزالة الجليد عنه، ولكن ما ان تصبح في الداخل تجد ان الأمر يستحق العناء!

كانت تناديني «جرفيه» لأنني لعبت بنجاح دور الأسكيمو الذي يرتعد من البرد. ثم بدأت الجولة التي كان ليرتعد منها الأسلاف! حتى المحترم «بابا نويل» كان لينتحب حسداً في عربته الطائرة! وفي ختام السيرك الذي أدّيناه معاً حاولنا، كل من جهته، ان يجمع أطرافه من الأرجاء ويفك اشتباكها بأطراف الآخر، وكانت تلك من أكثر المهمّات مشقة، صدقوني. إذ كانت رفيقتي العزيزة قد دسّت إحدى ساقيها داخل المقود فيما حشرت الساق الأخرى في علبة «التابلو». وبدا أن إخراجها من هناك قد يحتاج إلى منشار كهربائي! ولكي يكتمل نذير السعد، أطلقت بحذائها زمور السيارة الذي علق وظل يزمر حتى ألفينا حين غادرنا العربة اثني عشر ألفا وثمانمئة واثنين وثمانين شخصاً في انتظارنا مزوّدين بالمشاعل والمصابيح الكهربائية.

باختصار، كانت الساعة أشرفت على الواحدة بعد منتصف الليل حين عدت إلى الفندق. وتناهت أصداء موسيقى من صوب البار فقصدته طلباً لكأس أخيرة وما ان دخلت إليه حتى ناداني صوت من ردهة المطالعة.

ـ يا حضرة المفتش!

فاستدرت نصف دورة. وسط الإضاءة الخافتة، قرب نيران مذهلة تنبعث من حطب اصطناعي عبر الأنابيب الكهربائية التي تسعّر لهيبها في موقد تقليدي من الرخام المزيّف الذي يشبه الخشب، طالعني وجه ريري بلواز الذي كان يفرط في الإيماء مثل استاذ التربية البدنية في صالته، أو مثل ايطالي من نابولي يتحدث عبر الهاتف.

ـ ماذا أتى بك إلى هنا يا ريري؟

ـ كنت في انتظارك، يا حضرة المفتش.

وقد خالطت صوته نبرة غريبة. وغشت نظراته التماعة قلق فأصبحت كابية.

ـ يبدو انك لست على ما يرام أيها الفتى؟

ـ أردت ان أطلعك على أمرا

فتوجستُ شراً. فعندما يُصمّم «عتعيت» مثل ريري على البوح بشيء ما، فهذا يعني ان الأمور ليست كما نشتهي.

كنتُ شبه واثق من ان هذا الأبله المغترّ قد ورّط نفسه في قضية ما وانه يلجأ إلى الابن الوحيد والمدلّل لفيليسي لتسوية الأمر كما ينبغي. فمع أصحاب السوابق أمثاله، تجري الأمور دائما على هذا النحو: ما ان ترتكب هفوة احتساء كأس برفقة أحدهم حتى يُسارع إلى طلب المستحيل.

ـ هيّا، قُل.

إلاّ انه لم يستطع الكلام.

ـ تبدو قلقاً يا ريري!

ـ لسبب وجيه!

ـ سحقاً! الأمر خطير إذاً؟

ـ كلمة «خطير» لا تكفي لوصف مشكلتي، يا حضرة الكوميسير.

ـ ألا ترى يا بلواز ان كلامك يستدرّ لعابي، ومن غير المُستبعد، حيث نحن على علو شاهق، ان يجمد في فمي!

فهزّ كتفيه. من البار المجاور كانت تنبعث أصداء أغنية مثيرة، ومن خلال الستارة التي أسدلت على باب الصالة الزجاجي، كانت تتراءى أخيلة الراقصين وقد التصق كل زوجين منهما حتى بدوا أشبه بجذوع أشجار متمايلة.

ـ أوَتدرك السبب الحقيقي لوجودي في كورشوفيل يا حضرة الكوميسير؟ أوه! ليس بالطبع لأنني مولع بالتزلج، صدّقني!

فتنحنحتُ بشدة.

ـ مهلاً، يا ريري، قبل ان تطلق العنان للسانك، تذكر جيداً انني شرطي. لذلك تجدني مرغماً على مصارحتك بأنني لن أتوانى عن القيام بواجبي، حتى لو كنت في إجازة، إذا كان الأمر يستدعي ذلك.

ـ أعلم يا حضرة الكوميسير. ولهذا السبب بالذات، لأنني أعلم انك شرطي سأعترف لك: لقد أتيتُ إلى هذا المكان لأقتل رجلاً!

وبعد تلفظه بهاتين العبارتين تنفّس الصعداء وراح يترقب ردود فعلي. ولا بد لي ان أعترف بأن الأمر أذهلني.

ـ أتسخر مني يا بلواز؟ لم أعلم من قبل انك تعبث بمثل هذه الأمور؟

ـ ولهذا السبب بالذات، لا أريد، يا حضرة الكوميسير. أنا لا أزعم ان الحياة التي عشتها حتى اليوم تصلح لأن تُنشر في دفاتر الأسقفية، ولكنني طالما حرصت على ألاّ ألطّخ يدي بالدم.

ـ أعلم يا ريري.

ـ لذلك صمّمت على عدم تنفيذ ما أمروني به!

ـ مَنْ هم؟

فخفض صوته، وبرغم خلوّ الردهة من النزلاء، أجال أبصاره الخائفة في الأرجاء.

ـ أناس لا أعرفهم، أيها الكوميسير. أناس لا يتصلون بي إلاّ عبر الهاتف.

ـ إنه أمر مشوّق فعلاً، ها أنت تلعب لعبة فرسان الغموض. وماذا يقول لك هؤلاء، أقصد غرباءك؟

ـ يقولون انه في حال تمنعي عن قتل الشخص المعني حتى يوم الأحد، فسيعمدون إلى إرسال ملف بشأني إلى الشرطة.

ـ ملف؟

ـ ملف قد يسبب لي الاحراج ويجهله زملاؤك. واسمح لي ان أبقي أمره سراً.

أضعف الإيمان ولذلك لم ألحّ عليه، وإلاّ لبدوت عديم الذوق.

ـ ومن هو الشخص المقصود؟

ـ فرنسوا لورمون!

ـ مهلاً، مهلاً، لقد سمعت هذا الاسم من قبل. أليس الصناعي المعروف؟

ـ بلى. انه موجود في «كارلينا» في الوقت الحاضر.

بدا لي ان بلواز لم يعد هو نفسه المتفاخر الذي سدّد إليَّ يمناه هذا الصباح على الشرفة. فقد ألفيته أشبه برجل بائس على حافة الانهيار.

ـ والآن يا حضرة الكوميسير اني أضع مصيري بين يديك...

ـ وهل وعدك هؤلاء بشيء ما مقابل اغتيال الرجل؟

ـ وعدوا بإعطائي خمسين ألفاً.

ـ إنه مبلغ تافه!

فهزّ كتفيه.

ـ هذا لأن لديهم ما يرغمني على التعامل معهم، لذلك يدفعون لي أبخس الأسعار.

وأحاط وجهه بكفيه الغليظتين السفّاحتين. بدا كأنه صبي صغير. صبي يزن تسعين كلغ وقد حرثت الندوب سحنته. ومع ذلك بدا كصبي!

ـ إن اعترافك لي يا ريري هو عين الصواب. سنرى ما الذي ينبغي فعله. قبل يوم الأحد، أهذا ما قلته لي؟

ـ أجل. واليوم الجمعة!

*

* *

لم يُسمع رنين الهاتف إلاّ مرتين فرفع العجوز السماعة. ورغم ان الساعة شارفت على الثانية فجراً، فإن صوته جاء عذباً كباقة ورد وصافياً كشراب اليانسون الذي لم يمزج بالماء بعد.

ـ مَنْ!

ـ سان انطونيو، يا سيدي المدير!

فتبدل صوته ومازجه شيء من الودّ:

ـ أوه! هذا أنت! إذاً، كيف أمضيت الإجازة؟

ـ أعتقد انني لن أحظى بإجازة فعلية إلاّ يوم تراني ممدداً في تابوت مبطّن بالساتان. وحتى عندئذٍ قد يأتي الملاك الفلاني ليُسرّ إليَّ ان حمّالته قد سرقت منه خلال انهماكه بتجعيد شعره.

ـ ماذا جرى؟ أما زلت في كورشوفيل؟

ـ أجل. ولكن ما جرى بالفعل هو ان لقاءاتي هنا كانت مشوّقة.

وأطلعته على قصة ريري بلواز. وكان الريّس يُصغي وهو

ينقر قاعدة الهاتف بضربات متناسقة من قطّاعة الورق في يده. وكان الصوت يتناهى إلى تجاويف أذني الداخلية كأنه زعيق متقطع.

ـ وبلواز هذا، من أي صنف من الرجال؟

ـ صنف الذين يملكون سواعد مفتولة العضلات ورأساً تصفُر في جنباته الريح. تزوير، تسهيل دعارة، وأعمال سرقة موصوفة... ولكنه لم يلطخ كفيه يوماً بالدماء... أو على الأقل، ليس على حد علمي... وأنت، أيها الرئيس، أتعرف شخصاً يدعى فرنسوا لورمون؟

ـ بالطبع. لقد شارك في حفل الاستقبال الذي أقيم على شرفي حين قلّدت الوسام. و«ثو باري»...

ـ بما انك تعرفه جيداً، هلاّ أوفدت إليّ، صباح غد، رجلاً يشبهه من حيث القامة والمظهر؟ أقصد رجلاً يشبهه قدر الإمكان.

ـ ألديك خطة ما؟

ـ لديّ العديد منها. يجب ان نتوصل بأي ثمن إلى كشف هؤلاء الناس الذين صمّموا على تصفية لورمون. وسيبقى الرجل معرضاً للخطر ما لم نكشف عن هويتهم.

ـ حسناً، سأقوم بما هو ضروري. ماذا تقترح إذاً؟

ـ أقترح ان يقتل بلواز لورمون.

كان الأصلع الحليق قد اعتاد منذ وقت طويل على غرابة أطواري. ومع ذلك كفَّ عن دوزنة ألحانه المزعجة بواسطة قطاعة الورق.

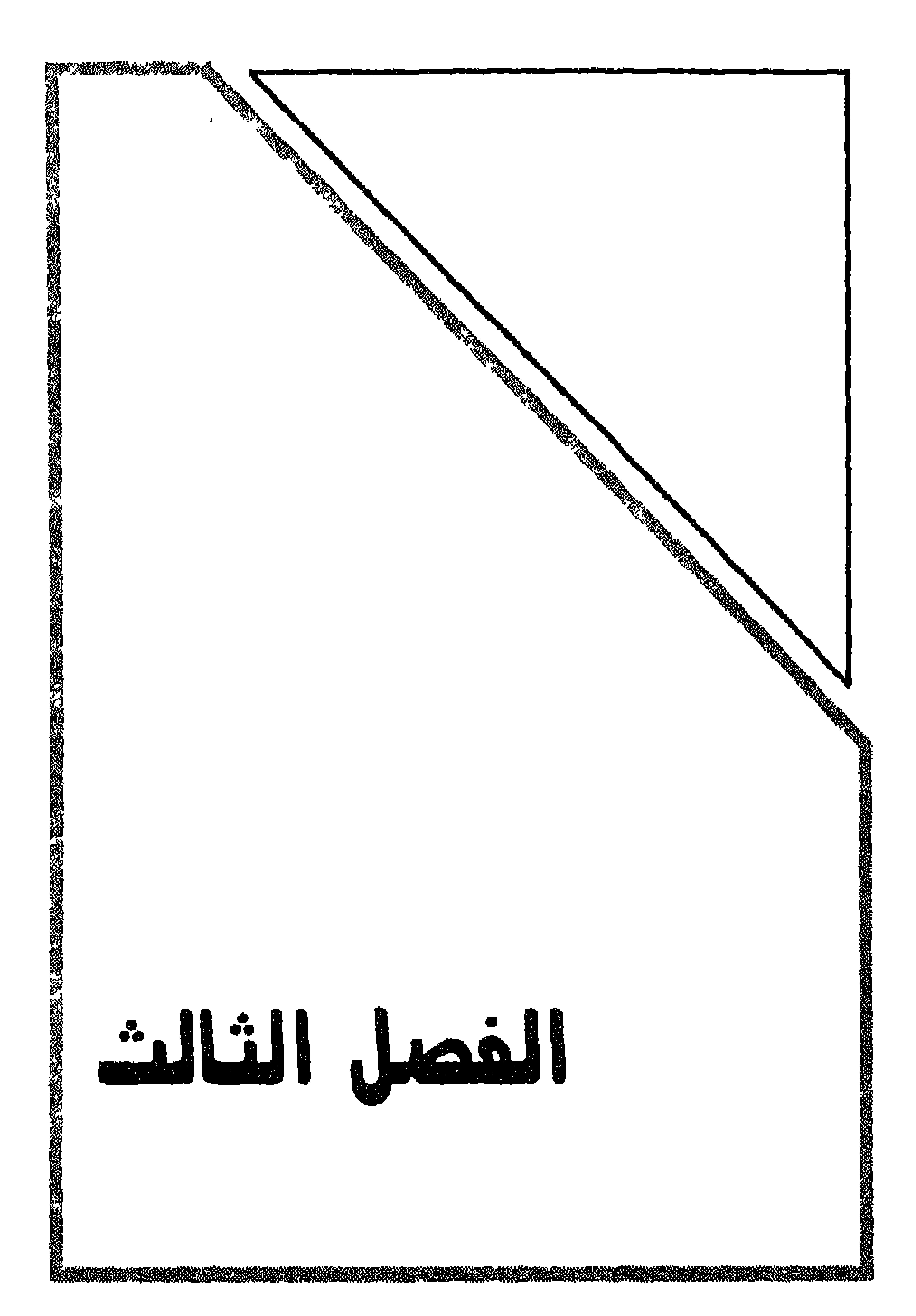
ـ ماذا تقول يا سان انطونيو؟

ـ أقول ان على بلواز ان يقتل لورمون... بموافقة فرانسوا لورمون بطبيعة الحال. مجرد خدعة، أيها الرئيس. ريثما تتضح لنا حقيقة الأهداف التي يسعى إليها أولئك الزبائن الأكفّاء من قتل الرجل.

ـ لقد أرعبتني فعلاً، قال الريّس ممازحاً. حسناً إذاً. سأوفد لك الشخص المطلوب وما عليك من جهتك إلاّ ان تجري الاتفاق مع الصناعي المذكور. أمنحك الحرية المطلقة في التصرّف. على أن يكون كل ذلك بطريقة غير رسمية، أليس كذلك؟

يخطر لواحدنا أحياناً أن ينصح هذا الحيزبون الكهل بأن يعمل لحساب شركة تأمين تجنباً لأي ورطة.

ـ كل هذا سيتم بطريقة غير رسمية، يا سيّدي المدير!



الفصل الثالث

إنّ مبنى «كارلينا» يحتوي على كل ما يتطلّبه الذوق الرفيع، مياه ساخنة وباردة في كل الطبقات وأصص لا تحصى للنباتات من كل نوع.

أصلُ في العاشرة صباحاً وأطلب مقابلة الصناعي الشهير، وكم أبدو أنيقاً منتعشاً في سترتي الزرقاء الفاتحة وبنطالي الباج الجديد كأنه خرج للتوّ من المصنع.

أطلب إذاً مقابلة السيد فرنسوا لورمون. فتبلّغ السكرتيرة الجميلة المعني بطلب المقابلة عبر الهاتف الداخلي فيسأل عمّن أكون. فأقول لها، وتبلغه بدورها، بمن أكون، الأمر الذي لا يحيد عن الحقيقة الحقّة التي لم أنطق بمثلها ذات يوم. فيوافق على مقابلتي.

يتقدمني صبيّ الخدمة عابراً ردهات المبنى حتى الطبقة الثانية ويدخلني إلى صالون وثير يُطل على منظر الثلج في الخارج. على الجدران علّقت نُسخ من أعمال «دوني» أما

الأرضية فقد افترشت بسجاد «لفيتان» الأصلي. فأُسلمُ مؤخرتي وظهري لرخاء إحدى الكنبات وانتظر. ومن غرفة مجاورة تتناهى ألحان موسيقى فاترة يبثها المذياع. وما هي إلاّ دقائق حتى يُفتح الباب ويطالعني رجل في الأربعين، متوسط القامة ولا بد انه سيكون أشقر الشعر لو بقي له منه شيء. يرتدي بذلة اسكتلندية بألوان ماكدونالد. قدماه عاريتان في خفين إيطاليين ويدخن غليوناً كان قد أوصى على صنعه منذ عهد قريب. نظراته تبدو نظرات رجل أعمال يرمق محدّثه في ثانية واحدة. فيدرك على الفور حقيقة أمره.

ـ السيّد سان انطونيو؟ إسمك يذكرني بشيء ما، يبادر إلى القول. ألست ذلك الكوميسير الذائع الصيت التي تطالعنا الصحف بأعماله الباهرة تباعاً؟

ـ باهرة، أحسب انها صفة مبالغة يا سيد لورمون.

ـ أتسمح لي؟ قال.

ويرفع سماعة الهاتف.

ـ فطور كامل، يتمتم لورمون.

ثم قبل ان يُعيد السماعة:

ـ أترغب في تناول شيء ما؟

ـ بكل سرور.

قهوة، شاي، شوكولاته ساخنة؟

ـ ويسكي.

فيبتسم.

ـ إن سمعتك تليق بك حقاً. وأضاف قائلاً: أحضر زجاجة الويسكي الخاصة بي.

وبعد ان يطلب وجبته الصباحية يجلس قبالتي.

ـ أحسب، أيها الكوميسير، أن لديك ما تطلعني عليه.

ـ بالفعل، يا سيد لورمون.

ـ إذاً، فلنصغ!

ـ لقد جئت لأنقل إليك نبأ سيئاً: هناك من يخطط لاغتيالك؟!

لا أدري ما المزايا التي يتمتع بها واحدكم ولكن لو ألفاني أحدكم ذات يوم في صالون داره أنقل إليه مثل هذا النبأ لأصبح لونه شاحباً مثل الكورباء ولارتخت مفاصله حتى التهالك، أما لورمون فيتلقى، من جهته، النبأ دون ان يحرّك ساكناً.

ـ متى؟ يسأل هادئاً.

ـ قبل مساء الغد يا سيد لورومون.

ـ مَنْ؟

وهنا أتمالك نفسي من سرد حكاية ريري.

ـ لا أعلم حتى الآن، ولكنني أعلم من مصادر موثوقة جداً ان العملية ستجري خلال هذه المهلة.

ـ ولأي سبب يريدون قتلي؟

ـ في الحقيقة كنتُ أتوقع ان تطلعني بنفسك على ما يُساعدنا بهذا الشأن، أقول بنبرة اعتراف.

ـ ولماذا بحق الشيطان تحسب أنني أعرف؟

ـ لأن واحدنا يعرف في العادة من هم أعداؤه، أو الذين يضمرون له الأذيّة. وفي العادة لا يتعرّض للقتل إلاّ من يُصبح وجوده مزعجاً. وتؤكد الإحصاءات ان في ثماني حالات من عشر، تكون الضحية مسؤولة جزئياً عن مقتلها.

يمكث هادئاً لا يرف له جفن ويواصل تحديقه بي فيما راحت أصابعه تداعب نبتة «الخلنج» بقربه. فلو جئت لأخبره أن مغفلاً ما قد صدم سيارته الواقفة لأبدى قدراً أكبر من الاهتمام أو القلق.

ـ لا يبدو ان لهذا النبأ أي تأثير عليك، يا سيد لورمون، أو على الأقل هذا ما ألاحظه؟

ـ بالفعل.

ـ إني معجب بشجاعتك.

ـ لا داعي لإعجابك. فما أبديه ليس شجاعة بل عدم تصديق يا عزيزي الكوميسير. ليس لي أعداء ولم أسبّب في حياتي ضرراً لأي انسان، أو على الأقل، ليس في حدود علمي، وأعتبر هذا النبأ مجرد إشاعة، وأرجو المعذرة إذا كنت أسيء إليك دون قصد!

ـ إلا انها معلومة وصلتني من القاتل نفسه.

هنا تبدو عليه مظاهر الاهتمام.

ـ ماذا تقصد؟

وفي هذه الأثناء يُسمع طرق على الباب ويدخل منه خادم وبين يديه صينية كبيرة عليها أطباق كثيرة. فأنتظر قليلاً ريثما يضع حمولته وأتابع.

ـ إن أولئك الذين يريدون لك الأذية قد استخدموا محكوماً سابقاً لقتلك. والذي جرى ان هذا الشقي قد انهار وأطلعني على الأمر، هذه كل الحكاية يا سيد لورمون.

ـ ولكن ...

ـ لو سمحت: ربما كان الأمر مجرد إشاعة كاذبة. ولكن قد لا يكون كذلك. إذا كانت دعابة فستشهد خاتمتها حتماً، أما إذا لم تكن دعابة فلن يُتاح لك ان تشهد شيئاً على الإطلاق. لأنك، في مثل هذه الحال، ستتعرّض للقتل فعلاً.

ـ ولكنك تقول إن القاتل المأجور قد انهار!

ـ بلى، انهار أمامي. ولكن الذين صمّموا على قتلك لن يُعدموا وسيلة أخرى لتنفيذ خطتهم. سيعيدون الكرة. ولكن هذه المرة سيبحثون عن قاتل محترف أكثر صلابة من المتخاذل الأول!

أصابت الحجّة مرماها. فيروح لورمون يرتشف قهوته ببطء وتمهّل كافيين للدلالة، كما في ليلة عرس في فندق سبيتزبرغ، على مضمون شروده المفاجىء.

ـ رغم انني لا أتدخل في السياسة...

ـ ولكنك تعقد الصفقات، الصفقات الضخمة التي قد لا يستسيغها المنافسون.

يبتسم، فأزداد إعجاباً برباطة جأشه. فبرغم كل شيء لا تعوزه الجرأة، هذا الفتى الصلب! الجرأة وكل مستلزماتها.

ـ لو كان على كل رجل أعمال ان يقتل منافسيه، لأضحى عالم الأعمال أشبه بالمسلخ في عيد الصيد! فمثل هذه التقاليد غير متبعة حتى في شيكاغو، يتمتم لورمون.

يشرد ذهنه للحظات ثم بعد ارتشافه بضع رشفات من قهوته يسأل منهمكاً بسكب قطرات «الزبادي» في فنجانه:

ـ وما رأيك أنت، يا سيد سان أنطونيو؟

ـ أحسب انه ينبغي ان نتصرّف على اننا مقتنعون بوجود مخطط لاغتيالك.

ـ وهذا يعني؟

ـ أتزاول التزلّج يا سيّد لورمون؟

ـ بالطبع! وإلاّ ما معنى مجيئي إلى كورشوفيل. أوتحسبني من هواة ارتياد البارات؟

ـ لا، فثمة أناس يأتون فقط للتمتع بالهواء النقي، أقول معترضاً.

فيجيب مازحاً:

ـ أنت تعلم جيداً ان هؤلاء يأخذون بلْعة من الهواء خلال النهار ودزينة من كؤوس الويسكي خلال الليل متنقلين بين الملاهي الليلية في المنتجع.

ـ غدا صباحاً ستذهب للتزلج يا سيد لورمون وستحرص على ان تكون ملابسك وعُدتك من بين تلك التي يسهل تمييزها بين الجموع. وإذا كنت لا تملك زياً من هذا القبيل في الوقت الحاضر فما عليك إلاّ ان تذهب منذ الآن للتبضع من محلّ جان بلان، وعندئذٍ سترتدي زيّك المتميّز وتعتمر طاقية الثلج وتضع نظارتك الخاصة وتوافيني إلى فندقي، ذلك اني أقيم في الـ«سابان بلو».

ـ وبعد ذلك؟

أتناول كأسي السكوتش التي تذوب فيها قطعة من الثلج مستوحدة.

ـ بعد ذلك سأوضح لك الخطّة التي سنعتمدها يا سيد لورمون. ومن الآن فصاعداً أوصيك بالقدر الأكبر من الحرص والتحوّط. وفي هذه الأثناء عليك ان تواصل حياتك كالمعتاد ولا أريد ان يعلم أحد بأني جئت لزيارتك.

فيهز برأسه.

ـ حسناً. ولكن، الكلام في سرّك يا حضرة الكوميسير، كل هذه المعمعة لا تعنيني بشيء. أنا هنا في إجازة وكل هذا الفيلم السينمائي لا يروق لي على الإطلاق.

أوه! يا لهولِ ما ستشهدون أيها الفتيان! فها هو سان أنطونيو يستعيد حماسة ساعات الصفر!

ـ والكلام في سرّك أيضاً، يا سيد لورمون، انني هنا في اجازة أيضاً، وكنت أفضل ان أكون الآن أحد المتزلجين على سفح بيولي بدل ان أنهمك في رعاية سلامتك!

فأكرع كأسي بجرعة واحدة. إنه شراب سلس، سلس جداً، من أفخر أنواع «المولط» molt.

ـ لا تغضب يا صديقي العزيز.

ـ لستُ غاضباً. ولكن ما يثير حفيظتي ان ترى الناس يتذمّرون لأنك تسعى لإنقاذ حياتهم.

أنهض وأتجه نحو الباب. يرافقني لورمون. وقبل ان أغادره يضع كفه الأصيلة النَسب على كتفي العَضِلة.

ـ شكراً، وأرجو المعذرة يا سان انطونيو. إني شديد الإعجاب بك!

وكانت اللحظة الملائمة لحُسن التخلص، أيها الفتيان؛ فمَنْ يدري؟ قد يكون الرجل قد انتابته ميول الحنين عليَّ!

*

* *

حالما أصل إلى الـ«سابان بلو»، أسأل موظفة الاستقبال الجميلة إذا كان السيد بلواز قد استيقظ، فتقول: لا. إذاً إليَّ برقم منامته: إنها الغرفة ٢٢، الأمر الذي يدعو إلى العجب كما قد يعلّق أحد تجار الماشية من أصدقائي.

وما ان أصل إلى الطبقة الثانية حتى ألصق أذني بباب الغرفة رقم ٢٢، كما قد يفعل طبيب بصدر أحد مرضاه.

لا أحسب ان رقم الباب ٣٣، ٣٣(*) ومع ذلك تناهت إلى

(*) رقم خاص بالمخابرات الهاتفية العاطفية (المدفوعة الأجر)، الشهيرة، آنذاك في فرنسا (م.ع).

سمعي أطراف حوار بين عاشقين:

ـ ناولني الكْريم يا عزيزي.

ـ أيضاً! يجيب ريري مغيظاً.

ـ الشمس حارقة وبشرتي حساسة!

ـ بشرة قفاي...! يجيب بلواز، لقد سئمتُ من هذه المساحيق اللزجة التي تقنع سحنتك.

ـ لماذا؟ تقول ليديا باستهجان.

ـ عندما أقبّلك يتراءى لي انني ألتهم فطيرة. وكم أمقت الفطائر!

أقول في سري انه حان الوقت لمقاطعة هذا الهديل المتبادل فأطرق الباب. يأتي ريري ويفتح الباب، كل ما يكسو جسمه كلسون أصغر من عادي، عارياً يشبه مسلّة «موريس» التذكارية. بدنه مكسو بخرتشات متنوعة. على أحد فخذيه عبارة موشومة: «ولا أنا أيضاً» وعند أسفل بطنه تقرأ العين الوقحة هذه الملاحظة الثمينة: «صنبور الضباط». وعلى ساعده: جذع تمثال الجمهورية، الواحدة غير القابلة للقسمة كما قيل لي. وعلى نحره ذراع أنوار طراز القرن السابع عشر. وعلى الساعد الآخر وشم الأميرال الياباني بوكونو - تومابلو بكل أوسمة الاستحقاق. وأخيراً، حول عنق كشك الجرائد الجوّال الكتابة التقليدية المعهودة «إقطع من هنا مُتبعاً الخط المنقّط».

ـ هذا أنت يا حضرة الكوميسير!

أتحسّس عنقه وأقول:

ـ هذا ما سيعين السيد ديفورنو(*) على انجاز عمله بدقة حين توضع فوق أرجوحة الموت!

ـ لا تذكر المأساة لئلا نجدها! يقول ريري متحسّساً الخشب.

ـ لفّ وشومك برداء واتبعني إلى غرفتي، رقم ٧.

ولا أتمالك نفسي من إلقاء نظرة تلصّص في اتجاه ليديا. وأصاب برقّة القلب المصحوبة بارتفاع ضغط الدم. أجد انها لا تكسو عريها إلاّ بسروال أشبه بورقة التين، وبصدرية حاسرة وحمّالة جوارب عنكبوتية شفافة. زي مقتضب من الأزرق الفاتح السماوي يُلفتُ البصر (والبصيرة) من بعد ويشلُّ الكتلة النخاعية اليمنى على الفور. وترمقني عبر المرآة بنظرات حارقة حتى وجدتني أبحث من حولي عن مطفأة حريق.

ـ هيللوا أيها الكوميسيرا

تلك الفتاة، يا اخواني، قابلة للالتهام ولا حاجة بنا للخبز! وأقول في سري، انه لن تمر أيام طويلة، وربما أقل من ذلك، حتى أجدني منهمكاً في معالجة تضاريسها. فليس من العدل في شيء ان ينعم ريري بالهناء وحيداً. كأن الباري يهب الأطايب لخنزير، أو أي شيء من هذا القبيل!

التماثيل ان لمحتها ترقص على أنغام سان غي! ولها من الفتنة ما يُعيد الفحولة إلى تراموای متقاعد. ليست فقط جميلة ولها

(*) مجرد اسم علم، لعلّه اسم الجلاّد في سلالة سدنة المقصلة الفرنسية الشهيرة التي بدأت بشارل هنري سانسون، إبّان الثورة الفرنسية (م.ع).

استدارات حوريّة، بل تمتلك أيضاً ذلك السحر الذي يعيد الشيخ إلى صباه، فيسأل واحدنا نفسه ما سر ذلك: أبريق نظرة؟ أم انعكاس الضوء على بشرة ملساء؟ أعطر؟ فتنة يلفّها الغموض!

ـ حسناً، سأوافيك بعد لحظات! يؤكد بلواز الذي يتحرّج من تلصصي.

إلاّ ان عينيَّ تلتصقان بتلك الفتاة كأنها ثبّتت بمادة لاصقة. فأنتزعها عنها بحركة مفاجئة. حركة أليمة لكن الواجب يدعوني!

ـ عافاك الله يا صغيري، هيّا أسرع. اني في عجلة من أمري.

ثم عدتُ إلى غرفتي فأجدها موحشة كالقفر. غرفة بلا امرأة كأنها صلصة بلا لحم.

أليس كذلك؟

الفصل الرابع

يبدو غريباً، صاحبنا ريري، بسترته الكراكوزيّة وبنطاله الأحمر. من يراه يحسب انه خادم بابوي في إجازة. أما قميصه فيحمل نقشاً غريباً عجيباً. عبارة عن سباق زحافات جليدية غير واضح في القطب الشمالي (ذو بيغ نورث، بالانكليزية). كما زنر نفسه بحزام عريض رغبة منه في ابراز مظهره القتالي. والحزام أيضاً يحمل نقشاً هو عبارة عن أوراق لبلاب. ومن يراه يحسب ان صاحبنا ريري قد انتزع لتوّه الجائزة الكبرى في الرماية على الدجاج وهي المسابقة التي تقيمها كلية تسليك المجاري في بيدانلير(*).

وإذ يراني مغتبطاً، يسأل حائراً:

ـ أي شيء هناك يا حضرة الكوميسير؟

(*) الايحاء واضح في اشتقاق التسمية بالفرنسية: الهواء العليل، يقصد سان انطونيو المعتل بالروائح الكريهة. (م.ع).

ـ تشبه نيرون طفلاً، أقول له. لا تنقص إلاّ ريش التاج حتى يُصبح الشبه تاماً!

فيكظم غيظه مرجئاً عبارته اللاذعة إلى وقت لاحق.

ـ ماذا تريد؟

ـ أجل، يا صغيري، لقد اتخذت كل الترتيبات اللازمة لعملية الاغتيال.

ـ إذاً؟

ـ أمنحك الضوء الأخضر.

ـ ماذا تقصد بالضوء الأخضر؟ ثغا بلواز.

ـ بإمكانك قتل لورمون، وكل شيء على أحسن ما يرام.

وراحت أوصاله ترتعد اضطراباً كأن دبيب نمالٍ تسري في بدنه بغتة.

ـ أتهزأ بي أيها الكوميسير؟

ـ لا، وحق السماء!

ـ لكنه جنون مطبق!

ـ بالضبط: ذلك أنني أعشق حكايات المجانين.

إلاّ ان الجرعة الزائدة في إثارة فضول رجل من طراز ريري ليست بالأمر المسلي. ذلك ان سعة دماغه ليست من الحجم العائلي، بل هي أقرب إلى سعة قوارير العيّنات. فأبادر إلى الشرح والتوضيح.

ـ غداً صباحاً سيأتي لورمون إلى هنا، مرتدياً ملابس ملوّنة ملفتة للأنظار. أتسمعني جيداً؟

وأحسب انه يكاد لا يفهم ما أقول. فهو مثال الرجل المعاق في كتلته الدماغية. لذلك حين تمسك بيده وتقول له اتبعني، عليك ان تحافظ على أقصى درجات التمهّل والاستعانة بكل الاشارات الممكنة عند المنعطفات.

ـ أجل، ولكن...

ـ وما إن يدخل إلى غرفتي سيخلع عنه ملابسه هذه، وذلك ليس لأن لديَّ ما تحسبه من ميول مخالفة للطبيعة، بل لأنه سيعطي ثيابه لأحد رجالي الذي سيرتدي ثياب لورمون ويذهب للتزلج فتتبعه، أما زلت تتبعني يا عزيزي؟

ـ أجل، ولكن...

ـ وعندما يتاح لك ان تنفرد به في ركن معزول ستُرديه مثل أرنب. ولا أحسب انك ستجد صعوبة في ذلك يا ريري.

ـ ولماذا أقتل أحد مساعديك أيها الكوميسير؟

فأدرك على الفور انني لو أبطأت بالشرح لحظة واحدة لفقد عزيزي بلواز وصلة المفاصل إذ راحت قلاباته تهتزّ مطقطقة!

ولا أدري إذا كان ما أراه مجرد تهيؤات بصرية ولكن تراءى لي انني أرى دخاناً يتصاعد من ثقوب وجهه وبدنه.

ـ ستطلق النار على الزميل الكريم بواسطة هذه التُحفة الثمينة.

وأسحب من حزامي مسدساً من شأنه ان يُعالج فواق نقّار هوائي.

- يا له تحفة ميكانيكية، يقول ريري مبدياً إعجابه.

- إنه طراز بيريتا، سلاح الرجل الرياضي. ملبّستان من هذا المسدس الأعجوبة في نحرك وإذا بمجاري الهواء تصطرع في قصبتك الهوائية!

- ولكن بحق السماء، أنت لا تطلب مني بالفعل ان أقتل شرطياً لانقاذ سافلة لورمون! ليس لأن ميولي بُلشفية، يا حضرة الكوميسير، ولكني أجد الأمر غير سويّ

- إنه محشو برصاص خُلّب، أيها الغبي!

وعندئذٍ يستعيد وجه بلواز اشراقته الورديّة مثل غسق ناحية البحر المتوسط.

- لقد فهمت! يقول جازماً مستخدماً أوجز العبارات الممكنة.

- برافو. كنت أعلم جيداً انك صبي متوقدّ الذكاء.

وأعطيه البيريتا.

- هاك الغرض يا ريري، احفظه جيداً بانتظار الغد.

خلال فترة بعد الظهر أستقبل موفد العجوز. وما إن أتمعّن في سحنته ومظهره حتى أتيقن من براعة الأصلع الحليق وحسن تدبيره. فللحيزبون الكهل عينُ الأميركيين الثاقبة. إذ يتمتع لوران، موفده، بقامة لورمون نفسها. الامتلاء إياه، والصلع إياه،

أما شكل الوجه فمدهش في تطابقه مع الأصل. ومن يراهما يحسب انهما من صلب أب واحد وان أمكن ان يكونا من أمّين مختلفتين!

أعفي لوران من سؤال لماذا وكيف فيحجل برفقتي مثل جندول. وأصحبه إلى منحدر التزلج حيث يتضح لي انه زحّاف ممتاز. باختصار انه عين الطلب. ونمضي معاً ساعات بعد الظهر في مزاولة الرياضة، أما السهرة الملحمية فصرفت أوقاتها لمتعتنا في مختلف الملاهي الليلية المختارة. أما الويسكي فلم ينضب معينه حتى النهاية!

وكم يبدو لوران مغتبطاً لهذه المهمة التي تشبه الإجازة. وعندما عدنا أدراجنا إلى الـ«سابان بلو»، في ساعة متقدمة حتى لرجل في سنّه، أسرّ إليّ من الباب إلى الطاقة، ان عملنا هو العمل المثالي نظراً لما يتيحه لنا من عيش الملذّات والرفاه على نفقة الأمّ ماريان التي تُدعى الوطن.

عند الصباح الباكر، تُعلمني البتولُ الجميلة، موظفة الاستقبال ان سيداً ما يطلب مقابلتي. إنه لورمون الذي جاء لرد الزيارة. وإذا به يرتدي زياً غريباً، عبارة عن طقم تزلج أبيض يزينه، من أعلى إلى أسفل، خط أسود عمودي. وفوقه سترة نصفية مبطنة نقشت على ظهرها صورة نسر، أما رأسه فتعتليه طاقية استراخان (ما يسميه بيرو استراغون(*)) فيما تحجب عينيه نظارة سوداء غريبة.

ويروح لورمون يتبختر في أرجاء الحجرة مازحاً.

(*) نبات الطرخون.

ـ أيعجبك هذا الزي يا سان أنطونيو؟

ـ ما كنت لأحلم بأفضل منه، يا سيد لورمون، آمل ان تترك لي صورة تذكارية قبل ان نفترق.

ـ والآن، ماذا ينبغي ان أفعل؟

ـ أن تنزع ملابسك! لقد أحضرت لك مبذلاً وخفّين وبعض الكتب. وعلاوة على ذلك، بإمكانك ان تطلب ما شئت من موظفة الاستقبال فمن دواعي سرور الشرطة الفرنسية ان تقدّم لك أنواع الشراب التي تختارها!

فتجحظ عيناه ذهولاً.

ـ ماذا تقصد؟

فأنقر الباب نقرات خفيفة ويدخل لوران.

ـ أقدّم لك المفتش لوران الذي سيرتدي ملابسك وينتحل شخصيتك!

ـ وماذا أيضاً؟

ـ سيذهب للتزلج. فيقتفي القاتل المأجور أثره ويرديه بعدة طلقات في ظهره.

وأعاجله بغمزة عين طراز ٦٨ المعدّل، التي سبق ان نالت من بائعة ورود على الفور ومن أزرار حمّالة جوارب شقيقة بائعة الورود البكر.

ـ رصاص خُلّب في هواء الثلج الطلق، انه عين التناسق. وبالطبع سيقع المفتش أرضاً ويتظاهر بأنه أصيب إصابات قاتلة.

ـ وما القصد من كل هذا؟

ـ القصد هو التالي: بصفة رسمية ستعتبر ميتاً لبضع ساعات!

فيشحب وجه لورمون، ثم يحمّر ثم يصفرّ ويخضرّ ثم يميل إلى البنفسجي ثم إلى البني (مثل القديس لوران) فإلى البرتقالي، ثم يتقزّح(*) قبل ان يستعيد لونه الطبيعي تدريجياً.

ـ ولكن يا صديقي هلاّ فكرت قليلاً بتبعات إعلان مثل هذا النبأ؟ وحالة البلبلة التي ستدبّ، بكل تواضع، في الأوساط الصناعية! وحالة الاضطراب التي ستعمّ مصانعي! وحالة الذعر التي ستصيب أفراد أسرتي! و...

فأوقف تداعياته بإشارة مباغتة من يدي.

ـ مهلاً: لن يتسرب الخبر خارج حدود كورشوفيل.

ـ ولكن الصحف لها مراسلون هنا!

ـ لحسن الحظ ان جان لوران لوفيبور، عمدة كورشوفيل وحامي حماها، هو صديق لي! وان رجوته ان يمنع ترويج النبأ ولو بالقوة فسيفعل، انه صديق وسيّد لبق.

ـ وبماذا يجديك ان يحسبني سكان كورشوفيل ميتاً؟

ـ إمكان الكشف عن هويّة المدبّرين يا سيد لورمون!

ـ لم أفهم!

(*) نسبة إلى ألوان قوس القزح. (م.ع).

ـ إنهم هنا، في الظل، يراقبون قاتلهم المأجور خلسة. وما ان ينجز المهمة حتى يظهروا. وعندئذٍ سيُتاح لي ان أقبض عليهم!

يفكر لبعض الوقت.

ـ ولكن لنفترض ان النبأ تسرّب إلى الخارج برغم كل شيء؛ لنفترض ان أحد السكان المحليين اتصل بصديق له في باريس وأطلعه على النبأ برغم كل التدابير الاحترازية، فماذا تفعل؟

ـ في مثل هذه الحالة أسارع إلى تكذيب النبأ. وعندئذٍ نذيع رواية ما حول لص انتشل محفظتك وهرب قبل ان يُطلق عليه الرصاص ويُقتل.

ـ إن هذا النوع من الحملات الدعائية لا يستهويني على الإطلاق.

ها هو لورمون الذي عرفته جيداً دائم التذمّر والشكوى! فأهمّ بالقول ان «أغرب عن وجهي واذهب إلى حيث أردت» لكنه يفطن فجأة إلى احتدام غضبي فيختار الهدنة.

ـ ولكنّ الأمر غير مهم! يُضيف قائلاً: لنتّبع مخططك، ففي آخر الأمر إنها مهنتك. أنت الشرطي وأنا لست سوى الضحية!

وإذ يستغرقه الضحك ينزع عنه ملابسه فيرتديها لوران. وعندما أصبح كل شيء جاهزاً حسب الخطة؛ اتصلتُ بيلواز الذي ينتظر إشارة مني في غرفته وليس من المستبعد ان يكون في هذه الأثناء منهمكاً بمغازلة فتاته. وأي غزل في مكان بلغ من الارتفاع مبلغاً!

بعد ذلك بعشر دقائق كانت ثلة صغيرة من رواد التزلج تتجه نحو خط الانطلاق. يتقدم الثلة: لورمون المزيّف (الذي يبدو حقيقياً أكثر من الحقيقي)؛ يليه عزيزنا بلواز وقد وضع البيريتا تحت زنّاره، ثم الكوميسير سان انطونيو الذائع الصيت الذي يسترعي، في تقدمه الواثق، انتباه كل نساء الناحية.

الطقس أشبه بتلك الصور التي توزّع على ملصقات الحملات الدعائية. فالسماء زرقاء كعينيّ الفاتنة ليديا والجبال مكوّرة منتصبة كصدرها الباذخ.

نتابع تسلّقنا الشاق يحف بنا صليل العتاد التزلجي. واحدنا تلو الآخر حسب الترتيب الآنف الذكر. الثلج يصفّر تحت زلّاجاتنا لحن الجنرال شتاء. أما معبودكن سان انطونيو، يا فاتناتي المحظيّات، فلا يغفل عما يجري، متيقظ البصر والبصيرة. أينجح المخطط الذي رسمته أم أحصد الخيبة والإخفاق؟ أميل إلى التفاؤل. فلا بد ان السفلة الذين خططوا لاغتيال لورمون لا يثقون ببلواز ولذلك حرصوا على مراقبته خفية للتثبت من ان الرفيق ريري لن يخدعهم.

نصل إلى أعلى فسحة الانحدار. فيسارع لوران إلى الانطلاق بعد التثبت من سلامة عدّته وينزلق بسرعة خاطفة نحو الوادي. ويتبعه رفيقي ريري. واحرص قبل ان انطلق في أثرهما على تأمل ظليهما المبتعدين. ولكن بدل ان أتبع مسارهما انحرفت في خط موازٍ بحيث أحافظ على علوّ موقعي حيالهما فيتسنى لي ان أرى ما يجري بينهما.

في مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح يكون عدد المتزلجين

قليلاً جداً. ومع ذلك التقي خلال مناورتي عدداً منهم منطلقين في وضعية البيضة (تلك التي ابتكرها يول براينر في أحد أفلامه). وفجأة أنتبه ان بلواز ولوران أصبحا في أسفل المنحدر على مسافة بعيدة مني وهما يواصلان تقدّمهما في اتجاه الساحة الزرقاء حسب المخطط المتفق عليه.

إنه ركن منعزل تسوده الدعة وحيث يطيب للمرء ان يُسدّس(*) قربيه. يتوقف لوران فجأة وسط ضباب من ذرات الثلج المتناثرة بفعل وقفته، ومكث يتأمل المشهد من حوله كمن يتغرغر بجرعات من الأوكسجين النقي.

يلحق به رفيقي بلواز. وألمح حركة يده من بعيد. يتناهى صوت: بوم.. بوم! بالأحرف العريضة وسحابة دخان خفيف تتصاعد في عذوبة الهواء الطلق. وينطلق بلواز مجدداً لا يلوي على شيء، أما صاحبي وزميلي فيتهالك فوق الثلج بحركة مسرحية تُضاهي براعة من يؤدي أدوار شكسبير على خشبة المسرح الوطني.

أتمهّل قليلاً قبل ان أتدخل ترقباً لما سيلي. خلال ثلاث دقائق لم يتبدّل المشهد، وصاحبي لوران ما زال ممدداً فوق الثلج. ولا بد انه يُعاني من البطء الشديد في تصرّم الوقت. وفي آخر المطاف يقترب منه ثلاثة متزلجين صودف وجودهم في الجوار. وكم أود ان أرى سُحنة هؤلاء المارين بمحض المصادفة.

(*) حذونا حذو سان انطونيو في اشتقاق الفعل من مسدس، ولا نحسب ان القصد منه قد يخفى على القارىء. (م.ع).

وإذا بسان أنطونيو على أهبة الاستعداد، ينطلق كالسهم، تصفر زلاّجتي طراز «آليه ٦٠» كما يموء هرّ حُبس في ثلاجة. ولكن عبثاً. إذ يتضح لي فور وصولي أن المتزلجين المذكورين ليسوا في الحقيقة من المشبوهين، فهناك مدرّب التزلج الذي أعرفه جيداً بالاضافة إلى فتاتين انكليزيتين كان يقوم بتدريبهما. وألفيته راكعاً بقرب لوران.

فينظر إليّ ويهمس قائلاً:

ـ لا أدري ما الذي جرى، أنظر!

وينظر سان انطونيو يا صغاري. وتجحظ عيناه الرئاسيتان لهول المفاجأة. رفيقي لوران جثة هامدة. لقد أصيب بطلقتين في أعلى جذعه. بقعة كبيرة من الدماء يتسع محيطها فوق الثلج. أجسّ نبضه: nobody! لا حياة لمن تنادي! أنظر إلى فمه: لا أثر لغبش يتسرّب منه. لقد قضي الأمر. قضي الأمر!

ـ إنها جريمة! يقول المدرب وقد أمسك بالمسدس البيريتا الذي لا يزال ساخناً فأذاب من حوله الثلج المتجلد.

ـ هذا ما يبدو لي، يغمغم المغفّل المدعو سان أنطونيو.

أودّ لو أزعق بملء صوتي لولا خوفي، والثلج المترامي في الأرجاء، من ان يحسبني السامع ذئباً جريحاً.

واعتقادي ان ريري، ذلك المأفون، قد خدعني. لقد استبدل رصاص البيريتا الخلّب برصاص حقيقي. حسناً، أعترف وأقرّ بأن لوران لم يتعذب قبل وفاته. ولكن كيف أصف ذهول هذا الفتى المسكين عندما أحسّ ان ما يخترق لحمه هو رصاص حقيقي حارق!

ـ سأستدعي فرقة الاسعاف على الفور وأبلّغ مخفر الدرك! أقول للمدرب.

كم أتحرّق للإمساك ببلواز. وحين أفعل، صدقوني، لن يبقى من أذنيه ما يعينه على سماع آخر اسطوانات فرانك سيناترا. هذا إذا كان الجبان لا يزال في الجوار!

*

* *

والحال! صدّقوا إذا شئتم وإلاّ فاذهبوا لوشم رقم هاتف جان مينور على كتفكم اليسرى بواسطة مسواك ذي فقار دقيق، ولكنّ أول من يطالعني بسحنته فور عودتي إلى الـ«سابان بلو» هو ريري بالذات، وأراه مبتهجاً مشرق الوجه مثل وثائقي ملوّن حول جزر هاواي. يجلس إلى بار الفندق يحتسي كأس «بيتوين ذا شيتس» على أنغام المذياع القريب. وما إن يراني حتى يبادرني بابتسامة عريضة قياس ١٤٠ إنشاً.

ـ إذاً يا حضرة الكوميسير، هل جرت الأمور كما تشتهي؟

ـ على أفضل وجه، يا آل كابوني!

ويضحك وإذ يبتعد الساقي قليلاً، يُتابع همساً:

ـ أرأيت تلك اللقطة السينمائية الرائعة! ان زميلك لممثل من الطراز الأول. فحين سقط أرضاً حسبته ميتاً بالفعل!

وفجأة يتنبّه إلى سحنتي المقطّبة فيسأل:

(*) يوحنا الأصغر.

ـ ولكن ما الأمر؟ تبدو لي شاحباً كالميت؟

ـ لست أنا الميت، يا ريري، بل الفتى الذي أرديته لتوّك!

ـ ماذا تقول؟ غمغم المأفون.

ـ لا عجب من انه لعب دور الميت جيداً. لقد كان المسدس محشواً برصاصات حقيقية.

فراحت أسنان بلواز تعزف مقطوعة كارمن من تلقائها.

ـ هيا، لا تمازحني، يقول متوسلاً، إن هذا المزاح يرعبني!

أسحب من جيبي مسدّس البيريتا الذي حرصت على الاحتفاظ به ونزعت منه الممشط.

ـ أنظر إلى الرصاصات المتبقية، يا صغيري. ولن تقول لي بالطبع إنها حبوب لوبياء؟

آه! يا لسحنة الغضب، غضب الأسلاف! رسم آلي، وحقيقي لمجرم موصوف.

ـ ولكن يا سيدي الكو.. كو، لقد قلت لي ان الرصاص خلّب... ولمزيد من الاحتراز دقّقت بالممشط بنفسي!

ولا يبدو لي انه يتظاهر بالذهول! فهو عاجز عن أداء مثل هذا الدور، ريري البسيط، فسرعة البديهة ليست من شيمه ولا في طاقته.

ـ أقسم لك، يا سيدي الكو.. كوميسير، ان الذنب ليس ذنبي ولا صلة لي بالأمر. أوَتحسب، بحق السماء، انني أقتل شرطياً أمامك، بعد ان اعترفت لك بكل شيء!

ـ إذا كنت بريئاً كما تزعم، أقول له، فهذا يعني أن أحداً آخر استبدل الرصاص الخلّب برصاص حقيقي!

ـ لا، انه أمر مستحيل!

ـ ماذا فعلت بالمسدس بعد أن أعطيتك إياه ليلة أمس؟

ـ أبقيته في جيبي طيلة الوقت لم يفارقها؛ أقسم لك أيها الكوميسير.

ـ ولكن أنت، لقد فارقت جيبك أيها الأحمق حين ذهبت للنوم أليس كذلك؟

ـ حسناً، ولكن ملابسي كانت قرب سريري، وبقيت في موضعها طيلة الليل، اسأل ليديا إن شئت.

ـ حسناً سأسأل ليديا! أين هي الآن؟

ـ لقد ذهبت للتسوّق.

ـ تعال!

ـ إلى أين؟

ـ إلى غرفتك.

ـ لمَ؟

ـ سترى، أما إذا كنت تسأل حرصاً على عرضك فلا تشغل بالك كثيراً، فيوم أصمّم على إيلاء الرجال اهتماماً فسأحرص على اختيار من هم أكثر إثارة منك!

ونصعد إلى غرفته. وأنتم تعرفونني جيداً، أيها الأصحاب، وتعلمون جيداً ان الفارق بين فتاة رقيقة القلب وبيني يوازي

الفارق بين بنفسجة بيضاء وعامل الأسلاك الشائكة، ولكن بصراحة، بدأت الأمور تختلط عليَّ. فبعد الضربة القاسية التي تلقيتها لم يعد في الأرض الفسيحة مُتّسع لموازاة المهانة التي ألمت بي!

ندخل إلى الغرفة ٢٢. ونجد الحجرة خالية. على الطاولة أرى مغلفاً وضع بطريقة ملفتة للانتباه وقد كتب عليه:

«إلى المغفل ريري بلواز».

فأسارع إلى فتح المغلّف وأقرأ عبارة واحدة كُتبت على ورقة صغيرة:

«تبدو في حالة جيدة، يا قاتل الشرطي!».

هذا كل شيء. لكنها عبارة قد تعني الكثير. فالرسالة تعني ان مؤامري بلواز لم يخدعوا بالخطة التي وضعتها، وانهم علموا، قبل ارتكاب الجريمة، ان ريري يخونهم.

ـ خُذ، اقرأ، إنها رسالة لك!

يقرأ ويشحب لونه..

ـ لقد وضعتني في مأزق حـ...! يقول. ولن يمرّ وقت طويل قبل ان يرسلني هؤلاء الأكارم إلى قبري!

ـ قُل لي يا ريري، هل علمت فتاتك بالمخطط الذي وضعناه!

فيهز كتفيه.

ـ لا، بالطبع!

فأمسك بكتفيه بشدة وأرغمه على التحديق في عينيّ.

ـ لا تبدو أصدق من سمسار عقارات يحاول بيع مصنع للغازات السامة على انه قصر شامبورا

أتعتقد يا ريري أنك لا تزال قادراً على خداعي؟

فيُطرق ويقول:

ـ أوه! حسناً، كانت الفتاة تعلم. ولكنها فتاة مستقيمة كما تعلم!

ـ مستقيمة مثل خطوط الحمار الوحشي. لطالما قالت لي فيلسي، أمي العزيزة، ان أشرف ما امتطاه الرجل هو الحصان أما أقلّه شرفاً فهو المرأة.

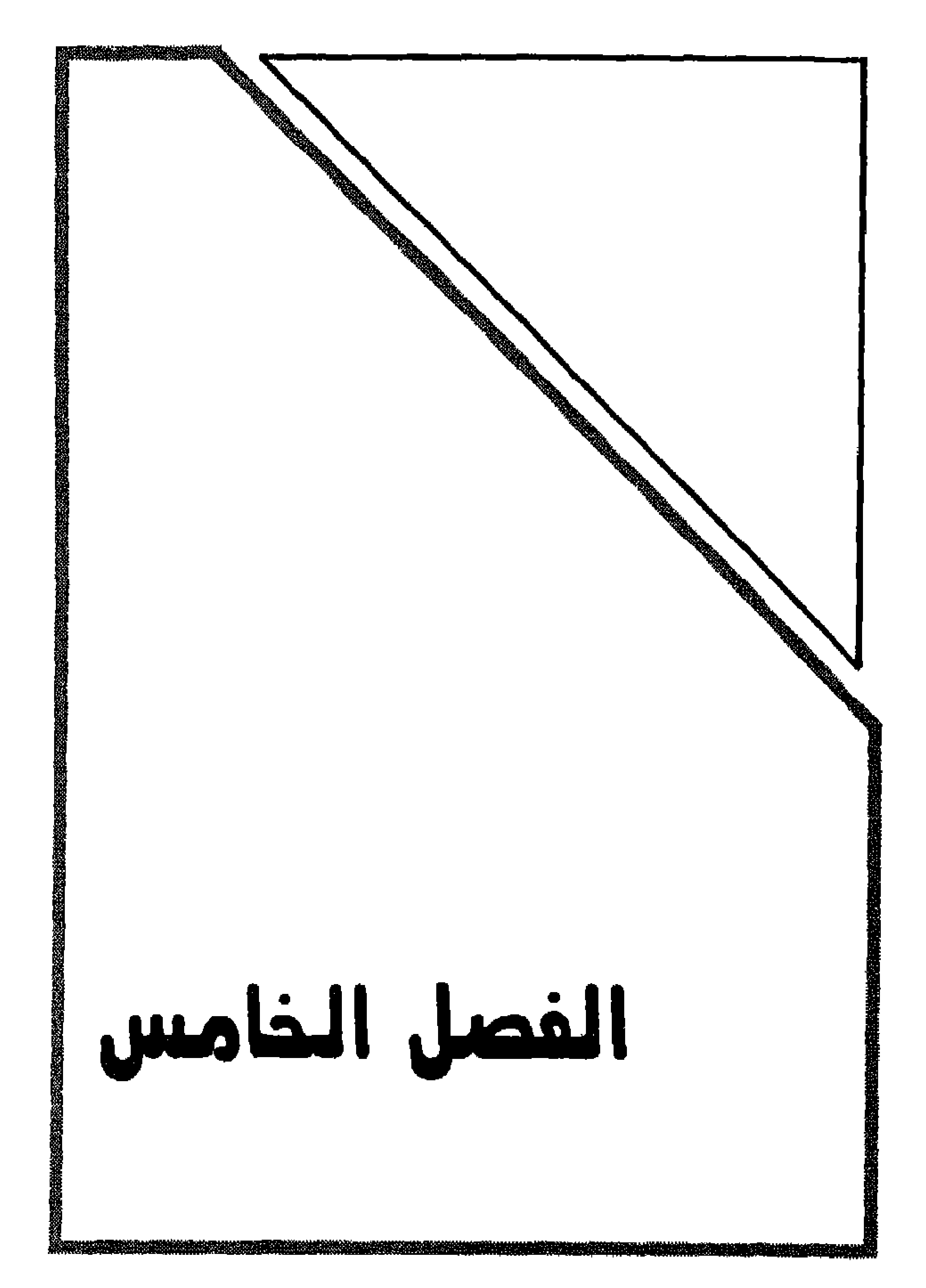
ـ أنت ترتكب خطأ فادحاً، يا حضرة الكوميسيرا

ـ كم أحب ارتكاب الأخطاء، يا صغيري. لو كنت ثرياً لما فعلت شيئاً آخر ولكن واقع الحال ان امكاناتي لا تسمح لي بذلك.

وأغادره لأوافي لورمون في غرفتي. فقد أذنت الساعة التي سيكون عليّ فيها ان أتحمل السخريات!

أجد غرفتي خالية كغرفة ريري. فأقول في سري ان الرجل ربما اضطر إلى الذهاب إلى المرحاض وأصمم على التريّث قليلا ولكن سرعان ما أنتبه إلى تفصيلين دقيقين: لقد اختفى غطاء السرير وقطعت حبال الستائر.

فما رأيكم، جرعة زائدة من الجثث لهذا اليوم؛ أمر غريب، أليس كذلك؟



الفصل الخامس

تتبدّل سحنة رفيقي بلواز وتصبح أشبه بسحنة رجل محترم أشعل سيكارته بشعلة ورقة يانصيب رابحة. فيمتقع وجهه كالمصاب بسرطان الدم، أيها الأصحاب! ولا تحسبنّ ان وجه عزيزكم سان - أ. في حالة أفضل!

تراود رأسي العنيد فكرة واحدة لا تغادر إلى مشتاها. والفكرة مفادها ان هذه الحكاية لن تنتهي فصولاً عما قريب، وستذاع على الملأ، وسألقى ما يترتب عليها من النيل من سمعتي والملامة! ولا بدّ انها ستثير اللغط الكبير في السلك الذي أنتمي إليه!

أهبط الدرج مُسرعاً كمتزلج يهبط المنحدر الجبلي، وأطرح بعض الأسئلة على موظفة الاستقبال العذبة ذات النظارتين. إنها فتاة رقيقة ولها عينان رماديتان كمياه بحر الشمال.

ـ أخبريني يا صغيرتي الجميلة، ألمحتِ رجلاً يغادر الفندق وهو يرتدي مبذلاً؟

فتهز برأسها الطائش.

ـ لا بدّ انك تمازحني يا سيد سان - أنطونيو! رجل يغادر الفندق بمبذله وفي كورشوفيل!

إنها محقّة؛ فحتى الرعاع لا يتجرّأون على الظهور بمبذل في مثل هذا المنتجع المخصص للنخبة!

ـ أمر آخر، ألم يغادر أحد وهو يحمل رزمة ضخمة طراز لفافة سجاد على سبيل المثال؟

فتهتز خصلات شعرها الداكن بالحيوية الباسمة إياها.

ـ يا لأفكارك الغريبة! تغرّد البلهاء قائلة.

يرنّ جرس الهاتف. فتجيب هادلة: «آلو! مَنْ»، فأهمّ بالابتعاد عنها وإذا بي أرى الخادم ذا الساقين المقوّستين الذي يهتمّ بنظافة المكان، يقترب مني.

ـ أما أنا فقد رأيت، يقول الدعيّ بلكنة أهل السافوا المفرطة حتى لتبدو لكنة ايطالية.

ـ وماذا رأيت؟

ـ رأيت رجلين ينقلان رزمة ضخمة طويلة وغير صلبة. حتى ان شيئاً ما وقع من اللفافة المحزّمة وتبين انها خفّ أسود!

ـ ومن أين غادرا؟

ـ من باب الخدمة، حيث يخرج المتزلجون بعدتهم.

ـ وبعد ذلك؟

ـ رأيتهما يستقلاّن شاحنة صغيرة طراز DS سوداء.

ـ منذ وقت طويل؟

ـ منذ عشرين دقيقة.

فأهرع نحو موظفة الاستقبال وأنتزع سماعة الهاتف من يدها.

ـ مخفر «موتييه»، بسرعة! أزعق مخاطباً عاملة البدالة.

ـ هنا الكوميسير سان انطونيو من قسم العمليات الخاصة! أقول رشقاً. أقيموا على الفور حاجز تفتيش على الطريق بين «سالان» و«موتييه» لاعتراض شاحنة صغيرة من طراز DS أو ID، سوداء. وستجدون في داخلها رجلاً مكبّلاً داخل غطاء سرير.

ـ أرجو ان لا تكون مجرد دعابة! يجيب الدركي.

ـ إفعل ما أقوله لك بحق السماء! وللتثبت من صحة هذا الأمر، اتصل بال «سابان بلو» في كورشوفيل وستجد ان ما يجري ليس مجرد دعابة. أوقفوا كل ركاب العربة المذكورة. وفي الوقت نفسه أرسل دورية إلى المحطة للتثبت من ان فتاة جميلة وسمراء، تدعى ليديا...

أغطي طرف السماعة بكفي وأسأل بلواز:

ـ ما هي كنية السوسة التي تعشقها؟

ـ روبييه.

ـ ليديا روبييه، ولا تضيّع دقيقة واحدة! مفهوم! بسرعة، انه أمر عاجل! وبأية حال سأوافيك إلى هناك حالاً!

أعيد السماعة إلى الفتاة.

ـ ما الأمر؟ تسأل.

ولكن لا وقت لديَّ لأجيبها. ذلك ان ما يجري يهدد مستقبلي المهني برمّته. لا بل ما هو أكثر من ذلك: سمعتي.

فإن أخفقت في احتواء الضربة لأصبحت سمعتي كسمعة مزوّر الطوابع البريدية الذي أصيب بمرض الرعاش.

وأهرع لاستبدال حذاء التزلج بحذاء خفيف من الجلد المرن كذمّة تاجر سيارات.

ـ ماذا نفعل الآن؟ يغمغم بلواز.

أمام استخدامه لنون الجمع أجدني مرغماً على التريث قليلاً. فأمكث حائراً لثانيتين ثم انقضُّ بجماع كفيّ على ياقته.

ـ أما أنت فستبقى هنا، أيها البدن الرخو! وإن حاولت أي شيء فصدّقني ان ما سيصيبك على الأثر لن يكون صالحاً للنشر في الصحف. وإن صودف ان اتصلت بك فأرتك الفارّة، فالزم الصمت! أخبرها فقط أنك نفذت المهمة وانني أتولى تغطيتك. ولا تحاول ان تلعب دور الفطن، أفهمت؟

ـ فهمت، يا سيدي الكوميسير.

ـ ليس لديَّ ما أنصحك به، ولكن لو كنت في وضعك لأبتعت أعمال سيمنون(*) الكاملة ولأقفلت على نفسي داخل غرفتي لا أبارحها. ولا تنس أنك في موقف لا تُحسد عليه.

ثم غادرته برفقة الخادم ذي الساقين المقوّستين ليساعدني في

(*) جورج سيمنون، مؤلف الروايات البوليسية الشهير.

رفع الثلج المتراكم فوق عربتي.

*

* *

في سالان يوقفني الحاجز الذي أشرتُ بإقامته. وأعرّف عن نفسي أمام السادة رجال الدرك وأسألهم عما إذا كانوا قد عثروا على سيارة «السيتروان». فيجيبون بالنفي. لقد عبر الحاجز عدد من سيارات الـ DS السوداء إلاّ ان أياً منها لم يكن مجهزاً على شكل شاحنة صغيرة. ومع ذلك أوقفوا هذا السيارات وفتشوها ولم يعثروا على أي شيء. أما المدعوة ليديا فلم يعثر عليها في المحطة. إنه لأمر مستهجن أليس كذلك يا رفاق؟

كم يبدو صغيراً عزيزكم سان انطونيو ومعبود السيدات الفاتنات حتى ان حجمه بات لا يتعدى ما يستطيع الولوج بين قضيبي المدفأة الكهربائية. فأتأمل سلسلة الجبال الرائعة الشامخة قبالتي كحاجز يصعب اختراقه! وأسأل في سري: أما زال فرانسوا لورمون في مكان ما وسط جبال الألب، أم انهم اقتادوه نحو مناطق مجهولة بطريقة مجهولة أيضاً؟

وبأية حال، لن أهيم في دروب المرتفعات الجبلية ومسالكها بحثاً عنهم. وفي طرفة عين اتخذت قراري. فقد اتخذت مجريات الأمور منحى خطيراً وما عاد بإمكاني أن أواصل تحقيقاتي على سجية أهوائي. ينبغي ان أعود إلى المراجع العليا! وصدقوني، اني متلهف لارتياد أماكن الرخاء والراحة ولكن أجدني في موقف لا أحسد عليه حتى ان وعاء القيء ليحتل مرتبة أرفع مما أنا عليه في سلّم القيم.

لذلك أعمد إلى إعطاء أوامر مشدّدة لرجال الدرك باستكشاف المنطقة ومداهمة الفنادق والنزل بحثاً عن المدعوة ليديا، والاستقصاء، إذا أمكن، حول مصير المدعو فرنسوا لورمون. وبعد ذلك أسلك طريق شامبيري التي صودف انها نفسها الطريق التي تؤدي إلى باريس.

ورجائي هنا لا أن تتقبلوا فائق الاحترام، بل ان تتقبلوا وصفي للسرعة التي انطلقت بها غير آبه بطبقات الصقيع ودون ان استخدم سلاسل العجلات الخاصة. فقد ضرب المثل مراراً كما تعلمون: حيث السلاسل والقيود لا سبيل إلى المتعة!

أما من أصادفهم من المارة وسائقي العربات فيحسبون أني من كوكب آخر أو انها ليلة الكرنفال! وفي أقل من ساعة أصل إلى ضاحية شامبيري وهناك أتيقن من ان سوء الحظ لم يفارقني. ففيما أجتاز اليافطة التي تشير إلى ان القادم قد أصبح في عاصمة دويلة السافوا السابقة، أسمع صوت انفجار سخيف تحت عربتي الخارقة ولا تلبث ان تترنح بي كالمركب السكران. فأركنها مطلقاً ما ابتكرته مخيلتي من الشتائم وأترجل للمعاينة. وإذا بي أمام قضاء الله الذي لا مفر منه، أيها الصحب! لقد انفجرت إحدى العجلات! يا لسعدي! فلا جدوى من المحاولة، صدقوني، حين يكون يومك يوم النكد منذ البداية، أحرى بك ان تلازم الفراش وليس في صحبة فتاة (فلن تقدر على شيء) بل مزوّداً بعبوات من الحبوب المنوّمة.

وبما ان مرآب الميكانيكي لا يبعد أكثر من خمسة وعشرين سنتيمتراً من حيث ابتليت بالعطل أسارع إلى إيداع العربة بين يديه الشافيتين، ثم استقل سيارة أجرة تقودني، شاكراً ألطافها،

إلى محطة القطار. وينبئني أحد الموظفين هناك ان القطار المتوجه إلى باريس سيصل في غضون ثوان. فأجد في بشراه بعضاً من عزاء.

وبالفعل لا يلبث القطار القديم ان يصل مفرقعاً خردته الصدئة. فأنتخب مقصورة من الدرجة الأولى بنوافذ مطلّة على منظر البحر وأتهالك على مقعد رخو وقد أنهكتني تلك الانفعالات العنيفة التي كابدتها.

وأنتبه إلى اننا اثنان فقط داخل المقصورة: قسٌّ عجوز يرتدي زيه الاكليركي وأنا، في ثياب التزلج! وأنتبه أيضاً إلى ان مظهري لن يكون مسلياً ما إن أصل إلى باريس. فمثل هذا الزي صالح لغاية مدينة ليون وجوارها القريب ولكن بعد ذلك؛ لا بد ان تثير ملابسي فضول من أصادفهم من المارّة.

ينطلق القطار ويفتح القس كتاب صلواته أما أنا فأغفو، الأمر الذي قد يكون أفضل تسلية لمثل هذه الرحلات. وأحلم على الفور انني انطلق كالسهم فوق زلاّجتي عند سفح شديد الانحدار وأجدني فجأة أمام خط للسكة الحديد حيث يعبر قطار متباطئاً، ولا سبيل للنجاة فأحاول يائساً التوقف ولكن، أمر ما، لعنة ما، تجعلني غير قادر على تدبر الأمر بمهارة وأصرخ.

ـ آمين! يقول القس وهو يغلق كتابه.

وأحدق به مذعوراً. في هذه الأثناء يعبر صبي في ثياب نادل أمام باب المقصورة وهو يقرع جرساً صغيراً. فيرسم القس اشارة الصليب بحركة عفوية ولا بد انه حسب نفسه في قدّاس لحظة رفع القربان. أما صاحبكم سان ـ أ، فيرى ان

الانسان المعاصر، إذا أراد ان يجابه شؤون الحياة الصاخبة، ينبغي ان يقتات بما يسدّ جوعه، ولا يلبث ان يسلك الممر باتجاه حافلة المطعم. وها أنذا أسير متمايلاً والحزن يعصر قلبي، ليس لارتطام وركيّ بجنبات الممر، بل أسفاً على موت لوران المسكين! لقد كانت الخطة التي وضعتها فاشلة! وكانت نتيجة هذا الفشل ان شاباً ممتلئاً بالحياة والمستقبل الواعد قد أصبح الآن جثة هامدة فوق نقّالة. ومجرد التفكير في ذلك يجعلني على حافة البكاء...

أواصل تمايلي متقدماً كالسائر في نومه حتى أمرّ بباب مقصورة فتلحظ عيناي لهول المفاجأة، وماذا أرى أيها الصحب؟ صدّقوا أو لا تصدقوا، فلا بأس عندي، ولكني أرى بأم عينيّ الفتاة ليديا بشحمها ولحمها وحيدة في المقصورة وقد نزعت «اسكربينتها» ومدّدت ساقيها فوق المقعد المقابل مستغرقة في قراءة مجلة «Elle». فلم أصدّق ما أراه.

أفتح باب المقصورة وأدخل، فترفع نحوي عيناً لامبالية، لكنها سرعان ما تبالي.

ـ أرجوْ أنني لم أزعجك؟ أنشدت قائلاً بصوتي المخملي المضلّع الذي احتفظت منه بعيّنة.

تغلق مجلتها وتضعها بقربها فوق المقعد. أما سان انطونيو فيلجأ من جهته إلى عملية بسيطة ولكنها دقيقة: إذ يُرخي الستائر التي تنسدل فجأة على الواجهات الثلاث المطلة على الممر. وها قد تحوّل اللقاء إلى رفقة حميمة، هي وأنا وElle.

ـ إذاً، يا حلوتي، أقول لها بعد ان جلستُ قبالتها، هل سئمت المناخ في كورشوفيل على نحو مفاجىء؟

تهز كتفيها. مما يشير إلى ان ملكة جمال الفرار قد استعادت شيئاً من رباطة جأشها.

ـ ليست كورشوفيل مبعث سأمي بل ريري بلواز، تقول بنبرة واثقة. قد يستهوينا الرجل الفظ لبرهة ولكن مع الوقت لا نلبث ان نسأم!

ـ صحيح، ولكن ليس من اللياقة في شيء ان نهجر عشيقنا حين يكون هذا الأخير غارقاً في متاعب بحجم جبل «المون بلان».

ـ متاعب، تقول، أية متاعب!

يا لموهبتها الخارقة في التمثيل! لو لم أكن واثقاً من انها تعلم حق العلم لحسبتُ انها لا تعلم!

ـ لقد قطع التيار الكهربائي عن إشارة المرور!

ـ تكلم بوضوح، أرجوك!

أحسب ان المراوغة معها لن تكون مثمرة، فأغمض عينيَّ ولن تمر نصف دقيقة حتى أجد انها تلاشت من أمامي!

ـ أوَتجهلين سبب مجيئه إلى كورشوفيل، يا فتاتي الجميلة؟

ولا يرفّ لها جفن، بنت الجنيّة.

ـ جئنا للتزلج على الثلج.

ـ وهذا كل شيء؟

ـ يبدو لي سبباً كافياً، أليس كذلك؟

فأقطع عليها سبل المناورة. أحسب اني لا أتمالك نفسي. فتتلقى صفعة من شأنها ان تدوّخ فيل الأفيال. فتغشى عينيها الدموع.

ـ يا لك من شرطي وغد! تصرخ قائلة وقد نهضت من مكانها.

فأعاجلها بصفعة أخرى على وجهها المنمنم الطري.

ـ كيف تجرؤ؟ تقول متلعثمة.

ـ لقد حثني على ذلك أحد رجال الخير: أنا! وأود للمناسبة ان أحذرك، وبكل صدق يا ابنتي، انني مصمم على متابعة تمرين يديّ ولن أتوانى، ان اقتضى الأمر، عن صفع مؤخرتك الجميلة.

ـ يا لك من وغد قذر!

وتمد يدها وتحرّر عقلة إحدى الستائر فتلتف الستارة على الفور. فأعاود اسدالها وتنال مني صفعة ثالثة ترميها فوق المقعد.

فتبدأ بالولولة والصراخ وأسارع إلى كتم أنفاسها بواسطة منديل أحشره في فمها.

ـ ستعيدينه إليّ حين تتمالكين نفسك، أقول لها، ذلك انه مطرّز بأحرف اسمي الأولى.

تكاد تختنق ثم تنجح بدفع المنديل مستخدمة لسانها.

ـ أنت... أنت... شرعت تقول الفتاة الرقيقة.

ـ أعلم جيداً، فلا تحاولي تلاوة لائحة الألقاب التي تليق بي، فلا بد انك ستغفلين عن بعضها. لقد أخبرني بلواز انك تعلمين كل شيء، فلا جدوى من المراوغة والخداع! إن واصلتِ ما بدأت به يا عزيزتي ليديا، فستجدين نفسك في الزنزانة لبقية عمرك! لقد جعلت نفسك مذنبة بالقتل مع سبق الإصرار والعمد باستبدالك الرصاص الخلّب برصاص حقيقي. صحيح انك لم تضغطي على الزناد، إلاّ ان هذا ليس سبباً تخفيفياً. وأحسب انك ستنالين عقوبة تتراوح بين الخمسة عشر والعشرين عاماً! خمسة عشر عاماً من السجن، بلا جلسات تدليك أو حمامات شمس، أو زيارات المزيّن، أو معاهد التجميل، أو حتى الرياضة البدنية. خمسة عشر عاماً خالية من العلاقات الغرامية، يا ليديا، هلاّ فكرت قليلاً. وعندما يطلق سراحك، حتى لو نلت عفواً خاصاً لحسن السلوك والسيرة، فستبدين على أسوأ حال، وأكثر دمامة من جنيّة «كارابوس»! والحال ان عقوبة السجن لا مفر منها. لذلك ألقي القبض عليك، أتدركين حقيقة الأمر الآن؟

وموعظتي الهادفة هذه لا تخطىء هدفها المنشود. فتبدو سحنتها شاحبة برغم الصفعات التي تلقتها.

عالِم نفس محنك، صاحبكم سان ـ أ، أليس كذلك؟ وخبير بأمور النساء ومشاغلهن! فلو هددتها بالموت لما أثار فيها ذلك أي انفعال، أما ان أسترسل في وصف جمالها الذي ستنال منه سنوات السجن، فلا يُعدم الأمر ان يُثير ذعرها.

والآن ينبغي رسم المقلب الآخر لكسب المباراة.

ـ لنفترض انك حكّمت منطق العقل، يا صغيرتي المنمنمة، وبادرت إلى الاعتراف بكل شيء لسان أنطونيو، ما رأيك؟ أوَتعلمين ماذا يفعل سان انطونيو المبجّل في مثل هذه الحال؟ ينسى على الفور انك لعبتِ دوراً سيئاً في هذه القضية. وينسى انك قتلت زميلي الشاب بواسطة طرف آخر. بلى، يعلم ذلك. عندئذٍ تمثلين أمام المحكمة كشاهد لا كمتهم. إلى الآن ما زلت أقف عند تقاطع دروب مصيرك، لذلك فكري ملياً. ولكن إذا اخترت العناد أقتادك إلى أول محطة وتكون البليّة هي ما سببته لنفسك، وعندئذٍ يكون الأوان قد فات.

ـ آه منك! أنت ووعود الشرطي التي تبذلها! تقول الصبية الجميلة مغيظة.

ـ لرجال الشرطة نقاط ضعفهم.

أبدّل مكاني وأجلس بقربها ثم أطوق كتفيها بذراعي ذات العضل المفتول.

ـ لا بد انك لاحظت انك من النوع الذي يستهويني من الفتيات، أليس كذلك؟ ففي آخر الأمر، لقد حدث كل هذا لأنك استرعيت انتباهي. أصحيح ما أقول أم لا، أيتها المسافرة الفاتنة؟

فتقرّ بذلك بشيء من الدلال. وأقول في سري انها اللحظة الملائمة لأطلعها على خبراتي بهذا الشأن فأقبلها بالنهم الرقيق الذي يُصاحب كل فنون التقبيل الممكنة منذ عهد نيرون. وفجأة يفتح باب المقصورة ويطالعنا عامل المطعم بنظرات تواطؤ.

ـ أرجو المعذرة، يقول، هل أنتما في حاجة لقسائم الوجبة الثانية؟

ـ لا، شكراً، أقول محاولاً طرده.

ـ ربما كان السيد يرتكب هفوة، يقول النادل ممازحاً، فطبقنا اليوم عبارة عن «لسانات» بالبهار.

وينصرف إثر الدعابة الديجونية (يبدو انه من مقاطعة بورغينيون ويلفظ «الراء» راء لا غاء).

أستأنف مآثري اللسانية حيث قاطعنا النادل المرح. ولا يبدو انها لا تستهوي الآنسة ليديا، لا بل على العكس من ذلك. فها هي تلتصق بي وتعتصرني في أحضانها وتمتطيني، وتمعسني، وتعبّر عن تجاوبها العميق أنيناً وتلوياً وتأفعاً(*) وتستبد بي وتطغى ولا تكلّ ولا تلين، وتهمس وعداً وردياً، وتصمد وتصدّ ولا تصمد ولا تصدّ وتقول في سرّها ان الواحد في اليد أفضل من العشرة على الشجرة...

وتحسبن انه استجواب، أنتنّ يا فتياتي الصغيرات! يكفي ان تقفن في الطابور وتنال كل منكن مرادها! انه الاحتفال البطولي، حملة الفرسان الجهنمية، مباراة امتطاء صهوات الخيل البريّة.

للعجوز الأدرد خمور البوستيّون، ولي أنا، عاشت مصلحة السكك الحديد الوطنية الموحّدة الواحدة! ان هدهدة السكة الحديد اللذيذة هي أفيون الشعوب يا أبنائي! ومن هنا نحيي

(*) من أفعى بالطبع.

العبقرية الفرنسية التي احتاطت لكل شيء: مساند السواعد ومساند الرؤوس. وها هو سان انطونيو على وشك الفوز بمعركة الخطوط الحديدية! سيفوز بالوشاح الأزرق! انه يحطم الأرقام القياسية العالمية! ها هو يحلّق في اتجاه خط الوصول تحته هتافات شريكته الهاذية!

سيكون له الفوز المبين! ثم بغتة يحدث ما لم يكن في الحسبان: إذ يصبح هدير القطار مسموعاً بقوة. ويتضح لي ان باب الممشى قد فتح. ثم أسمع طقطقة. فتكف الآنسة ليديا عن تلوّيها وتتهالك فوق صدري. فأنحيها جانباً وأضعها فوق أريكة المقعد وأجد ان ظهرها مخرّم بثقوب صغيرة. لقد أفرغ أحد السادة الذين تعوزهم اللباقة ممشط سلاحه في ظهرها فيما كانت تحلّق على عتبة السماء السابعة. أما الآن فما عاد بوسعها إلاّ ان تواصل تقدمها مباشرة إلى الأمام فتصل!

لقد فقدت وعيها وأصبحت أنفاسها قصيرة متقطعة. وتسيل الدماء دفقاً من جسدها المحموم الجميل.

أتحسّس جسمي ولا أصدق أن أياً من تلك الملبّسات الخارقة لم تصبني. فأطمئن لنجاتي باستثناء رصاصتين اخترقتا قماش مسند المقعد قرب رأسي، أما الرصاصات الأخرى فقد تلقتها ليديا بجسدها الرادع.

أهرع إلى الممر فأجده خالياً. أقف حائراً كيف أتجه، ثم أقول في سري ربما كان الأفضل ان أسير في اتجاه حافلة المطعم. وخلال اجتيازي الممر ألقي بنظرات خاطفة على كافة

المقصورات المتتالية ولا أعثر فيها إلاّ على عدد من المسافرين المسالمين. أفتح أبواب المراحيض: ولدهشتي أجدها خالية أيضاً. وفي آخر الأمر أصل إلى حافلة المطعم.

أجد هناك عدداً قليلاً من الروّاد ولا شك في ان هذا القطار لن يسدّ العجز في موازنة سكك حديد الدولة. ففي هذه الفترة تزدهر مواسم الرياضة الشتوية ولا بد ان حركة نقل الركّاب تتمّ في الاتجاه المعاكس. فهذا القطار يذهب إلى باريس لنقل كافة المرشحين للإصابة بكسور موصوفة في الأطراف.

يستقبلني النادل ذو السترة البيضاء الذي امتدح لي منذ بعض الوقت فضائل «اللسانات» المبهّرة ويُطالعني بوجه بشوش ظاهر المودّة.

ـ طاولة لشخصين يا سيدي؟

ـ لا، لست جائعاً. أود ان أعلم إذا دخل أحد ما إلى هذه المقصورة، أعني منذ قليل.

فتجحظ عينا النادل استهجاناً كأنها كرات سحب اللوتو ويسأل:

ـ ماذا تقصد يا سيدي؟

ـ لقد فتحت أبواب المطعم منذ بعض الوقت، أليس كذلك؟ أسألك إذا كان من بين الحضور هنا من جاء متأخراً!

ـ ليس في حدود علمي! لا، لقد كان الجميع هنا منذ البداية.

ـ شكراً.

لم أوفّق يا إخواني! يبدو أن القاتل قد تبخّر. ومع ذلك لا بد انه جالس في مكان ما بين هذه العربات السائرة بسرعة مئة كلم/ساعة في الأرياف الفرنسية! فأعمد إلى التدقيق بسحنة كل مسافر على متن القطار، ولكن الجهود التي أبذلها لا تفضي إلى أية نتيجة. ومن العبث طبعاً ان أعمد إلى تفتيش كل الركاب فلا بد ان القاتل قد تخلّص من ثقّابه ذي الحقن المباشر على الفور!

فأعقد العزم أخيراً على اطلاع مفتش التذاكر على الأمر كيما نتدبر خطة عاجلة ومرتجلة لإبقاء أمر الجريمة سراً.

لقد تسببت حتى الآن بقدر لا بأس به من الأضرار، وليس في نيّتي ان تطير شهرتي إلى هذا الحد.

وبات عليَّ ان أقابل العجوز لأطلعه على نتائج رحلة الصيد، ويراودني شعور بأن اللقاء لن يخلو من النحيب واصطكاك طواقم الأسنان!



الفصل السادس

لقد رأيت مراراً ما قد يصير إليه وجه الحيزبون في تحوّلاته منذ ان عملتُ تحت إمرته. رأيت الوجه المشرق والمقطب والواجم والمتعالي والألوف والطيب والمغلق... ولكني لم أر من قبل سحنة له مثل هذه. كان متهالكاً خلف مكتبه وكأن وجعاً ما، لا أدري ما هو بالضبط، يغضّن جبينه المتّسع إلى ما لا نهاية!

ـ الخلاصة إذاً، يتمتم قائلاً: لقد أعطيت أحد أصحاب السوابق مسدساً استخدمه لقتل زميلك. وفي هذه الأثناء خطف فرنسوا لورمون من غرفتك، وبعد ذلك قتلت عشيقة القاتل في القطار فيما كانت برفقتك. إنه أفضل ما نتوقعه منك، أليس كذلك؟

لا بدّ انني أبدو ممتقعاً بعض الشيء، أيها الفتيان! وأشعر ان نخاعي الشوكي قد تحوّل إلى زبدة مخفوقة.

ـ هذا ما حدث بالضبط، يا سيدي المدير.

يتحسس الأصلع رأسه اللامع بكثير من الأناة كأنه يخشى تصدّع قشرته.

ـ اسمع يا سان انطونيو، يقول العجوز بصوت مكتوم كأنه في حاجة لمكبّر إذاعي، اسمع يا سان انطونيو، إن لم تعثر على لورمون في غضون مهلة قصيرة، سأفقد منصبي!

وإذا برعشة صقيع تسري في أوصالي من رأسي حتى أخمص قدميَّ ومن جنبي الأيمن إلى جنبي الأيسر، وبخط الزاوية المنحرف.

لم يسبق للزعيم من قبل ان لمح من قريب أو بعيد إلى احتمال تنحيته من منصبه. فقد حدث ان راودته مراراً فكرة تنحيتي أنا وليس هو. فأمكث حائراً وقد أسقط في يدي.

أتخيل الرجل حاملاً قصبة صيد السمك بين أصابع يديه بأظافرهما المقلّمة بعناية منتظراً فرج الله إذ يعمي بصيرة سمكة ما لتعلق بسنّارته فيثير فيه الفوز أشد الأحاسيس ندرة.

ـ ولكن الأمور لن تصل إلى هذا الحد يا حضرة المدير!

ـ لورمون هذا هو صهر وزير الموارد المهدورة!

ـ لقد اتضح الأمر الآن. وهل استقالتي تنقذ الموقف؟

فتستحيل سحنته إلى حمرة قانية كأسقف يُرقّى إلى رتبة كاردينال من الدرجة الأولى.

ـ تباً لاستقالتك يا سان أنطونيو!

إنها المرة الأولى التي أسمع فيها أب الوداعة يتلفظ بالكلام البذيء.

ـ ما أطلبه، يردف قائلاً، هو النتائج الفورية: يجب ان تعثر على لورمون حياً يُرزق وعلى خاطفيه أيضاً!

ويشير إلى الباب. ولو كنتُ ممن ينصاعون لما تحدثهم به أنفسهم لجعلته يكرع محبرته الرخامية، ولكني لحسن الحظ، ممن يديرون الأذن الصماء وسرعان ما أخلي المكان في اتجاه أماكن أكثر ترحاباً: أقصد الحانة المجاورة.

بيرو يخطب في حلقة من المعجبين.

ـ يقولون دائماً سان انطونيو! يقول الانتفاخ المفوّه. أما أنا فأجيبكم ببساطة: سان أنطونيو مثل ق...! ففي ثمانين بالمئة من المهمّات أكون خشبة النجاة وإلاّ لأصبح الكوميسير، منذ دهر، في خبر كان!

ـ لا بدّ لمن ابتلاه الله بمثل رأسك ان يطوف في الأنحاء كمزبلة جوّالة!

ـ لو سمحت! يقول البدين مؤنباً إذ لم يتعرّف إلى نبرة صوتي المتعالية.

ويلتفت نحوي فيراني فتمتقع سحنته حتى تميل إلى زرقة قانية جميلة.

ـ كنت هنا يا سان ـ أ! يقول بيرو متلعثماً.

ـ أجل، يا فطيرتي الدهنية الباردة. كنت هنا! إذاً، هذه هي الحقيقة، أنت من يستحق لقب شرلوك هولمز؟ ولا بد ان كل ما حققته في حياتي المهنية قد بنيته على تضحياتك واستبسالك؟

فينتفض الهائل تحرّجاً ويقول:

ـ دعك الآن من المزاح، فأنا أفضل ألف مرة ان أكون في عديد وحدات شرطة النجدة!

ـ إنك الآن في عديد النجدة يا بيرو، نجدة الأقفية الصغيرة، ولا يبدو لي ان الأمر على هذا القدر من السوء.

يضحك الجمع مقهقهاً أما جناب «المنتفخ» فراح يرمقني بسحنة عابسة!

ـ ادفع ما يتوجب عليك واتبعني، أقول له آمراً.

فينصاع على الفور. وما ان نصبح عند الناصية يحاول جلالته ان يبرّر فعلته.

ـ لا تغضب يا سان انطونيو. فأنت تعلم جيداً كيف تجري الأمور هناك؟ انها مجرد ثرثرة حانات...

ـ وحديث الحانات يقتضي اغتياب الرجل الذي جعلك تستحق الترقية إلى رتبة مفتش أول. ولكن ان يبلغنا هذا الأمر في الوقت الذي نواجه فيه خطر التنحية النهائية ليس بالأمر السهل على الإطلاق!

راحت الكتلة المدوّرة تنتحب وتنشم.

ـ لقد أصبتني في الصميم يا سان انطونيو. أنت تعلم حق العلم أنني قد أعرض نفسي للتهلكة في سبيلك!

ثم بعد ان أدرك معنى أقوالي:

ـ ماذا يعني هذا، خطر التهلكة(*)! ما الأمر؟ ثم لماذا عدت

(*) الفارق بالفرنسية بسيط لفظاً بين destitution، تنحية أو كفّ اليد، و destruction، تدمير، هدم، إهلاك. (م.ع.).

من إجازتك؟

ـ افتح مصاريع رأسك المغلق واسمعني جيداً!

فأطلعه على زبدة، ما يدور في الأجواء.

لا أستطيع القول ان البدين هو أينشتاين نفسه، إلاّ أنه سريع البديهة في حقل التحقيقات.

فيصغي بانتباه وتصدر من بلعومه بين الحين والآخر نحنحة أشبه بالقلقلة تعبيراً عما يثير فضوله واهتمامه.

ـ أرأيت، أقول في الخاتمة. إنه الإملاق الأخير، أجدني على عتبة البطالة. كان الأجدر بي ان أمكث في كورشوفيل وابدأ بالبحث هناك... بصراحة أيها البدين أجدني حائراً لا أدري ماذا أفعل!

فيعاجلني بكلمة تودّد تقذف بي إلى خارج الرصيف متعثراً.

ـ إنك دائماً على هذه الحال في بداية كل مهمة معقّدة، ولكن سرعان ما تسير الأمور على أحسن ما يرام، وأنت تعلم ذلك جيداً!

وراحت عينه الجاحظة تلتمع بحنان مبلّل بالدموع المترقرقة منها.

ـ وبأية حال ما زلت تحتفظ ببيدق الاحتياط، يقول البدين.

ـ من تقصد؟

ـ ريري بلواز، بحق السماء! انه صلة الوصل التي تربطك بالعصابة الغامضة يا سان انطونيو، ولا تنس ذلك!

ـ ولكني أقول لك انه يجهل كل شيء عنهم!

ـ إنه أمر غير مؤكّد! وحتى لو أقرّينا بأنه لا يعرفهم، هم على الأقل يعرفونه. الصلة التي أحدثك عنها قد تكون من طرف واحد، ولكنها موجودة!

أرمق صاحبي بنظرات ساهية. فباجتهاد يتيم منه يستعيد مكانته في نفسي. ريري بلواز! طبعاً، أوفْ كُورس!

أندفع نحو الهاتف وأطلب الاتصال بفندق «سابان بلو» مزبداً مُرعداً، وللضرورة القصوى. وفي غضون مئة وثانيتين لا أكثر، يطالعني صوت ريري على الهاتف.

ـ أنا سان انطونيو. ينبغي ان تعود إلى باريس فوراً، يا صاحبي؛ سأعطي التعليمات اللازمة ليتم نقلك بواسطة سيارة خاصة إلى جنيف ومن هنا تستقل طائرة إلى مطار أورلي. أوكي؟

ـ كما تشاء، يا حضرة الكوميسير.

ثم بشيء من الخجل:

ـ ألديك جديد بشأن ليديا؟

ـ أجل يا صغيري. تعال فوراً وسنتحدث في الأمر!

وأقفل الخط.

ـ والآن، أقول لبيرو: هيا بنا إلى جريدة الـ «فيغارو»!

ـ أترغب في حلاقة ذقنك؟ يسأل هذا المغفل.

ـ لا، أريد ان أنشر اعلاناً!

ـ أترغب في بيع سيارتك «الجكوار»؟

ـ لا. إنني أعرض أسعار تصفية على حياة بلواز!

*

* *

عند الساعات الأولى لبعد ظهر هذا اليوم القاتم وصل بلواز إلى مطار أورلي مُحاطاً بالسريّة التامة. وأوافيه فور خروجه من مركز الجمارك فيطالعني بابتسامة سكّرية.

ـ إنه لطف منك ان تأتي لاستقبالي.

إلاّ ان سحنتي المقطبة تثير الريبة في روعه.

ـ ولكن قل لي أيها الكوميسير، هل استدعيتني لإلقاء القبض عليَّ؟

ـ لا يا ريري، بل لأبلغك نبأ غير سار! لقد أصبحت أرملاً!

ولوقع النبأ عليه كالصاعقة تفلت حقيبته من يده وتقع على اسفلت المرآب.

ـ ماذا تقول؟

ـ إن فتاتك ليديا قد توفيت، يا بني. وما عليك إلا ان تتحلّى بالشجاعة والصبر.

راحت أجفانه ترتعد برفيف متسارع وتغضّنت سحنته فبدا الأسى في نظراته.

ـ ماتت!

ـ ميتة مؤكدة. بإمكانك ان تشتري لها باقة أقحوان. وعزاؤك ان تعلم انها كادت لك أسوأ مكيدة. فهي التي استبدلت رصاصات الـ«بيريتا».

ـ وماذا حلّ بها؟

ـ ممشط عيار ٩ ملم في ظهرها.

ـ ومن السافل ابن الوغد الذي فعل ذلك؟

ـ علامة استفهام على السطر! ولكن كن واثقاً من اننا سنكشف هويته عما قريب!

ـ من يقتل فتاة مثلها لا بد ان يكون سادياً أو أي شيء من هذا القبيل، أليس كذلك؟

ـ اسمع يا ريري، ان فتاتك كانت متورطة حتى أذنيها في هذه القضية. أتعرفها منذ وقت طويل؟

ـ لا، منذ اسبوعين!

ـ إذاً لا بد ان العصابة هي التي أوفدتها إليك.

ـ إن كانت واحدة منهم لماذا يقتلونها إذاً؟

نقصد سيارتي ونحن لا نزال نتجاذب أطراف الحديث. ثم نستقلها وأقود مسرعاً في اتجاه مرقب الحارس الذي يأخذ مني القسيمة المعتادة.

ـ قل لي يا حضرة الكوميسير، يسأل بلواز بإلحاح، لماذا؟

ـ لأنها كانت تحدّثني، وكانت على وشك الاعتراف.

فيصرخ عنده.

ـ ولكن قُل، ألست أنتَ منْ...؟

فأعاجله بلطمة من مرفقي تسكته على الفور دون ان أضطر لرفع يدي عن المقود.

ـ تتهمني بأنني قاتل، والقاتل هو أنت! ان فتاتك التي تشبه بياض الثلج كانت تخدعك دون علم منك وها أنت تستميت في الدفاع عن ذكراها! إنه لأمر مضحك حقاً، يا لك من مغفل!

أنطلق مسرعاً وأتوغل داخل النفق.

ـ لقد جئت لاستقبالك لا لأقوم بواجب التعزية، بل لأطلب منك العون في الاحتفال الذي سأنظمه في مركز الرعية في رويكو!

يهز رأسه.

ـ وماذا تقصد بقولك هذا؟ أهو نوع جديد من سباقات ترويض الخيل؟

ـ أصمت، واحتفظ بدعاباتك لمأدبة الأشرار المقبلة التي ستقام على شرفك. هذه هي الخطة: إن أفراد العصابة يعتقدون انهم نالوا منك نهائياً. ودليلنا على ذلك الرسالة الهازئة التي تركوها لك. والمطلوب ان نجعلهم يعتقدون ان النيل منك ليس بالأمر السهل.

ـ ولكن كيف؟

ـ ان نجعلهم يعتقدون بأنك تعرف أشياء عنهم.

ـ ولكنني لا أعرف شيئاً على الإطلاق! يصرخ ريري مرعداً.

ـ وماذا يضيرك بأن تدّعي العكس!

أسحب من جيبي صفحة الإعلانات في صحيفة الـ«فيغارو». دائرة بالحبر الأحمر خطت حول بضعة أسطر، فأشير إليها ويشرع بالقراءة كتلميذ تعلم لتوّه حروف الأبجدية:

[«من بلواز إلى زبائنه في كورشوفيل. الرجاء تحويل المبالغ المتفق عليها. وفي حال عدم ورود الجواب في غضون ٢٤ ساعة، سيكون التعامل مع الجهة التي تعرفونها جيداً.»]

ـ ما هذا الاعلان؟ يسأل الغبي ثائراً.

ـ افتح قمعيك جيداً للموجة القصيرة، يا بني. عندما يقرأ المأفونون المجهولون هذا النثر السليم سيعتقدون ان الفتاة ليديا قد تكون أسرّت إليك بشيء من خلال مغامراتكما السريرية. وبما انها أصبحت في عداد الأموات فليس بإمكانها ان تؤكد هذا الأمر أو تنفيه. ولذلك، سيعمدون، تحسباً لأي طارىء، إلى التخلص منك!

وما ان يسمع ذلك حتى ينسى ترمّله، عزيزنا ريري. إذ أصبحت صحته هو في الميزان، فيتمتم قائلاً:

ـ ولكن قل لي، أهذا يعني انني سأحظى برشقة «بارابلّوم» أنا أيضاً!.

ـ سنكون إلى جانبك يا ريري!

فيقول حانقاً:

ـ وفي المنتجع كنت إلى جانبي! إلاّ ان وجودك لم ينقذ حياة زميلك! وفي الـ«سابان بلو» أيضاً، كنت هناك ولم تحل دون اختطاف لورمون!

أعلم جيداً انه محقّ في ما يقول. ولكن في مثل هذه المواقف على المعني انقاذ ماء وجهه ان يصرخ بأقوى ما يستطيعه مخاطبه.

ـ أؤكّد لك ان خطّتنا ستكون متكاملة، بحق السماء!

ـ وإن لم تكن كذلك، سترسلون الورود إلى قبري!

ـ شريطة ان يكون ثمنها من ضمن مصارفات المهمة! ستذهب إلى منزلك وتمكث هناك بانتظار إشارة من الأناس المعنيين. ولا تفتح الباب لأحد سواي، مفهوم؟

ـ حسناً.

ـ إذا اتصلوا هاتفياً، تظاهر بالتعاون معهم واقبل بأي موعد يحددونه لك.

ـ ولكن...

ـ قبل مغادرتك المنزل عليك بإغلاق مصاريع النوافذ وسنكون في الجوار فتبلغنا الاشارة. لا تقلق، يا ذئبي، سوف نسهر على سلامتك كما لو كنت ملكة انكلترا خلال نزهة لها في حي البيغال.

ـ سوف تحظون بعظامي، يقول زيري متنبئاً بالكارثة.

ـ الحياة ليست بالسهولة التي تبدو عليها، هيّا!

أوصله إلى ناصية الشارع حيث يقيم. وأمكث هناك فأراه

يدخل إلى العمارة. الآن أصبح كل شيء جاهزاً في موضعه الصحيح ولم يبق إلاّ الانتظار. إنها لعبة تشبه صيد الأسماك باليدين، فإن كان السمك مفترساً استحالت اللعبة مجزرة.

أقوم بجولة حول مجموعة المباني هناك وأركن عربتي لأصعد إلى شاحنة المصبغة الصغيرة حيث يجلس البدين مُلتهماً أصابع ضخمة من النقانق المجففة وفي متناول يده كيل من النبيذ الأحمر!

الفصل السابع

رذاذ مطر دبق يسيل ببطء فوق زجاج الشاحنة الأمامي. والطقس بارد. ومكثنا في مقاعدنا، البدين وأنا، يراودنا الإحساس المحبط بأننا تحولنا إلى تمثالين من رخام.

يتنشق جلالته بقوة ويتمتم:

ـ لقد سئمتُ المكوث هنا. مضت علينا ست ساعات حتى جمدت أقفيتنا داخل هذه العربة اللعينة. هذا بالإضافة إلى الحوَل الذي أصاب عيني لفرط ما حدقت بنوافذ صاحبك.

ـ يبدو انك لا تصلح لأن تكون فلكياً يا بيرو. إذا أتاك الحوَل من مراقبة نافذة فماذا يصيبك لو صرفت العمر في مراقبة كوكب المريخ.

ـ إصابة!

ويُشير إلى الطبقة الثالثة من العمارة التي يقيم فيها بلواز. وكان هذا الأخير يهم بإغلاق مصاريع النوافذ. فأشعل جهاز اللاسلكي وأتصل بمفرزة التنصّت!

ـ طرأ جديد أيها الكوميسير. لقد تلقى بلواز اتصالاً هاتفياً. كان صوت امرأة. وحدّد له موعداً عند بوابة سان كلو، مستديرة «لارين». قيل له ان يقف أمام كشك بائع الصحف في غضون عشرين دقيقة وان ينتظر.

ـ فليذهب اثنان من المفتشين إلى هناك.

ـ حسناً يا حضرة الكوميسير!

ـ بالإضافة إلى سيارة مموّهة ومجهزة بفريق تصوير سينمائي. أريد شريطاً كاملاً ومفصلاً منذ لحظة وصول بلواز وكل الأحاديث المحتملة التي قد تجري بينهم.

ـ حسناً.

أطفىء الجهاز لحظة مغادرة ريري باب العمارة. وأراه يسير في الشارع، وما ان يلمح سيارة أجرة تقبل نحوه حتى يشير إليها. فتتوقف السيارة بمحاذاته. فيصعد ريري إليها وتنطلق به!

أنطلق بدوري وكل رجائي ان لا يكون فانجيو، بطل سباق السيارات، سائق السيارة لأن شاحنتي ليست مجهّزة لسباق المتعرجات في ازدحام طرقات العاصمة.

ومع ذلك أتمكن من تعقبه لبعض الوقت. وبأية حال أقول في سرّي ان كل شيء على ما يرام. حتى لو فقدت أثره، فأنا أعرف الوجهة التي يقصدها ريري، ورجالي هناك في انتظاره، وعلى أهبة الاستعداد للتدخل عند الحاجة.

ـ ولكن قل لي، يتمتم بيرو فجأة، ان بوابة سان كلو ليست من هذه الناحية. أعتقد انه يسلك اتجاه «دانفير روشرو»!

وأجد ان الاستاذ محق في ما يقول. في البداية حسبت ان سائق سيارة الأجرة يتجنب سلوك الطرقات ذات الاتجاه الوحيد هرباً من الازدحام، ولكن هذه المرة لا مجال للخطأ: إنه يتجه نحو الجنوب بدل ان يتجه نحو الغرب.

ـ ما معنى هذا؟ أهمسُ قائلاً: أيُعقل ان تكون مفرزة التنصّت قد أخطأت العنوان؟

أعاود الاتصال.

ـ هنا سان انطونيو، أطلب العربة ٢٤. اسمع يا بني، هل أنت واثق من ان الموعد قد حدّد عند مستديرة «لارين»؟

ـ كل الثقة، يا حضرة الكوميسير.

ـ ألا يُعقل ان تكون سمعت خطأً أو انها كانت مجرد خدعة؟

ـ لا. لقد كان كلام الفتاة موجزاً وواضحاً.

ـ أطلب من إحدى السيارات المجهّزة ان تظل على اتصال بنا وأن تحاول اللحاق بنا، فنحن نسير في اتجاه «دانفير روشرو»! انتهى!

ـ أسرع يا سان ـ أ، يأمر سيادته، لقد تبدل الوضع داخل سيارة الأجرة!

ويزعق البدين.

ـ أنظر!

ـ ما الأمر؟

ـ سيارة الأجرة! لقد أصبحوا ثلاثة أشخاص في داخلها! برغم انها لم تتوقف في الطريق ولم يصعد إليها أحد!

ـ فهمتُ أيها البدين. إنها سيارة مشبوهة! هناك شخص آخر يختبىء بجانب السائق. ولا بد انه يهدّد ريري بسلاحه. لقد احتاط أفراد العصابة لأي طارىء. فحدّدوا له موعداً احتياطياً بواسطة الهاتف تحسباً لأي عملية تنصّت. إنهم أذكياء ومكّارون!

يحاول سائق سيارة الأجرة ان يضلّلنا، الأمر الذي يثير حفيظتي بعض الشيء.

في هذه الأثناء تناهى الصوت من جهاز الإرسال مشوّشاً في البداية، انها السيارة المجهّزة رقم ٢، تحاول الاتصال بنا.

ـ نحن نسلك جادة «راسباي» صعوداً! يُعلن الصوت.

ـ إذاً تابعوا حتى ساحة ايطاليا، سنصل إلى هناك...

ـ أسرع! يصرخ بيرو. إنهم يحاولون تضليلنا!

فأنطلق مسرعاً والغيظ يعتمل في صدري. ذلك ان أسوأ ما قد يحدث لي هو ان يتعرّض بلواز للقتل! عندئذٍ لن أجرؤ على المثول أمام العجوز.

والمطاردة تتواصل.

ـ أتعتقد انهم علموا بوجودنا؟ يسأل اللحيم.

ـ لا أدري.

وأعلن عبر الجهاز:

ـ نسلك جادة «دو شوازي»!

ثم أردف قائلاً بعد برهة:

ـ والآن شارع «تولبياك» في اتجاه السين!

احتجبت سيارة الأجرة عن أنظارنا خلف شاحنة نقل كبيرة صفراء. وإذ نفلح في تجاوزها نكتشف لتعس حظنا انهم ضلّلونا.

انطلق كالسهم حتى رصيف المحطة: لا شيء! لا أثر لسيارة الأجرة كما قد لا تجد أثراً للزبدة في مطعم اسباني.

ـ والآن ما العمل؟ يسأل طاقم السيارة المتعقبة.

الآن يستطيعون ان يأخذوا قسطاً من الراحة.

ـ لقد اختفت سيارة الأجرة، أقول.

وأقطع الإرسال.

ـ أوتعلم بماذا أفكر؟ يتمتم البدين.

ـ لا.

ـ لا أعتقد ان السيارة استطاعت ان تجتاز الشارع كله حتى رصيف المحطة خلال الوقت القصير الذي حجبتها فيها الشاحنة عن أنظارنا. فالشاحنة اللعينة لم تحجبها إلا لبضع ثوان. وهي مدة زمنية غير كافية للوصول إلى الرصيف؛ وإلا لرأيناها.

ـ إذاً ما الذي جرى؟

ـ لقد توقفت السيارة في مكان ما هنا!

ـ ولكننا لم نر أي سيارة أجرة في طريقنا!

ـ ألم تلاحظ؟ لقد مررنا بمرآب؛ وأفترض ان...

فلا أدعه يكمل حديثه. ففي أقل من الوقت الخاطف الذي يحتاجه الأرنب لإخصاب أنثاه، أنعطف بالسيارة حتى كادت العجلات تتخلّع، وأنطلق بها من حول رزمة المباني، كما يعبّر بيرو، فأجدني في شارع «توليباك». المرآب هناك على بعد مئة متر إلى اليمين. إنه أشبه بدكان متواضع شبه خال. لا بل يمكن القول انه مشغل صغير لتصليح السيارات وليس مرآباً بمعنى الكلمة. في داخله مضخة وقود يكسوها الشحم وطبقات من الغبار السائد في أجوائه المطبقة.

ـ أراهنك مقابل سندويش من لحم الخنزير المفروم ان السيارة قد توارت هنا، يؤكد لي البدين.

أنعطف انعطافة خفيفة وأجدني داخل المرآب. وأتوقف قرب المضخة. ولا نعثر في الداخل على ما يثير الشبهات؛ ولا وجود لسيارة الأجرة.

يتقدم رجل بطقمه الأزرق، وسحنته السمراء غير المحببة.

ـ أيّ خدمة؟

ـ بعض اليانسون، أقول.

ـ ليس لدينا النوع الممتاز!

فأشير إلى عربتي الرائعة:

ـ كما تعلم هذا الطراز لا يتقوّت بالإثْيرا لستُ قابلاً للتبخر إلى هذا الحد!

فيطالعني بابتسامة عوجاء كقائمة كنبة طراز لويس الثالث عشر ولا يعلّق. فأشير إلى بيرو باستكشاف الأنحاء، فيما يعمد الميكانيكي إلى رفع أنبوب المضخة.

ـ أرجو المعذرة، يقول الانتفاخ البيروري، أين أجد دورات المياه الجافة، لو سمحت! يسأل الميكانيكي.

ـ ماذا؟ يقول الرجل ذو الطقم الأزرق المبقّع.

ـ المراحيض، يصحح البدين.

ويردف بنبرة تودّد:

ـ الانكليزية، تشبه اللحم التولوزي بالفاصوليا: لا سبيل لاكتناه مذاقها!

ـ لا مراحيض هنا! يُجيب عامل المحطة.

وفي هذه اللحظة بالذات يعلو صوته بالشتائم. إن طراز المضخة التي يستخدمها قد تعثر على مثيلاتها في المتحف وليس في مكان سواه، وهي لا تضخ عصيرها الثمين إلاّ بجرعات من خمسة ليترات دفعة واحدة. والحال ان خزان سياراتي يغصّ بالوقود فتندلق الكميات الإضافية على الأرض!

ـ ولكنّ خزّان سيارتك ملآن! يزعق عامل المرآب!

ـ هل تصدّق الآن ان السبب ليس الوقود؟ يبادر الهائل بسرعة بديهة تستحق الإشادة والإطراء.

ـ المشكل في أداة إشعال المحرك، أقول. هلاّ تفحصتها أيها المعلم؟

ودون ان يتفوّه بكلمة عمد الحمار الوحشي إلى فتح غطاء المحرك. فانتهز بيرو الفرصة للتوغل إلى مؤخر المرآب. وحين يعود أجده مستثاراً كثلاثة قطط فوق صفيح ساخن.

ـ السيارة هنا، يُسرّ إليّ هامساً، إنها خلف ماكينة العجلات الكبيرة!

يا لهذا البيرو الرائع! لما تردّدت لحظة واحدة في تقبيله قبلة إسعاف الغريق لو ان الجنية مارجولان تحيله إلى عذراء فاتنة في الثامنة عشرة من عمرها (وحبّذا لو تكون شقراء).

ـ أوكي، أقول له، إذاً إلى العمل، أيها الصديق. أولاً، عامل المرآب. سأذيقه إحدى ضربات غطاء المحرك التي لن ينساها.

ـ هلاّ أدرت المحرك! يزعق المذكور.

أدير المحرك فيتفحص وشيعة دلكو.

ـ ولكنها سليمة. لا أجد أي عطل! يزعق قائلاً.

وبمثابة إجابة أدفع غطاء المحرّك المرفوع. فتضرب الحافة مؤخر رأسه ويصرخ. إلاّ ان الصدمة أصابته بجرح بليغ وها هو يزبد ويُرغي عاسفاً الهواء بذراعيه.

فأرفع الغطاء.

ـ لقد رأيتُ النجوم ظهراً! يقول.

ـ وهل كان المنظر جميلاً؟ يسأل بيرو ممازحاً.

ـ لا، ولكن ما الذي يجري هنا؟

ينفخ البدين صدره ويميل برأسه إلى الوراء، وهي الإشارة التي تعني لديه دائماً انه صمّم على أمر خطير.

ـ أتسمح لي ان أقدم للسيد شرحاً مفصلاً بوسائل الإقناع التي لا تُردّ؟

ودون انتظار موافقتي ها ان جلالته يسدّد لكمة محكمة إلى معدة عامل المحطة. والحق يقال انها ليست ملامسة فتاة ولا بد انه استلهمها من خارج لوائح الضربات المجازة في مباريات الملاكمة. أشبه بأسلوب القاطرة، أو شيء من هذا القبيل!

يطلق صاحبنا الميكانيكي زعيق وجد مُتطاول فيعاجله البيرو بلكمة على الوجه فيبتلع زعيقه ويرتمي صاحبنا خلاصّة المحرك أرضاً لا يحرّك ساكناً.

ويُجرّ صاحبنا الفاتن إلى الجحر الزجاجي الذي يستخدم كمكتب. ويبدو المكان مزدحماً بالعجلات الجديدة المغلفة وبقطع مختلفة لمراوح التهوئة. وما ان نلقي به فوق مطاط أصلي من صنع «ميشلان» حتى يستعيد وعيه ويهم بالنهوض. فأهدىء من روعه ملوّحاً بصديقي ذي الرصاصات الست.

ـ ماذا يعني هذا؟ يسأل الفتى.

ـ هذا يعني ان تبقي ذراعيك مرفوعتين في الهواء، أقول. ولكن ان شئتُ ان أضغط على الزناد فقد يعني ذلك «وداعاً يا صاح». لا سبيل للحيرة في التأويل. فثمة من يخاطبونك بالألغاز، أما أنا فبالعبارة الصريحة.

ـ من أنتما؟ تغمغم ضحية البدين.

ـ إن مكثت عاقلاً، أعدك ان أرسل إليك نسخة من مستخرج قيد النفوس. أما إذا اخترت المشاكسة فسأطعمك «إخراج قيدك»، الأمر غاية في البساطة، حتى لرجل مثلك قد لا نجد في رأسه إلاّ حفنة مسامير. أليس كذلك؟

– كبّله، أيها البدين. هناك سلك معدني معلّق على الحائط!

وأعلم ان إحدى مزايا بيرو، ولا أدري إذا كان شغفه بالنقانق هو السبب، هي براعته في تحزيم كل ذي قائمتين بمتعة بالغة!

وبأقل مما يستغرقه تمليس صلعة العجوز كان الميكانيكي قد أصبح أشبه بمومياء.

ـ أحسنت يا بيرو، أقول. وقبل ان نكمّم فمك يا بني نودّ ان نجري معك حواراً صريحاً.

فيبادر الشرس إلى السؤال عما إذا كنا نرى انه جبان رعديد. فيجيبه البدين بيُمنى مسترسلة من شأنها ان تحدث فجوة في مقدّم طراد حربي. فيبصق الفتى سنّاً من أسنانه على التوالي، تتبعها سن سابعة كانت بأية حال غير قابلة للاصلاح، وتبدر منه أصداء أنين مكتوم تنبثق من بين شفتيه المشقوقتين.

ـ لقد دخلت إلى المرآب سيارة أجرة وفيها ثلاثة رجال، أقول له. أين ذهب هؤلاء الرجال؟ أجب بسرعة وإلا فلن يمر وقت طويل قبل ان تجد نفسك كومة من العظام المحطّمة.

وترتفع قبضة بيرو قبالة وجهه المبقّع.

ـ في الطبقة السفلية تحت الأرض! يقول بلكنة «الأوفيرني» الشهيرة.

فيشكره البدين ويسدد لكمة أخيرة إلى خطمه.

ـ بدل ان تضع له كمّامة، يقول لي مبرراً فعلته.

نتوغل داخل المرآب بحثاً عن درج ونعثر عليه في الفناء الخارجي حيث تسود رائحة العفن خلف المخزن. سيارتان معطوبتان يستكمل الصدأ تآكلهما فيما تستطعم جرذان ضخمة مذاق حشوة المقاعد. والكلام في سرّكم أقول إني قلق بشأن ريري. ذلك ان ذهني البوليسي الزلق يشعرني بأن هذا التأخير قد يكون حاسماً لمصير الفتى بلواز. فقد أعثر عليه في ركن ما وقد أصبحت عظامه باقات باقات، مثل باقات الفجل أو الهليون!

نهبط الدرج الضيّق المكسو بملح البارود (وتذكروا جيداً اننا على مقربة من الساليتريي(*)) فنصل إلى قبو مقعّر السقف. ألمح قبس نور (وهو هنا مبهج أكثر من قبس إيمان) ويتناهى صدى صوت مصدره ركن عند طرف الممشى.

ـ هل هو مكبّل كما يجب؟ يسأل صوت رخيم.

ـ كأنه صُنع مع الكرسي، ليس بالإمكان أفضل من ذلك، يجيب صوت تشوبه لكنة.

(*) اسم لأشهر المشافي التاريخية في فرنسا. ومعناه الحرفي: منجم ملح البارود.

أتنفس الصعداء: لم يقتلوا صديقي ريري بعد. ولكن ما يثير العجب هو هذا التشابه في ما جرى على مستوى الطبقتين، العملية نفسها، ألا تجدون الأمر ظريفاً، يا عصبة ما لا أدري ماذا؟

الرطوبة التي تسود المكان جليدية. فراح السمين يعزف متتاليات العطس. فأسدّ خطمه بكفي تجنباً للدوي الأدهى، وبذلك أفلح في تدارك الأضرار.

بخطوات حذرة، المسدس في اليد (وقد رفعت عقلة الأمان) أتقدم في اتجاه الباب الخشبي ذي الألواح المتباعدة.

ـ إذاً يا بلواز، يقول الصوت الأول، أنت تعلم بعض الأمور كما أوردت في إعلاناتك، أليس كذلك يا بني؟

ـ ولِمَ لا! يجيب ريري، بصوت ينبىء عما به.

ـ إذاً! كلنا آذان صاغية، ما الذي تعرفه؟

ـ ما أعرفه هو انكما زوجان من الكتل الدهنية الفارغة!

وتدوّي صفعة ملء الكفّ.

ـ لا، لا، دعه، يقول الصوت الأول. ألا ترى ان رأسه أصبح كالجمرة. لقد أوسعوه ضرباً. خلال اختطافه. هيا أشعل انبوب اللحام يا جيروم!

ـ هيه، لن تفعلوا بي هذا! يقول ريري مُتلعثماً.

ـ بلى يا صاحبي، هذا ما سنفعله بك.

وراح أنبوب اللحام يلفظ نيرانه الكاوية. فيطلق ريري صرخة مدوّية.

وربما حان الوقت لكي أتدخل، أليس كذلك؟

ـ جميلة هذه الشعلة، أليس كذلك؟ يهمس جلاّد بلواز. كم تذكرني بمناظر غريبة، فأنا، في الحقيقة، شاعر!

ـ إن كنت شاعراً بالفعل فما عليك إلاّ ان تسمعه بعض الأبيات الشعرية، أقول بلهجة نُصح وقد دفعت الباب بقدمي!

للحظات أربكت المفاجأة جلاّدي صديقي الصغير.

ـ هيا ارفعا أيديكما عالياً، وبسرعة! أقول زاعقاً.

وتطالعني سحنة رجل أسمر، مجعّد الشعر كزنجي، غليظ القسمات، وعيناه كقوسين، ثم سحنة رجل آخر، ضخم الجثة شاحب اللون، أجفانه بلا رموش وشعره كستنائي داكن! ولهذا الأخير رأس أشبه برأس سلحفاة سوى انه أقل ظرفاً. وهو الذي يمسك بأنبوب اللحام. فيرفعها، إذ يرفع ذراعيه، فتسوّد حجارة السقف.

ـ لقد جئت في الوقت المناسب! يغمغم بلواز. أنظر ماذا فعل بي هذا الوغد!

وألمح بقعة حمراء عند ذقنه وفوق خده الأيمن.

ـ لا تقلق يا ريري. فيليسي، أمي الحنون، لديها وصفة مرهم عجائبي لعلاج الحروق. فلو عرفتها جان دارك لكانت رقصت التويست فوق نيران محرقتها!

ـ فكّ وثاقه، أقول للبدين.

فيهرع بيرو. وعندما يصبح بلواز طليق الحركة أسأله:

ـ بإمكاننا الصعود الآن؟

ـ استأذنك دقيقة واحدة أيها الكوميسير!

وما ان يسمع الشقيّان برتبتي حتى تستبد بهما الرعشة وتشحب سحنتاهما. فيقترب بلواز من أخصائي اللحام/الشاعر وينتزع الأنبوب من يده.

ـ لا تحرك ساكناً يا صاح، يزعق ريري، سأجري لك عملية نتف صغيرة ولكن نهائية!

وعندئذٍ أتدخل.

ـ دعه يا ريري، أنا من رجال الشرطة وليس من رجال الغستابو!

لكن كلامي هذا كمن يعظ صهريجاً تعطّلت كوابحه! فلا يتمالك ريري نفسه ويمرّ لهب الأنبوب على واجهة الشقور(*). فيطلق المعني زعيقاً غريباً يبزّ ما يطلقه في الأمسيات كبار من أمثال جيلبير بيكو أو شارل أزنافور.

فأمسك بذراع بلواز.

ـ كفّ عن هذا، أقول لك، لن أسمح لأحد بأن يسيء معاملة أحد الموقوفين لديَّ.

ـ يصعب على المرء ان يجد ما يلهو به معك، يقول البدين الحرون. يا لك من قلب طيّب في ما أنت عليه.

ـ فتش هذين السيدين وصادر سلاحهما، أقول بلهجة آمرة.

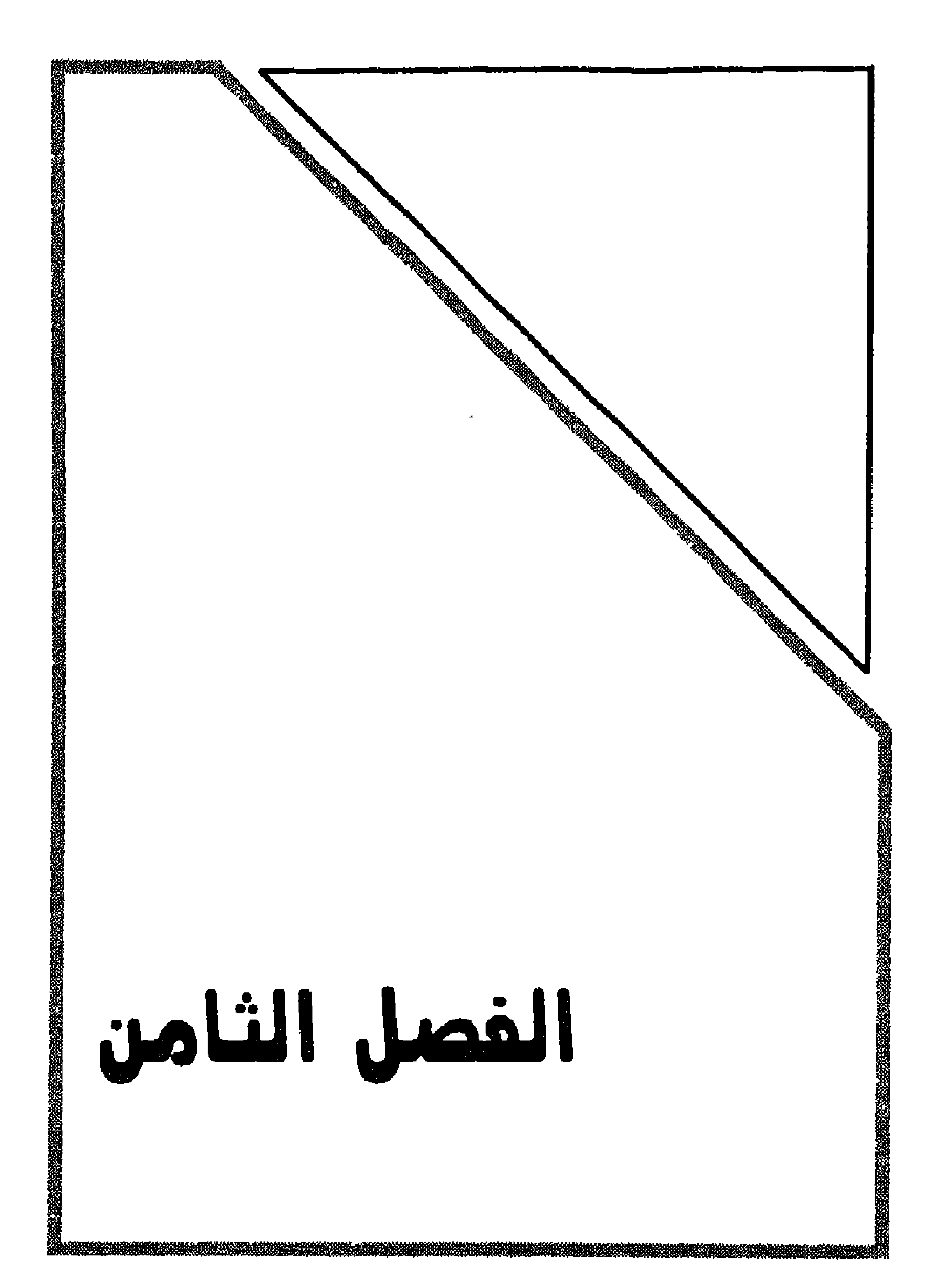
(*) تمشياً مع لغة سان انطونيو، من أشقر. (م.ع).

فيسارع البدين إلى التنفيذ. ويجد ان في حوزة كل من هذين السيدين مسدساً عملاقاً من شأنه ان يقنع أياً كان بالاستجابة لحركة من فوهته دون تردّد.

ـ حسناً، والآن، سنصعد! أقول. سيسير هذان السيدان في الطليعة وأيديهما في الهواء. واحذرا أي تلاعب وإلاّ أفرغت في هيكلكما من الرصاص ما يُرغم جوقة دفن الموتى على استخدام «بولدوزر» لحملكما إلى المقبرة المجاورة!

وبرغم حروقه البالغة راح بلواز يضحك.

انه مخطىء.



الفصل الثامن

لمرة واحدة يا إخواني، ارتكب صديقكم الطيّب سان ـ أ هفوة تكتيكية بسيطة: ان يدع هذين الشقيين يسيران في المقدمة.

وما ان وصلنا إلى أسفل الدرج، حتى علا صوت بالصراخ:

ـ انبطح يا راي!

ولم يكذب خبراً، فانبطح الأشقر عند أسفل الدرج وتبعه ذو الشعر الجعدي بطرفة عين وكان من سوء طالعي انني بتّ أجدني حيال نصف دزينة من الأشقياء يتساوون في الضخامة والشراسة. ويحمل أحدهم بندقية قديمة واعدة من شأنها ان تحيل أول من يتحرك إلى ما يشبه شبكة الكلمات المتقاطعة حتى قبل ان ينتبه.

ويستغل حامل البندقية موقعه المتفوّق ليخاطبني بكلام لا يخلو من فظاظة.

ـ ارم سلاحك! وأنت أيضاً أيها البدين اللئيم! يردف مخاطباً صديقي ذا الشأن والحسب!

وراح يدنو باستون آلته الفتاكة مني حتى كاد يصيبني بالحول. وبتنهيدة عميقة أرمي سلاحي! ويحذو بيرو حذوي.

ـ «بانكو»، تابع حامل البندقية كمقامر محترف، والآن نصف دورة إلى اليمين، إلى اليمين! ارفعوا أيديكم عالياً وحافظوا على استقامة جذوعكم! والآن لامسوا الحائط بوجوهكم، أنتم الثلاثة!

وها نحن ننصاع طائعين. ما من شيء يجعل المرء ليّن العريكة طائعاً مثيل عين «الطومسون»(*) السوداء.

ـ أما أنتم، فهيوا إلى العمل! يقول الرجل الأشقر الذي نودي براي!

ماذا يقصد بذلك؟ وسرعان ما علمت. ذلك ان هؤلاء السادة يمتلكون أدوات تدغدغ النخاع، وكانت الضربة الأولى من نصيب بيرو. صوت رضة حادة وها صديقي المبجّل قد أصبح طريح الأرض. ثم جاء دور ريري. ولهذا الأخير الحق بضربتين على سبيل التذوّق: الأولى للدعابة أما الثانية فلتجعله يرى النجوم في عز الظهيرة. وإذ ألمح المدمّر يقترب مني، أروح أتمتم:

ـ لا، لا داعي لهذا: إني أعالج الأرق بالحبوب المنومة.

وفي هذه الأثناء أقذف بقدمي الركلة من طراز الرقم ١٣،

(*) طراز من البنادق الآلية الأميركية.

تلك التي تلقنتها من «كوبا». وإذا بالرجل يتلقى حذائي «البالي» في حرزه الزوجي فيتهالك ممسكاً بغدّته البروستاتية المزدوجة..

أوه! وماذا أقول يا أقراني الأعزاء!

وما هي إلا ثوان حتى كانت أحذية الأشقياء فوق منكبيّ. فأدمّر اثنين منهم في البداية، إلاّ ان قانون العدد لا يرحم. وينتهي بي المطاف بأن أتلقى ضربة أخمص على علبة أفكاري فأطوف سابحاً في خلاء الكون الخارجي...

... ما لبثت ان استعدت رشدي وعندما تطأ قدماي الأرض مجدداً لا أجد السيد بريجنيف في استقبالي ليطبع قبلتيه اللزجتين على وجنتي. لا بل أجد ما هو أفضل! فما إن أرفع ستارة الغشاوة عن إحدى عينيّ أتلقى صدمة في الطحال مباشرة فيما يرتطم شيء صلب بالجهة اليسرى من بطني.

آه! يا صحب! يا صحبي الأعزاء الطيبين! إن تذوّق مثل هذا الأمر يستحق عناء الولادة. فالفتاة التي تقف أمامي على قدر من الجمال يجعل المرء عاجزاً عن التنفس!

شقراء كالصوف المذهّب القابل للإلتهام والملتفّ على تمثال فينوس ميلو، ولها ساعدان أيضاً. فالسواعد قد تكون مفيدة.

ـ هل أنت الكوميسير سان انطونيو؟ تسألني.

ـ أجل، يا عزيزتي، في خدمتك على الدوام، أجيب.

فتبتسم وتفترّ شفتاها عن أسنان ناصعة تصلح لأن يُصنع منها عقد من اللؤلؤ.

ـ لولا هذه الكدمة المنتفخة في أعلى رأسك لكان مظهرك لا بأس به، أعني بالنسبة لشرطي! تغرّد فتاة التعرية.

ـ هلاّ ضغطّها بقطعة الخمسة فرنكات وعندئذٍ يمكنك ان تتعرفّي إلى مظهري كما خلقتني «فيليسي» وأقسم لك ان الأمر يستحق! فثمة من ينفقون أموالهم طلباً لأمور أقل فائدة.

ـ إنه ظريف، هذا الرجل، لم تقل لي من قبل انه ظريف! تقول مخاطبة أحداً ما لا يسمح وضعي وأنا ممدّد على الأرض بأن أتنعم برؤيته!

ـ سوف يفقد روح الدعابة عما قليل، يتنبأ صوت جاف.

أحاول النهوض مستعيناً بمرفقي وأرى الرجل الذي كان يحمل البندقية الرشاشة في القبو. وبرفقته راي، بطل انبوب اللحام وما تشوّه من سحنته.

ـ إذاً أيها الشرطي، يقول راي متقدماً نحوي، أما نجوت بمظلتك؟

ـ أين أنا؟ أسأل.

ـ في ضيافة هذه الدمية الفاتنة! يقول راي مشيراً إلى الشقراء اللاهبة.

ثم يعلو صوت، أدرك انه صوت ريري، يقول ساخراً:

ـ ألا ترى يا سيدي الكوميسير انها من المخلوقات التي حباها الله بالرفاه، أليس كذلك؟ لا بد انها لا تأكل إلاّ الماس لكي تحافظ على مثل هذا الألق!

يفترّ ثغر راي عن ابتسامة بلهاء تضيف شحوباً إلى وجهه المترب. ابتسامة موجعة كأنها حالة إمساك معوي شديد.

ـ يا عزيزي بلواز، يقول، سنستأف حديثنا الحميم الذي قاطعه الكوميسير سان انطونيو منذ بعض الوقت.

ولمزيد من المعلومات، عليك يا عزيزي القارىء ان تراجع حروق ريري! إذ بدأت قروحه تتورّم وتنتفخ بالتهاب شديد. أما راي فقد ضمّد حروقه وبات وجهه مزداناً بضمادات من كل نوع.

ـ ما الجدوى من تصرفاتكم السادية. ما الجدوى منها!

ـ نحن لا نحبّ الخداع يا بلواز. ومنذ بداية هذه القضية وأنت تحاول خداعنا، فليس لك ان تعجب الآن لأن خداعك بات مفضوحاً!

هذه العبارات صدرت عن الرجل الآخر. انه عصبي المزاج، صلب وذو سطوة. رجل معتدل القامة، عريض المنكبين، ولا بأس بسحنته! أسمر وعيناه بلون الفأر، ويبدو مطرقاً، مستغرقاً في التفكير، انه نوع من مثقفي البندقية الرشاشة أو شيء من هذا القبيل!

أقتعد الأرض وأحاول ان أبحث عن «غبطته» بعينيّ. انه يقف عند الطرف المقابل من الحجرة ويبدو لي أشبه بطفل عملاق يغفو في سريره.

ـ اسمعوني جيداً، أقول جازماً، دعوا ريري وشأنه. إن الإعلان الذي نشر في الـ«فيغارو» ليس سوى خدعة من صنيع سان انطونيو ابتكرتها لأحثكم على الخروج من الخفاء.

يبتسم الأسمر ذو العينين الزرقاوين.

ـ مستحيل، أتودّ ان تقنعني أنكم في الشرطة على هذا القدر من الفطنة؟

ـ لا بل الفطنة والمثابرة، أقول مؤكداً. مثلاً: أراهنك بسنك الذهبية مقابل فكّ كركدن كامل انك ستمضي عطلتك القادمة في سجن فرين أو بواسي.

ـ لن أقبل رهاناً من رجل أصبح على عتبة الموت، يتمتم بازدراء؛ فذلك ليس بالأمر العادل.

ثمّ ملتفتاً إلى راي، يُغمغم قائلاً:

ـ أسكب بعض الماء على وجه ذلك الخنزير البدين، هناك، أود ان أكلّمه.

والخنزير البدين المقصود بالكلام، لا بد انكم حزرتم لدقّة المواصفات، ليس سوى بيرو المقدام. ولا يلبث راي ان يتناول زجاجة رشاشة عن طاولة خفيضة وراح يرشّ ماءها على الوجه المنتفخ المغطّى بالكدمات. عند الرشة الثالثة يصدر بيروريه غرغرة من حنجرته ويغمغم بصوت حالم:

ـ لا تضع كثيراً من الماء، أشربه بلا ماء!

ثمّ يفتح حدقتيه الجميلتين ويتلفت من حوله بشيء من الذعر.

ـ لا، أنتم تبالغون، يقول البدين معترضاً، مَنْ به حاجة للتبوّل فليس عليه إلاّ ان يفعلها في مكان آخر!

ويتمتم:

ـ أين سان ـ أ؟

ـ هنا، أيها البدين، أقول له مطمئناً، وحالي مثل حالك لقد كبلّت قدماي بحبل!

والحقيقة انه ليس مجرد حبل، بل سلك غليظ يستخدم لمنع سرقة الدراجات. لقد كبّل هؤلاء السادة أقدامنا بسلاسل مضادة للسرقات. وأصبحت قدما كل منا ملتصقتين فبتنا أشبه بأسد بحر يقلّد الفقمة.

ـ إنه جاهز يا سيد كوينسي، يُعلن راي.

وعندئذٍ يستدير المدعو كوينسي نحو الفتاة الجميلة.

ـ إذا كنت يا عزيزتي إيفا تخشين الانفعالات الحادة، يقول، فما عليك إلاّ ان تغادري الحجرة!

فتهز بكتفيها.

ـ أتمازحني! أنا لا أشاهد إلاّ أفلام الرعب!

ـ إذاً سيكون لك المشهد الذي تحبين إلاّ إذا كان هؤلاء السادة قد عقدوا العزم على الكلام!

ـ ماذا تودّني أن أقول لك؟ أقول مستهجناً.

ـ أن تخبرنا ببساطة أين أخفيت ذلك الرجل الطيب المدعو فرنسوا لورمون.

لو كنت رأيت طيف هاملت بالمايوه البيكيني لكان أهون عليَّ مما تناهى إلى سمعي، يا أصحاب. أترون؟ هذا المأفون يطرح عليَّ السؤال الذي أتلهّف لطرحه عليه!

ـ أتسخر مني أم ماذا؟ أزعق.

ـ أنت مخطىء جداً إذا كنت تحسب ان في سؤالي سخرية، يقول كوينسي جازماً. ولكني لا أطيق النقاشات التي لا تؤدي إلى نتائج، لذلك هيا بنا إلى الفعل!

وقد يكون الفعل المرتجى أشبه بوثيقة وفاة، إذا كانت أفعال الرجال في سيمائهم. يسيطر صمت مطبق. يُغادر راي الحجرة ويعود حاملاً آلة غريبة. إذ تبدو أشبه بخلاّط وبمطحنة بن كهربائية أو كأنها مضخة وقود صغيرة الحجم.

يدنو من بلواز ويمسك بإحدى ذراعيه ويربطها بأنابيب التدفئة المركزية.

ـ حسناً، يقول، لكي نبسط لكم الأمر إليكم بعض التعليمات حول طريقة استخدام هذه المضخة الدافعة. سوف أصل هذا الخرطوم المطاطي المجهّز بإبرة في طرفه، بأحد شرايين المعني، أقصد أنت يا بلواز. ثم نعمد إلى الضخ وعندئذٍ سيدخل الهواء إلى شرايينك فتشل دورتك الدموية وإذا لم تتكلم في الوقت المناسب فلن يصمد قلبك وستقضي بالسكتة القلبية.

ـ باستطاعتك أن تقتله على الفور، أقول معلّقاً، فهو لا يعرف شيئاً.

ـ ربما كان هو لا يعرف شيئاً، أما أنت فتعرف أين لورمون، أيها الكوميسير. ولذلك لن يكون الاختبار على بلواز إلاّ لمجرد تجربة للتثبت من فعالية الآلة.

ـ لا أعرف شيئاً على الاطلاق! أزعق قائلاً، فبينما كان

الشرطي الذي انتحل شخصية لورمون يتعرّض للقتل كان الصناعي الشهير في غرفتي في فندق «سابان بلو». وعندما عدتُ أدراجي إلى الفندق كان قد اختفى. لقد اختطفه مجهولون بعد ان أوثقوه وغطوه بغطاء سرير.

يقطب كوينسي دون ان ينبس بكلمة، ويسحب سيكارة من علبة مذهبة. يُشعل السيكارة ويشدّ منها نفختين ويتمتم:

ـ سوف تندم كثيراً لأنك تحسب أنني مجرد أبله، أيها الكوميسير. أريد معرفة المكان الذي يختبىء فيه لورمون وسأعرفه، وهذا كل شيء! هيّا فلنبدأ!

أما راي الذي كان ينتظر هذه الدعوة بفارغ الصبر، فيسارع بحركة من له الخبرة والدراية إلى غرز الابرة الطويلة في شريان بلواز، فيما عزيزنا ريري يزعق بأصوات تثقب الآذان! وفي هذه الأثناء يهزّ بيرو بكتفيه ويقول في غيبوبة من تلقّى صدمة على خزانة أفكاره الخلفية:

ـ إنها أساليب غير مقبولة، ثم تعاوده الغيبوبة فيروح في سبات عميق.

ورجائي ان لا يكون الوغد قد طحن نخاعه! فهل يُعقل ان أرى تفّاحتي اللحيمة مقعدة فوق كرسي نقّال؟ ومعه برت تجره من منتجع إلى منتجع!

كارثة محققة!

ـ إذا كنت تعرف شيئاً يا بلواز فقد حان الوقت لكي تبوح به. بما انك عملت مرشداً للبوليس، فلا بد انك تعرف شيئاً عن مصير لورمون، أليس كذلك؟ تقول الفتاة الشقراء همساً.

ـ لا أعرف شيئاً، يقول بلواز أسِفاً.

وأشعر للحظة انه لو كان يعرف شيئاً لباح به على الفور!

هواء في الشرايين، يا لها من عملية قذرة، أليس كذلك يا قرائي الأعزاء!؟ قد يكون الأوكسيجين منتهى ما تشتهيه الرئتان، لكنه عدو الأوعية الدموية! كل الأطباء، حتى لو كانوا من حملة الشهادة الاعدادية وليس من مؤهلات لهم إلاّ جريان المياه في مجلاهم، يؤكدون ذلك! كم أود ان أفعل شيئاً من أجل ريري. فقد أصبح محبباً لديَّ، هذا المسكين.

يُحكى دائماً عن الدجاجة التي عثرت على سكين، أو التي حضنت بيض البط والتي ظناً منها انها أنجبت نفر مشاة يتضح لها انها أم أميرال، ولكن الموقف الذي يكابده ريري أسوأ بكثير. فهو كان يتسكع في أوساط الأشقياء العاديين بكل ما لديه من نزاهة إذا جازت العبارة. وإذا به ذات يوم يلتقي مجرمين حقيقيين ويقررون استبدال الشقي النزيه بقاتل. ولكنه في صحوة ضمير يبلغ الشرطة عبر اتصاله بي، ومنذ تلك اللحظة يحدث الانقلاب في مجرى حياته. إذ يُصبح قاتلاً حقيقياً. وتُقتل عشيقته ثم يخطف لتحلق ذقنه بأنبوب حام أو ليحقن بالهواء في الشرايين؛ صحيح ان النزاهة مكلفة وتثبط العزائم. ليست حكاية ذات مغزى أخلاقي بالتأكيد! ولا يعقل ان تسمح الرقابة بعرضها في شريط سينمائي!

انتبه فجأة إلى انني ممدّد فوق سجّادة. وأقول في سري ان يديّ طليقتان. ملاحظتان مهمّتان، أليس كذلك؟

يبغي انتهاز الفرص، يا إخوة. وبينما يتركّز انتباه العموم

صوب بلواز ومن يضخّه، يعمد عزيزكم سان ـ أ إلى سحب السجادة من طرفها بتؤدة. على بُعد سنتيمترات قليلة مني ثمة طاولة من رخام وفوقها مزهرية. مزهرية جميلة من طراز «بكارا» الخالص ومشغولة بحرفة وعناية! وهكذا أواصل سحب السجادة لأدني الطاولة مني، فهل تدركون بعقولكم المعوقة ما الذي أنوي عمله؟

ها أصبحت المزهرية بمتناول يدي فأرفعها خفية وأرمي بها بين ساقي إيفا. تفزع للمفاجأة فتتراجع إلى الخلف. ثم تطلق صرخة وتسقط أرضاً بجانبي. وبأقل مما يقتضي أحد الجباة من الوقت لدفع ضرائبه، أكون قد ارتميت فوقها فأطوقها بذراعي وأثبتها فوق الأرضيّة. كفِراش، لا يسعني إلاّ ان أنصح بمثيلاتها لكم. كم تحفظ الدفء في أوصال واحدنا، خصوصاً في جنباته السفلية! تحاول ان تتفلّت من قبضتي لكنني أعاجل إلى إحكام تثبيت كتفيها.

ـ إذاً أيها الفتيان، أقول متوعداً، أوقفوا مضخة الموت وإلاّ لويت عنق فتاتكم راقصة التعرية.

تسود لحظات من الوقت الميت لدى العدو.

ـ شرطي يعمد إلى خنق امرأة بريئة! يقول كوينسي هازئاً، إنها سابقة فعلاً!

ـ اسمع جيداً يا كوينسي. إذا كنت أنت بالذات قد تناسيت كوني ضابط شرطة فلماذا تريدني ان أتذكر أنا؟ في هذه الحال أنا في وضعية الدفاع عن النفس وعن رفاقي أيضاً.

ـ دع هذه الامرأة على الفور!

ـ أوَتحسب أن الأمر سهل، إنها كمادة لاصقة ولا أشهى.

يتقدم نحونا.

ـ عذراً يا عزيزتي، أقول للفتاة فيما أجري عليها اختبار قبضة بوكادو ـ كاكوتي ـ سيشو، وهي قبضة يابانية لُقنتُها أثناء إحدى مهماتي في اليابان.

وهنا أشرح تفاصيلها لفائض علمكم:

تأخذ ليبرة من البصل النيء، وسمكتين مكبوستين، وكيلوغراما من لحم العجل في السرولة ـ عذراً، لقد أخطأت الوصفة! تمسك، أعيد وأكرر، بعنق خصمك من الخلف بين الإبهام والاصبع الوسطى. وتغرز سبّابتك الرئيسة بين الفقرة الرابعة والسيمفونية الخامسة لبيتهوفن. وتحرّك قليلاً حتى تتحسّس انفكاكاً طفيفاً على مستوى الوصل بينهما(...)!

تطلق الفتاة إيفا صرخة مروّعة ويُغمى عليها. وبالطبع أرخي قبضتي لأنني لست قاتلاً بطبيعتي.

ـ هذا فقط لأبرهن لكم أنني لا أمزح، أقول مخاطباً الأشقياء. وأعلمكم انه لا يزال هناك فرصة لإنقاذها، ولكن ينبغي العمل بسرعة أيها السادة.

والويل ثم الويل! يا لتلك السحنات المحدّقة بي! انهم يبغضونني كأقصى ما في البغض لا بل أشد وأشد! ثم لحظات تردد.

ـ وما الفائدة مما تفعله؟ يسأل الفتى كوينسي.

ـ أن تفكّ قيودنا!

ـ حسناً، يقول.

ويروح يفتش في جيوبه، ولكن بدل ان يسحب منها السلاسل المضادة للسرقة يرفع مسدسه ويصوّبه نحو بيروريه.

ـ وبدوري يا عزيزي أقول لك إذا لم ترفع يديك عن إيفا فسأقتل خنّوصك هذا. ألا ترى انه شبه ميت ولن ينتبه حتى إلى ما يتعرّض له!

يا له من تنازع قاس، يا اخوة! ماذا أفعل، أو ماذا لا أفعل؟ آه! يمكن القول أن الحظ ليس حليفي هذه المرة. ولا بد ان ملاكنا الحارس قد ذهب لتناول شرابٍ ما في الحانة المجاورة.

في هذه اللحظة بالذات، يطرأ انقلاب خطير في قضية لورمون: فها هو بيرو الذي حسبناه فاقداً وعيه يتشبث بساقي كوينسي. وكم أودّ ان تشاهدوا بأعينكم أداء صاحبي البارع! إنه ثور مفكرا إذ يتشبث بساقي ذاك الذي كان يحسب انه أفقده وعيه ويرميه أرضاً على طريقة المفتاح الكمبودي ـ وهو الأدهى ـ والأوفر حظاً في النجاح. ولكي يتم له ذلك ينبغي ان يطوّق الخصم بساعديه وان يلوي جذعه نصف دورة في اتجاه دوران عقرب الساعة وإذا بالخصم ممدداً على الأرض بلا دفاعات! ويفلح صاحبي البدين في حركته هذه. سوى ان راي، صاحب الشعر الأملس، لا يكتفي بلعب دور المشاهد! فيتدخل على الفور بضربات متتالية على مؤخر عنق البدين. وإذا بجلالته عند الضربة الثالثة وقد أرخى لسانه وأغمض عينيه بعد ان أطلق نخيراً عالياً وفقد وعيه.

ولم ينته الأمر عند هذا الحد! فقد فَقَد راي سيطرته على

نفسه هذه المرة وراح يتصرّف كالثور الهائج. وأحسب أن الرجل أحد لاعبي فريق الرايسنغ لكرة القدم، إذ يواصل تسديد الركلات لضحيته كيفما اتفق. ثم جاء دور ريري! بضربة واحدة تحطم أنفه وسالت دماؤه وتهشم حاجبه الأيسر.

وعلى غرار البيرو كانت تلك «نهاية الإرسال» وتصبحون على خير. ويتابع راي في ثورة غضبه (إذ لا سبيل معه لأنصاف الحلول) ويصيبني بضربة جزاء حرة ملء وجهي. فأشعر بأنني ابتلع أسناني دون ملح. وإذ بي أطيش مرة أخرى.

يا لجمجمتي المسكينة! كم توالت عليها الضربات!

ومع ذلك لم أفقد وعيي كلياً. فمن خلال الغشاوة التي حلّت على عينيَّ أرى مستضيفنا في حركة دؤوب. الفتاة إيفا تستعيد وعيها وكذلك كوينسي. ثم ينتحي الجميع ركناً ويتهامسون فيما بينهم ولا أستطيع ان أفهم شيئاً مما يقولونه. وفي آخر الأمر يأتون بدلو مياه ويدلقونه على وجهي. فأشعر بالاختناق وأشرق.

ـ بإمكانك ان تسمعني؟ يسأل كوينسي.

ـ أجل يا عزيزي، أغرّد قائلاً. ولكنْ لديَّ انطباع أنك حطمت طقم أسناني الطبيعي.

ـ أما زلت ترفض ان تخبرنا أين خبأت لورمون؟

ـ بما اني كنت سأطرح عليك السؤال نفسه، فمن البديهي إذاً انني لن أستطيع الاجابة عليه. إفعل ما شئت فذلك سيّان عندي. إلا إذا أردتني ان ألفق أي كلام. مُخيلتي لا حدود لها. مثلاً: لقد انتحل لورمون في هذه اللحظة شخصية مسمار

الأوخارستية وها هو الآن معلق في كنيسة الثالوث الأقدس. أو ربما كان الآن في سويسرا ويعمل كثقب في مصنع لجبنة الغروبير... أترغب في المزيد؟

يطلق كوينسي قهقهات أشبه بالضحّاك (هاكمُ مثلاً الاسم الجديد الذي قد يطلق على بلدة صغيرة كوينسي ري تورف(*)) ويهمس قائلاً:

ـ ستتكلم، أقسم انك ستفعل!

ويشير إلى راي (المقزّز) الذي يُغادر لبرهة ثم يعود حاملاً أغطية سميكة وقديمة. وينهمك الثلاثي بعملية دقيقة تقضي بأن يُلفّ كل منا بغطاء ثم يحزّم جيداً. وأحاول ان أبدي بادرة مقاومة ـ مجرد محاولة خائبة لحفظ ماء الوجه ـ إلاّ ان حقنة أخرى من عصير البغال تفقدني الوعي مجدداً.

بعد ذلك بثوان أشعر بأن ثمة من يحملني برعونة. ثم يرمي بي فوق مسطّح صلب على ارتفاع ما. ويتبع ذلك صوت ارتطام جسمين آخرين: فلا بد ان بيرو وريري قد ألحقا بي. ثم لا يلبث المسطح الصلب الذي حدثتكم عنه ان يبدأ بالاهتزاز بانتظام فأدرك اننا وضعنا في صندوق شاحنة تسير بنا.

تستغرق النزهة بعض الوقت. ففي مثل الحال التي أجدني فيها، مكبّلاً داخل غشاية كتيمة (طراز ٢٠٢٠٢٠) أفقد الإحساس بالزمن والمسافة. وعلى مقربة مني يصدر البدين، الذي لا بد انه يختنق أصوات نخير واضحة.

(*) حرفياً: كوينسي المقهقه ضحكاً، أو الضحّاك.

تتواصل النزهة وتذكّرني بأولئك الفتيان الذين يُقتادون عند الفجر إلى حصن ما حيث يُجهز عليهم

لا بدّ أن الرحلة استغرقت نحو ساعتين كاملتين على الأقل. والشاحنة تسير بسرعة كبيرة مما يعني اننا أصبحنا خارج باريس.

أخيراً تبطيء العربة سيرها وتنعطف انعطافة واسعة. ثم تتوقف. ينزلوننا من الشاحنة برعونة، أقصد بسحبنا من أطراف الغطاء الذي يلفنا ثم نُترك لنقع مباشرة على الأرض. ولحسن طالع ظهورنا أن سماكة الأغطية تخفف من وطأة الصدمة. ثم ترفع عنا الأغطية فأنظر من حولي بفضول وقلق ونفاد صبر واستعجال. وأتحقق من عدة وقائع في وقت معاً: الوقت ليل، ونحن في وسط مرجة والصمت المطبق للطبيعة النائمة يجعلني أدرك أننا على بعد أميال وأميال من المدن والطرقات التي تصل فيما بينها. (ثمة أوقات ودون قصد مني أعبّر عما أنا فيه بطريقة غريبة، أليس كذلك؟ ان رجلاً خائفاً لا يستطيع ان يعبّر أفضل مني حتى ولو كان حائزاً على البكالوريا بقسميها).

صحبتنا لا تزال هي هي. الثلاثي المشؤوم. وينحني كوينسي لمخاطبتنا.

ـ قليلاً من الصبر يا أصدقائي فالبقية تتبع. أعذروا لنا هذا الوقت الضائع، ولكن بعض الأعمال التحضيرية ضرورية.

ويغادرنا. تمكث الآنسة إيفا لحراستنا، تحمل مسدساً ضخماً (بهذا المقدار!) بين يديها الناعمتين المخلوقتين أصلاً لمداعبة أشياء

أقل أذية. تمكث صامتة وتطالعنا بنظرات غريبة. أراهنكم بما ترغبون مقابل خفّ جدتكم أنها متوترة الأعصاب. وان مقياس الحرارة لديها على أشده، لشدة ما تثيرها متاعبنا.

أسمعُ صدى طرق مكتوم يعكر صمت الليل العميق. أشبه بضربات مطرقة فوق إزميل. يتواصل الطرق لبعض الوقت ثم يتوقف ويعود الرجلان أدراجهما وقد ابيضت أيديهما من غبار الإسمنت.

ـ أتزاول النحت يا عزيزي كوينسي؟ أسأل.

فيضحك كما تضحك سمكة قرش وهي تقرأ رواية لسان انطونيو!

ـ لا. ما فعلناه لا يمتّ إلى الفن بصلة وثيقة. لقد انتزعنا حجراً يسد باب سرداب مدفن في مقبرة.

فيغمغم بلواز منهاراً.

ـ ما الذي يبتكرونه بعد؟

ـ أمر بسيط جداً، يقول كوينسي. نحن هنا وسط ملكية شاسعة لمهووس عجوز توفي منذ سنوات بعيدة. وأراد ان يُدفن في أرضه. نحن بعيدون عن العالم. إذ لم يسبق ان دخل أحد ما إلى هذه الملكية. أتفهم الآن؟

ـ وماذا يعني كل هذا؟ أسأل.

ـ الحال اننا سنوفر لرفات المرحوم رفقة. سوف نضعكم أنتم الثلاثة في مدفنه.

ـ إنها عطلة شيّقة! وبعد؟

ـ بعد ذلك تفكرون جيداً.

ـ كم أحب هذا. وعندما ننتهي من التفكير ملياً؟

ـ ستخبروننا عن مكان لورمون وعندئذٍ سنعمد في اليوم التالي إلى إخطار الشرطة لنعلم زملاءكم بمكان وجودكم فيهرعون لإنقاذكم في الوقت الذي نكون فيه نحن قد غادرنا البلاد وأصبحنا خارج نطاق الملاحقات القضائية.

ـ وإن لم نتكلم؟

ـ بحقّ السماء، ستموتون من العطش والجوع وسيكون هذا المدفن متواكم الأخير.

فيُطبق علينا صمت أثقل من دعابة دركي.

ـ ربما تفضلون الكلام فوراً! يقول راي (يومور سيباستوبول)(*). ان الرطوبة شديدة داخل مثل هذه المدافن وتسهل فيها الإصابة بالالتهاب الرئوي.

عندئذٍ يعلو صوت بيرو، صوته المحبّب كزئير أسد مزكوم:

ـ بلى يا سان انطونيو أخبرهم على الفور عن المكان الذي يختبىء فيه لورينون(**)!

وأدرك على الفور ما يقصده سيد الأسياد. كسب الوقت بإعطاء المجرمين عنواناً ملفّقاً. وبما انه سيكون عليهم التحقق من

(*) لعب على الألفاظ أيضاً، وريدمور سيباستوبول اسم يُطلق على إحدى محطات الميترو في العاصمة الفرنسية (م.ع).

(**) الصواب: لورمون، ولكن على جاري العادة البدين لا يحفظ الأسماء. (م.ع).

صحة المعلومات قبل ان يقتلونا، نكون بذلك قد كسبنا بضع ساعات.

ـ ليكن، أقول. لقد اقتيد لورمون إلى شاليه (منزل صيفي) في موريون، أسفل كورشوفيل. إنه يمكث هناك تحت حراسة رجالنا.

يلتفت كوينسي نحو راي (المنفّر). ويتبادلان نظرات الانتصار.

ـ اسم الشاليه، لو سمحت؟

ـ لا فلور ديترالب (زهرة الألب). إنها تقع على شفا منحدر!

بهذه الطريقة سوف يستغرقهم التحقق من الأمر ردحاً لا يستهان به من الزمن مما يوفّر لنا قسطاً من الراحة والوقت الكافي للتفكير بما سنفعله.

ـ حسناً! سنذهب للتحقق من هذا العنوان! يقول كوينسي بجفاء. وفي الانتظار يا أصدقائي سنضعهم في المدفن! فإذا كان ما تقولونه صادقاً سنفي بوعدنا! وإذا كان خاطئاً... (يضحك) سنفي بوعدنا أيضاً!

وعلى الفور يبدأ الرجلان بجرّنا فوق العشب المبلل بالندى.

يبدأون بجر بلواز. ويحاول ريري المسكين ان يقاوم ولكنّ راي (المعاند) يشوطه في ضلوعه فيستكين الشقي البائس وقد قطعت أنفاسه. وفيما هما يبتعدان بريري يبدأ بيرو بالزعيق «النجدة، النجدة» بصوته المصمّم أصلاً لبيع السمك بالمزاد

العلني. فتدنو منه الآنسة إيفا وتمنّ عليه بضربة من مقبض سلاحها على جبينه. صمت البدين. لا أحد يعلم كم من الكسور منيت بها جمجمته حتى الآن، مسكين .B.B! لا بد انها أصبحت كوعاء من الفخّار القديم. أتخيلها مزيّحة بالشقوق وحالها يرثى لها. وإذا حدث ان حظيت إحدى الكليات التطبيقية ذات يوم بهيكله العظمي فسيكون على الطلاب ان يُلصقوا أجزاءها بالورق اللاصق (وهو الأولى به، ذوّاقة السكوتش، صديقي بيرو!).

آخر من تعرض للجرّ هو أنا. لا سبيل للمقاومة. لقد حانت الساعة.

ها نحن قبالة ضريح مشاد على طراز وثني غريب. فُتحته سوداء في سواد الليل. ثغر الموت. تفوح منه نفثات عَفِنة.

ـ لقد حان وقت الوداع يا سيدي الكوميسير.

ـ إياك والبكاء، أقول، ربما التقينا مجدداً ذات يوم.

ـ في هذا العالم، لا أعتقد.

ويشير إلى راي (المُثاب). فيمسكني المذكور بكتفي ويجرّني إلى الفتحة. آخر ما وقعت عليه عيناي هي إيفا، التي تُضيء عتمة الليل بشعرها الذهبي.

ثم السقطة الوجيزة التي خففت من وطأتها جثة بيرو اللحيمة.

يئن اللحيم من الألم.

ـ كان بإمكانك ان تسقط في مكان آخر، أليس كذلك ؟
بلى! يغمغم قائلاً.

ـ لو سقطت في مكان آخر لكانت سقطتي موجعة أيها البدين. لك خاصية منتوجات سيمونز للرفاهية، على الأقل!

ثم أصمت ذلك ان مستطيل الضوء قد اختفى لتوه من فوقنا. لقد أغلق أولئك السادة باب المدفن. رائحة مريعة تتسرّب إلى منخري... فأشعر بالغثيان.

بلواز في العتمة التامة يقول بما يشبه الشكوى:

ـ لقد سقطت فوق تابوت الرجل. سأفقد عقلي!

ـ كن شجاعاً! أحثه قائلاً. لم يقتلونا وهذا الأهم. والآن علينا ان نتدبر شيئاً ما لإنقاذ أنفسنا.

ـ نتدبر بيض دجاجي! يعلن بيروربيه بصوت قاطع واضح، إذ يحدث أحياناً ان يكون صريح اللغة والبيان.

ويردف البدين قائلاً:

ـ إننا على الخازوق، كما يقول الالمان. مكبّلون في قعر سرداب للموتى وفي وسط الوعر الشاسع، فما الذي ستتدبره أنت أيها الحاذق؟

ـ أيها المفتش الممتاز بيروربيه، أرجو منك ان تحفظ أصول التراتب!

أما بلواز الذي لا يشعر بأدنى رغبة في المزاح فيقول:

ـ سنموت اختناقاً. هكذا انبثقت النبوءة من فمه المتفائل الصغير.

والحال ان هواء هذا الجحر ليس من نوع هواء كورشوفيل!

ـ بالضبط، أقول. ينبغي ان نقتصد في استهلاكه! لذلك أطلب منكما أيها السيدان ان تسكتا مذياعيكما اللذين لا يبثان إلاّ الحماقات. وحاولا، في المقابل، ان تتحررا من قيودكما. وأول من يفلح في ذلك يكون له الحق بجرعة أوكسيجين.

خلال (أو ضلال إذا شئتم) بعض الوقت يُجاهد (كما قد يقول جان كلود مانيان) كل منا التحرر من قيوده. بيروربيه هو الذي يحدث القدر الأكبر من الضجيج. فيتراءى لي ان قيوده لاقت أخيراً خصمها العنيد. ولكن على غرار قصب الحكاية الخرافية، يُلوى القيد ولا ينكسر. أما قيدي أنا فيجبهني بالمعاندة نفسها وكذا بلواز. ما زلنا مكبلين داخل الأغطية عاجزين عن الحراك. فيفتتح سيد الأسياد حفل شتائمه. يقول انه سئم هذه المهنة وانه هذه المرة عقد العزم، ولا عودة عنه، على التقدم باستقالته!

وفي ختام ساعة وعشر دقائق وثلاث ثوان من المجاهدة ألفينا أنفسنا عند نقطة الانطلاق.

ـ لقد أخطأت بالقول ان رجلك يقيم الآن في السافوا، يقول صاحب الانتفاخة. فخلال الوقت الذي تستغرقه رحلتهم ذهاباً وإياباً نكون قد قضينا اختناقاً!

لا أجيبه بشيء. الانتظار هو خير ما نفعله. تمضي ساعة أخرى. وعندئذٍ يبدأ بلواز بالزعيق كأنه أصيب بمسّ. ويخطر

لي، مجرد خاطرة، ان الإقامة في هذا المكان لها مفاعيلها السيئة على جهازه العصبي. فلا ينقص بعد إلاّ ان يُصبح مختلاً في مثل هذا الوقت العصيب.

ـ هلاّ أقفلت فمك الكبير أيها الوغد! لعنة الله على بينو الكسندر. ولكني أمنعك من إهدار هوائي!

ولكنّ المعني يواصل نشيده! انه ينهار بوضوح، ريري البائس. وتخترق الصرخة التي يُطلقها طبلة أذني نافذة إلى مكامن لا وعيي.

ـ ماذا نفعل لتهدئته؟ يسأل السمين. إن صراخه المتواصل يشوّش أفكاري. أرجو ان لا يكون جُنّ!

ـ الموسيقى تهذّب الأذواق، أقول بنبرة حِكمية؛ فلنجرّب.

ـ صحيح، يجيب السمين هازئاً، إذاً أدر له اسطوانة. والأفضل ان تكون لـ«تينو»!

ـ الموسيقى أمر يمكن ارتجاله، أقول.

ـ حسناً، سوى اني نسيت سمّاعتي في درج الطاولة قرب سريري، فلا تلُمني!

وبدل ان أجيبه أبدأ بصفير خافت. فيُدرك بيرو مقصدي فيصفر اللحن المصاحب.

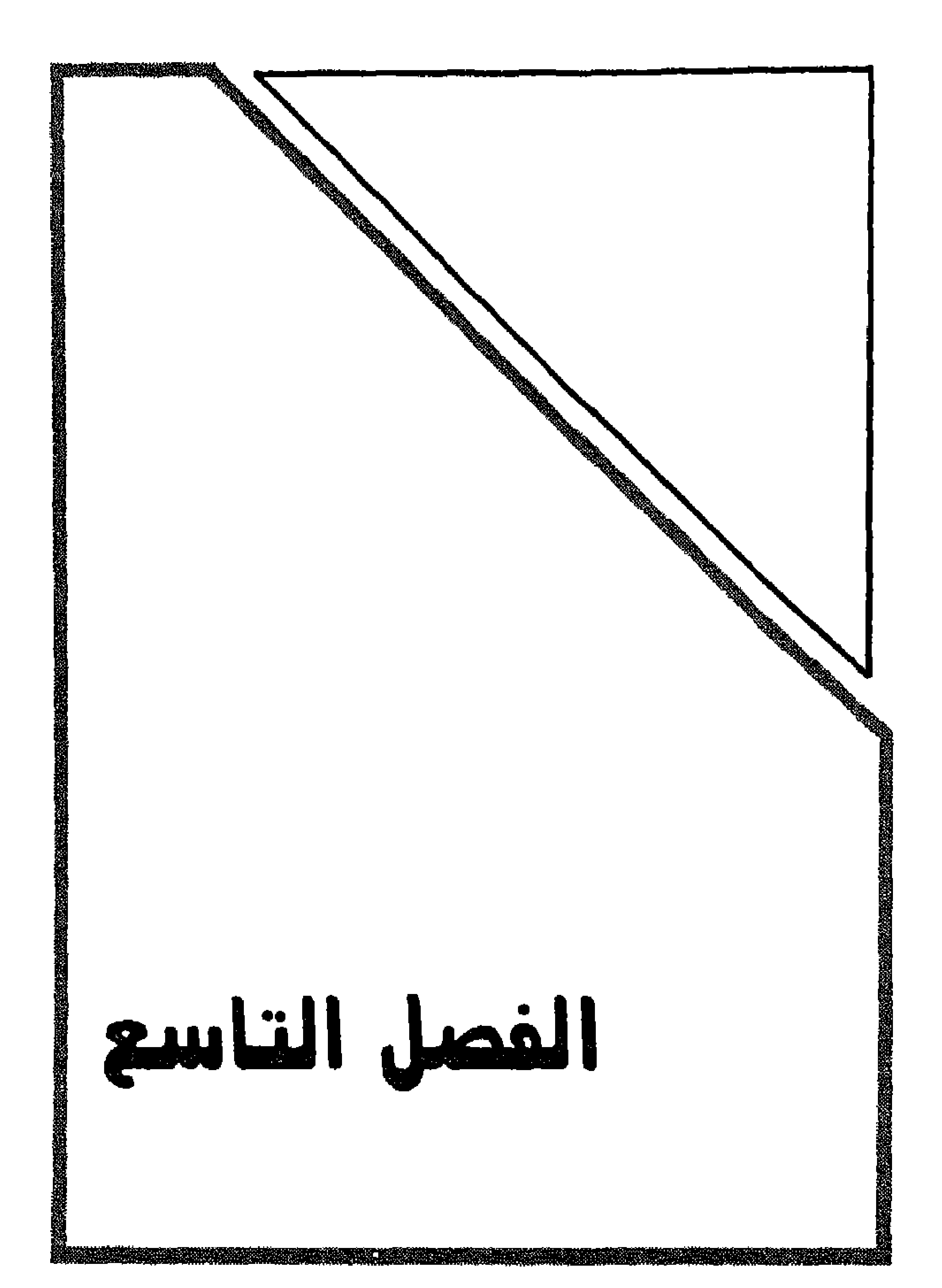
وهكذا حدث لأول مرة في تاريخ الشرطة ان شُرطيين مكبلين في قعر مدفن مسكون يصفران لحن «لا مادولون» سعياً لتهدئة أعصاب أحد الأشقياء!

لو لم أر ذلك بأم عيني لما صدّقت، أليس كذلك؟ اعترفوا ان مثل هذه الأمور لا تحدث إلاّ معنا!

وبأية حال كان للموسيقى فعل السحر. فخلال دقائق عاد ريري إلى رشده وكفّ عن زعيق من أصابه مسّ.

لا بل همس في آخر الأمر بنبرة يشوبها الكثير من القلق:

ـ ولكن ماذا أصابكما؟ أجننتما أم ماذا؟



الفصل التاسع

وتعقب ذلك فترة من الإحساس العميق بالوهن. وهو الأمر البديهي. فبعد كل الحوافز التي نلناها على رؤوسنا وتعاقب الانفعالات الحادة، من الطبيعي ان تتراخى قوانا. وجود هذا الجثمان الغريب، والعتمُ والصمت المطبقان، كلها عناصر إضافية لا طاقة للأجسام العادية على احتمالها. وحتى لو كانت روح واحدنا معمّدة في مياه «تبيرس» لما استطاعت احتمال أهوال هذه الرحلة.

وبالطبع أول من يبادر إلى الكلام مجدداً هو جلالة صاحب الغباء الوافر:

ـ إنها مصادفة غريبة بالفعل، يقول، ألا تعجب إذا قلت لك انني في الاسبوع المنصرم كنت أتحدث إلى برت حول ضرورة ان نبني مدفناً للعائلة!

ـ لا شيء يدعو إلى العجب، أجيبه، ذلك انك تفعل كل ما من شأنه ان يوفّر لك الرخاء والراحة!

ـ كنا نقول برت وأنا: ما دمنا قد امضينا حياتنا اللعينة معاً، فما من سبب يدعونا للانفصال بعد الممات!

ـ إنه بالفعل كلام خارق للطبيعة!

ـ ولكني بدّلت رأيي، يؤكد الشنار. الآن بعد ان خبرت ما تكون عليه المدافن، سأقول لبدينتي ان الأمر لا يستحق. فالمدافن مدعاة للغمة، والاختناق. أصدقني القول، أترى ان المدافن مريحة؟

ـ ليست برفاهية قصر مارلي بالطبع. ولكن في الحقيقة: ينبغي ان تكون ميتاً لتدرك المغزى الفعلي لمثل هذه الأماكن.

ـ غير مهم، لقد قرّرت: عندما أموت سأطلب ان تحرق جثتي، يبدو لي انها الطريقة الأنظف.

ـ ما زلت بهوسك المعتاد بأن تصبح رماداً!

صمت. فأقول هازئاً:

ـ ولكن قل لي يا جدي العزيز، ما دمت تخطط لمشاريع على المدى البعيد كما قد يقول صاحب عمارتك، كيف ترى إلى المستقبل؟

الصمت مجدداً. صاحب السعة والحجم يفكّر، ما الذي يُحدث صوتاً أشبه بمشية الخنزير البري فوق بساط من أوراق الشجر اليابسة في الخريف.

ـ أعلم أنّ ليس هناك ما يدعونا إلى التعامي عن الوقائع، ولكن لا أستطيع ان أصدّق اننا سنمكث هنا إلى الأبد!

ـ ألا تدرك الوقائع جيداً؟ نحن هنا مكبّلون، وثمة حجر ضخم يسد الفتحة و...

فيطلق بيرو الفيل صوتاً مدوّياً:

ـ ينبغي ان نتدبر الأمر أيها الفتيان، أنحن رجال أم ضراط أرانب، هيا أخبراني...

يجيبه بلواز:

ـ نحن رجال معوقون، يا حضرة الشرطي! فالأفضل ان تكون ضراط أرنب في الهواء الطلق ولا تكون رجلاً مكبلاً في قعر سرداب.

أجد الإجابة حصيفة. فيقبلها بيرو عَرَضاً، ولكن طباعه المثارة لا تلبث ان تستعر:

ـ اسمعا، يقول. نحن ثلاثة. فلا يُعقل ان لا يكون بيننا من يستطيع ان يتحرر من قيوده، فلا بد ان يكون قيد أحدنا رخواً أو أي شيء من هذا القبيل!

فنعاود بذل الجهود التي بذلناها من قبل.

ـ أنا أسِف، أقول، إن القيود التي منيتُ بها من المحكمات.

ـ وأنا أيضاً! يجيب ريري.

يبذل سيّد الأسياد قصارى جهده لبعض الوقت ثم يغمغم بعد استسلامه «لا شيء نقدر عليه».

ـ ما يضاعف صعوبة الحال التي نحن فيها، يقول مؤكداً هو الأغطية التي لُفّت حولنا بإحكام!

ـ شكراً للمعلومات، أقول ساخراً. (انها خاصيّة لا تفارق طبعي).

الوقت يمضي ونحن على حيرتنا. لا ندري ماذا نفعل أو نقول. رائحة المكان البغيضة أصبحت مألوفة وما عادت تجرّح حاسة الشم لدينا.

وفجأة تسري رعشة واحدة في أوصالنا جميعاً. فقد تناهت إلى مسامعنا جلبة من فوق. جلبة تتردّد. انها جلبةُ قضيب حديدي يطرق الحجارة.

ـ ما الذي يحدث، في اعتقادك؟ يسأل بيرو.

ـ ربما عثر أحد ما على أثرنا، أقول مفترضاً.

ـ انه أمر أجمل من ان يكون حقيقة. أنا أعتقد انهم أصحابنا الأوغاد عادوا من رحلتهم بعد ان تبيّنوا انك حاولت خداعهم.

أبدي اعجابي بطلاقة التعبير لدى بيرو وأطلب من رفيقيّ ان يلزما الصمت. وما هي إلاّ ثوان حتى ينزاح الحجر الذي يسدّ فتحة المدفن، فتصلنا دفقات من هواء الليل المنعش. وفي المستطيل المضاء للفتحة نرى عيوناً عابرة كأنها مشهد إعلاني في البرامج التلفزيونية.

كم هي جميلة الحياة!

ثم تصوّب علينا إضاءة باهرة من مصباح كهربائي فتغشى أبصارنا. ذلك ان تعوّدنا على عتمة المدفن جعلنا غير قادرين على احتمال الضوء المنبعث الباهر. فأشيح بوجهي ما يتيح لي

ان أرى المكان جيداً. ليس فيه ما يدعو إلى البهجة. جنبات المدفن ترشح رطوبة وفوق الأرض مباشرة وضع تابوت مخلّع الألواح نرى من خلالها هيكلاً عظمياً في طقم أسود متعفن. ريري يستلقي فوق التابوت.

صوت انزلاق: طيف يهبط إلينا. شعاع المصباح يقترب حتى يلامسني. تدخل يد في حقل إضاءته وهي تمسك بسكين. أقول في سرّي انها آخر لحظات عمري. فربما اكتشف خاطفونا ان الشرطة تتعقب أثرهم وتجنباً لأي مخاطرة بترك شهود عيان على قيد الحياة، قرروا قتلنا. فأوفدوا قاتلاً محترفاً لإنجاز المهمّة.

أغمض عينيّ الجميلتين. وأرفع دعاء حاراً بأن يكون الذبّاح محترفاً فينهي الأمر بسرعة خاطفة. أبتلع ريقي للمرة الأخيرة وأفكر بكل ما أوتيت من قدرة على التركيز في والدتي فيليسي الطيبة التي تنتظرني في منزلنا الخاص في سان كلو.

ولكن يا للمفاجأة (بالانكليزية hhhao surprise!) لا يحز النصل عنقي الممدود كعنق البجعة. بل يحزّ القيود التي تكبلني. إنها صدمة حادة وأشعر بأنني عولجت من ذبحة صدرية. وفجأة انحلّ الرباط الذي كان يحزّم يدي وصدري. ويتابع النصل الصديق قطع الرباط. ولا ألبث أن أتحرر كلياً. فأنتزع عني الغطاء وأحاول ان أتبيّن وجه مخلصنا. فهو لم ينطق بكلمة، بلفظة، بحرف. فيبدو المشهد طيفياً، كابوسياً، غرائبياً وخارقاً للطبيعة. أتبين سحنة رجل نحيل، طويل القامة،

بارز الوجنتين كوجوه الموتى، فوقهما سالفان مربعان أسودان، كث الحاجبين. شعره جعدي من الأمام ولامع من الخلف، شكراً لك يا روجا!

الآن ينهمك الملاك الأسود بمعالجة قيود سمو عاهل الأفيال. كريك، كراك، كروك! بضربات ثلاث يستعيد بيرو حرية الحركة.

ـ شكراً جزيلاً يا سيّدي، يقول وهو ينهض. لا أدري من أوفدك إلينا ولكن أعطني عنوانه سأرسل إليه باقة من الورد!

السيّد قاطع الحبال لا يجيب وينهمك بمعالجة قيود بلواز، فينهض ريري بدوره. وعندئذٍ يطبق الفتى سكينه ويدسّه في جيبه ويضع المصباح فوق التابوت المخلّع موجهاً أشعته في اتجاه مدخل المدفن. فألمح خيالاً واقفاً بلا حراك عند الفتحة. يشبك منقذنا كفيه عند أسفل بطنه فيشكل بهما نوعاً من المرقاة. فأستخدم سلّمه المرتجل أولاً. أشعر بخدر في أطرافي وأبدو بمثل رشاقة سيارة نقل ضخمة في صالون طراز شارل العاشر.

ولكن بالارادة يتحقق لك كل شيء، حتى ان لا تكون لك إرادة. فأرفع جسمي المخدّر. وتمتد يد في حقل الضوء الساطع من المصباح. يد مزدانة بخاتم مرصّع بحجر كريم. يد امرأة! ولكنها تعينني على الخروج من المقبرة الجماعية بعزيمة غير معهودة في النساء. يُسكرني الهواء الطلق. رذاذ شتوي ينهمر بارداً وليس ساخناً. يا له من شعور بالانتعاش! أنظر إلى السيدة

وأمكث فاغر الفم مثل ندّابة قروسطية تشارك في احتفال بذكرى جان دارك. فالمرأة المعنية هي إيفا. عزلاء وعازلة. تبتسم فتفتر شفتاها الساحرتان عن صف من الأسنان الناصعة.

ـ إذاً يا سيّد «لعازر»! تغرّد قائلة، كيف كانت إقامتك في الجحيم؟

ـ فردوسيّة! أقول مؤكداً، لقد لعبنا برمي العظيمات نحن والمستأجر السابق وأمضي وقتاً ممتعاً!

أساعد البدين في عملية انبعاثه ولا أجد الأمر يسيراً. في المحاولة الأولى انزلقت قدمه عن يدي منقذنا فيهوي بثقله على الرجل ذي السالفين الأرجنتينيين. ويُسمع ضجيج ودبيب قعر المدفن. إن تعابير البدين مفرطة في مغالاتها. وفي آخر الأمر تتضافر جهود الجميع فنفلح في إخراجه من هناك. بعد ذلك تبعه بلواز ثم قاطع الحبال.

ـ تعالوا! تقول لنا الفاتنة وهي تسير فوق عشب المرجة المبتل.

نسلك مترنحين من التعب درباً تعترضه الأشواك والأعشاب البرية يُفضي بنا إلى باب حديدي صدىء كمعلّل الآنسة التي بلغت عامها الثاني بعد المئة. يدفع الرجل الذي أنقذنا الباب وإذا بنا عند طرف طريق ضيق. وهناك سيارة مركونة في الجوار: سيارة كاديلاك سوداء ضخمة من طراز قديم. نستقل السيارة. تجلس الفتاة في المقعد الأمامي وبجانبها المنقذ خلف المقود.

وفجأة يتعرّف بيرو إليها.

ـ إذاً، لقد فكرتم في الأمر ملياً، يغمغم قائلاً. وهل كان دافعك إحساسك الإنساني أم الخوف من العواقب؟

فتحدجنا الفاتنة بنظرة ساذجة حتى يكاد «فولتير» نفسه ان يجدد اشتراكه السنوي في مجلة «الأكسبرس».

ـ إني لا أنتمي إلى هذه العصابة، تقول لنا. ولكن لم يكن بوسعي ان أفعل شيئاً حين كانوا لا يزالون هنا.

ـ مَنْ أنت؟ أبادر إلى السؤال.

ـ ستعرف من أنا قريباً جداً.

يشبك بلواز كفيه فوق صدره ويرتمي متهالكاً على مسند المقعد.

ـ ما كنت أتوقع أن أتنزه في سيارة كاديلاك هذه الليلة! يقول متنفساً الصعداء.

يتلو عليه بيروريه ملخصاً مبسطاً لمفاهيمه الفلسفية الخاصة:

ـ الحياة تبدو على هذا النحو يا صاحبي: ضربة تقتلك، وضربة تجعلك سائحاً داخل سيارة كاديلاك. هذا ما نطلق عليه اسم جسور القيقب.

ـ إلى أين تذهبين بنا؟ أسأل.

فتبدي بعض الدهشة.

ـ ولكن... إلى باريس طبعاً!

ـ أوكي، يقول بيروريه الذي يتكلم الأميركية بطلاقة. إذا كان الأمر لا يزعجك أود ان تقليني إلى «المقصف الألزاسي».

يُخيل إليّ انني لم أذق لقمة منذ دهور ودهور، وفي مثل هذه الحالة لا أجد ما يسد رمقي خيراً من طبق «الشوكروت»! طبق من «الشوكروت» الدسم مصحوباً باللحم الطازج.

ويمسح بطرف كمه دفق اللعاب الذي راح يسيل من فمه النهم.

إنها سيول الدمع التي لا تفرزها المدامع بل البنكرياس.

ـ في أي منطقة كنا؟ أسأل منقذتي الفاتنة.

ـ ناحية أورليان، تقول.

ـ أنت في نظرنا بمثابة جان دارك، أقول محدجاً إياها بنظرات كان من شأنها ان تذيب حزام عفّة العذارى.

فتجيب بنظرة أخرى مفعمة بالوعود. تسير الكاديلاك بسرعة ١٢٠ كلم/ساعة في طرقات الريف النائم. تفتح إيفا صندوق التابلوه وتأخذ منه زجاجة مشعّة مثل ليلة منجمة.

ـ أحسب انكم في حاجة لما يعيد إليكم بعض النشاط، تقول.

وماذا يكون رد فعل البدين؟ يختطف الزجاجة وينتزع سدّادتها بأسنانه قبل ان يكرع منها ويكرع كالدلو المثقوب.

ـ هلاّ أبقيت لي جرعة، يتوسل بلواز. اني في حاجة لبعض الشراب مثلك تماماً!

يتوقف بيرو عن الشرب ويُعطيني الزجاجة.

ـ أتسمح، بلى! يقول مخاطباً ريري، ان الأولوية لرئيسي

المباشر! لقد نعتني بالشرطي القذر منذ بعض الوقت حين كنا لا نزال في المدفن، ولو أردت ان أترك العنان لرغباتي لأدركت جيداً ما يحل بك!

فيستشيط بلواز غيظاً ويجيبه بكلام مقذع.

احتسي جرعة كبيرة من الشراب واعطي الزجاجة لريري.

ـ خذ يا ريري، هدىء من روعك وكفّ عن الزعيق. الآن بدأت الأمور تسير نحو الأفضل!

فيرفع الزجاجة إلى شفتيه وإذا ببيرو يهمس في أذنه بصوت غريب:

ـ لا تشرب... انه عصير مخدِّر.

وفجأة يتهالك ويسند رأسه إلى كتفي. أحاول ان أفعل شيئاً ولكن الخدر يتسرب إلى أوصالي. وتزوغ أبصاري. وحدها أنظار ايفا المتوقدة تحتفظ ببريقها. عيناها أشبه بثقبين في مظلة كبيرة.

ـ ما هي الخدعة هذه المرة، يا آنسة جلد الثور! أغمغم قائلاً.

فتطلق قهقهة مدوّية، ويرتجُّ لا وعيي الكامن لشدة ما تضحك. أود ان أقول لها أشياء، ان أطرح عليها أسئلة، ان أدق عنقها! ولكني أشعر بارتخاء فظيع في مفاصلي، كأني دودة رخوة. لم أعد قادراً على تحريك أصبعي الصغيرة، ولا حتى ان أفتح جفني. أسمع صوت ريري زاعقاً، ولكن قواي لم تعد قادرة على ادراك ما يقوله.

عصير، أيها الفتيان!

عصير رائق جميل بلون العسل.

الفصل العاشر

حالما أصحو أشعر بتخشب سريع في فكيّ حتى انه يسهل طلاؤهما بدهان لامع وعرضهما لدى بائع «الأنتيكا». ولعل ملتهم الإسفلت وشارب القطران يكون أفضل مني حالاً في ما أنا عليه.

أجدني مجدداً مستلقياً فوق مسطّح صلب ويتناهى إلى سمعي هدير محرك. أفتح عيناً واحدة لكي أشغل جهاز استعلاماتي الخاص. لا: لم نعد في سيارة الكاديلاك. جنبات العربة مدعّمة بالفولاذ. أهي شاحنة أخرى؟ أحدّق في الأرجاء بدقة أكبر فينتفض شرياني الأبهر بنبض عنيف. وأدرك اننا نستقل طائرة! وهي الحقيقة العارية التي أصارحكم بها أيها الأعزاء. ألكز البدين إلى جانبي، فيطلق خواراً إذ يجد صعوبة بالغة في فتح شفتيه الملصوقتين.

ـ أريد طبقاً آخر من «الشوكروت»، يهذي السمين.

ـ لا تكلّف نفسك عناء الطلب، أقول هازئاً، عليك ان تنهي الطبق الأول.

يفتح عينيه الجميلتين بلون مجرور جاف.

ـ آه! هذا أنت! يقول.

ثم بعد تحققه مما نحن فيه:

ـ ولكن أين نحن؟

ـ في الطائرة، أيها البدين.

ـ أما زلت مخدَّراً أم ماذا؟

ـ تفحّص المكان واحكم بنفسك.

فيطيع. يرفع عينيه ويجيل أبصاره الخنّوصية في الأرجاء، ثم يتهالك مجدداً على ظهره.

ـ لم أشهد من قبل مثل هذه المهمة. يبدو لي اننا سنقضي عمرنا المتبقي بين القيود والمخدر والكدمات والخداع! ما عدنا في صف المطاردين بل في صفّ الضحايا يا سان ـ أ! لقد أصبحنا أشبه بدجاجات الخمّ!

ـ إهدأ، فسوف تحين ساعتنا!

ـ أحسب ان الساعة التي ستزفها لنا معطّلة وقيد الاصلاح لدى الساعاتي!

يلتفت نحو بلواز ويحدق به ملياً ويمطّ شفتيه أسفاً.

ـ لقد اخطأت حين نبّهته إلى ان الشراب مخدّر. لقد

خدروه بعصير المطارق، المسكين! أنظر إلى هذا الجرح في أعلى جبينه! على الأقل لقد عوملنا نحن بلباقة لا تتناسب كثيراً والموقف الذي كنا فيه!

ـ يا لها من لباقة، نعم! ان رأسي كجرن تضرب فيه صلصة المايونيز!

ـ ورأسي أيضاً. ولن ينتهي الأمر قبل ان نصاب بالتهاب السحايا.

ـ أوه! بالنسبة لك لا خوف على الإطلاق، لديك المناعة، أقول له مطمئناً.

ـ لماذا؟

ـ اسمع أيها البدين، فلكي تصاب بالتهاب الجيوب الأنفية ينبغي ان تكون لديك جيوب أنفية، أليس كذلك؟ ولكي تصاب بالتهاب السحايا الدماغية ينبغي ان تكون لديك سحايا دماغية!

فيقطب.

ـ لا أريد ان أقلّل من احترام رئيسي المباشر ولكن يبدو لي انك منذ بداية هذه القضية تعاني انسداداً في سحاياك الدماغية، أليس كذلك؟

عندئذٍ فُتح الباب المغلق على ثلّة الدركيين المخدّرين وإذا بإيفا أمامنا.

ـ إذاً، هل استيقظ «لوريل وهاردي» قضية لورمون من سباتهما؟ تقول مازحة.

فأجيب بغمزة من عيني من طراز الأميرة المجهولة.

ـ أهلاً بالآنسة منوّم، أتشاركين في الرحلة؟ لا تقولي ان المضيفات قد أعلنّ الاضراب العام؟

وأردف قائلاً:

ـ المدهش في رفقتك، يا حلوتي، هو مزاجك الغريب. نخطف وندفن أحياء ثم نبعث من بين الأموات، ثم نخدّر ونُقاد في رحلة في الشاحنة ثم في سيارة كاديلاك، ثم الطائرة! انه أمر خرافي. فلو رويتُ كل هذا بعد عمر طويل لأحفاد أحفادي لحسبوا أنني أخرق!

ـ أوَتحسب حقاً انك ستحظى بأحفاد أحفادك؟ تقول مازحة.

ـ نعم أيها الجمال النائم. وحلمي ان يكونوا من صلبك أنت. فلا يساورني أدنى شك اننا معاً قد ننجب سلالة عجيبة!

تنحني فوق بلواز وتمط شفتيها أسفاً كما فعل بيرو من قبل.

ـ هل فارق الحياة؟ أسأل.

ـ أرجو ان لا يكون فارقها. لقد أراد ان يقاوم مما أرغم جوزيه على ضربه بمفتاح انكليزي. ولم تكن المهمة سهلة، إذ يصعب على من يقود السيارة ان يقوم بعمل نظيف بهذا المعنى لا بد انك تدرك قصدي؟

ثم تغادر لبعض الوقت وتعود حاملة قارورة من المطهّر وعلبة قطن طبي.

ـ بإمكانك ان تكوني ممرضة رائعة، أقول مؤكداً. فلا بد ان المحتضر بين يديك تعاوده الرغبة في الحياة! ولكن أخبريني يا حشيشتي، ماذا سيحدث بعد؟

ـ إنها مفاجأة! تقول.

ـ ألا تريدين ان تطلعينا على سيناريو الحلقة الثانية؟

ـ لا. سأغادركم لأن الطائرة ستهبط عما قريب. كونوا عقلاء!

فتغادر وتغلق الباب وراءها. من خلال إحدى الكوى أرى غيمة مضحكة تتهادى في دوريّة وسط سماء زرقاء مثل علبة سكائر الغولواز.

ـ أين أصبحنا؟ يسأل بيروريه.

ـ من المؤكد اننا أصبحنا في «الميدي»، جنوباً. انظر إلى هذه السماء الصافية. يندر ان نرى مثل هذه السماء في فصل الشتاء، أليس كذلك؟

لا يبدو سيّد الأسياد معنياً بصفاء السماء. فالشعر، في نظره، لا يكون إلاّ في تطعم شرائح اللحم مصحوبة بكميات من صلصة الخردل.

تنحرف الطائرة بشكل مفاجىء فتتدحرج يميناً وشمالاً ويختلط الحابل بالنابل. ثم تبدأ بالهبوط ويصدر عن محركها هدير غريب. إلاّ أن عملية الهبوط تتم بسلام. بضعة ارتجاجات طفيفة ثم تنزلق فوق المدرج هينةً. ثم تتوقف.

ـ شاتو دو فنسن، آخر الخط! يُعلن الهائل.

ـ اصمت يا ب.ب. (بنوا بيروربيه)، أقول له بنبرة قاطعة.

وأصغي لصوت رجل يسأل من الخارج:

ـ هالو إيفا، أكلّ شيء على خير ما يرام؟

ـ على أفضل ما يرام! تؤكد راقصة التعرية.

ـ والرحلة؟

ـ كالمتوقّع.

ـ إذاً، هل أتيتِ بركاب معك؟

ـ بلى، أشبه بالنقانق. أترك لك أمر تفريغ الحمولة من الضيوف الأعزاء. والزعيم، كيف حاله؟

ـ على أفضل حال، وان كان يعاني من الطقس.

يغمغم بيرو:

ـ وتقول لي إننا في «الميدي»، جنوباً أحسب اننا في أقصى الشمال، بلى! أتراهن اننا في أقصى شمالي هولندا؟

وفجأة يفتح عدد من الرجال الباب الخارجي بمثابة اجابة شافية على تساؤلات بيرو. فتدلف نسمة من الهواء الحار تجفف أوعيتنا على الفور. لا بد ان الحرارة تبلغ خمسين درجة في الظل. أزيز حشرات، وسيّدان قد اسمّرت سُحنتاهما كأنهما خرجا للتو من موقد جماعي يتقدمان ويدفعان بنا نحو الباب. القيظ شديد. كأننا ندخل إلى حمام «سونا».

ـ ألا قل لي، أهمس قائلاً، أحسب ان هولندا قد أصبحت على خط الاستواء، أليس كذلك؟

وأردف قائلاً، لأننا أصبحنا في الخارج ولا أرى على امتداد النظر إلاّ الصحراء بكثبانها البيضاء:

ـ وأما طواحين الهوءا فقد طارت جميعها!

قرب الطائرة ثمة سيارة جيب يجلس خلف مقودها عملاق أسود. وآخر أشقر، يرتدي ثياباً بيضاء، ويتحدث إلى إيفا.

ـ ضعهم في مؤخر الجيب وانقلهم إلى الشاليه! يقول بلهجة آمرة.

فينفّذ الزنوج الأمر على الفور. وتبتعد إيفا برفقة الرجل ذي الملابس البيضاء دون ان يكفّا عن تبادل أطراف الحديث. اسمعهما للحظات ولا يسرّني ما أسمعه على الاطلاق.

هو ـ لقد أنجزت العملية بكفاءة عالية، يا صغيرتي!

إيفا ـ ان عامل الحظ قد لعب دوراً كبيراً.

هو . ولكن لماذا أحضرت الرجلين الآخرين؟

إيفا ـ لأن... بضاعة للتبادل...

ولم أسمع بقية الحديث. فأمكث حائراً. ماذا يقصد الرجل الذي يرتدي ثياباً من تقدمة مسحوق «برسيل» بقوله «الرجلين الآخرين» بينما نحن ثلاثة؟ هل يقصدني أنا وبيرو، أم يقصد بلواز وبيرو؟ أو...

لا يتسع وقتي الآن لاستعراض كل المعادلات الحسابية المترتبة على قوله هذا. ثم يُلقى بريري فوق بطنينا (إذ أصبحا أشبه بالبطون العمومية)، وتنطلق سيارة الجيب بنا.

ولا نلبث ان نصل إلى محاذاة واحة صغيرة سمّيت كذلك بسبب أشجار النخيل الباسقة فيها. وفي الوسط بناء أبيض، طراز الأبنية التي شيّدها المستوطنون. يتوقف الجيب ونُرغَمُ على النزول منه ونتقدم تحت حراسة الرجل الأبيض.

ـ ضعوهم في هذه الحجرة! يقول.

ونُدفع إلى الأمام فوق ألواح غير متينة.

ـ أيها الأوغاد! يزعق البدين. ما عليكم إلاّ ان تحلّوا وثاقي قليلاً لأريكم جزاء من يعاملنا كالخرق المتسخة!

إلاّ ان الرجل الأبيض لا يكترث لردود فعل الكرة المقيّدة.

ـ بيبي! يقول مخاطباً أحد الزنوج. ستتولى الحراسة أمام الباب تحسّباً لأي طارىء!

ونُترك في الداخل. الحجرة التي وضعنا فيها أشبه بمخزن حيث لا يُخزن شيء يذكر. وهي غير مضاءة ولا منافذ لها باستثناء كوة المروحة الشافطة وتسودها حرارة القِذْر الضاغطة.

يستغل السيد ريري هذه الاستراحة لاستعادة وعيه.

ـ أين نحن؟ يقول بصوت رخو ومتلعثم.

ـ في الناحية الثانية من حوض البحر المتوسط، أؤكد له. ولكن تحديد الموقع بدقة أمر...

ـ هل تمزح يا حضرة الكوميسير!

ـ لا، ليس اليوم، فعِرقُ النّسا يجعلني غير قادر على المزاح.

وأسرد له بإيجاز تفاصيل الرحلة على متن الطائرة وهبوطنا في هذا المكان فيُصعق الشقي المسكين.

ـ ولكنْ ماذا يريدون منّا؟ يقول بنبرة شكوى. أوه! يا لها من قضية قذرة! لو كنت أعلم لقتلت لورمون دون أن أخبر أحداً. والأرجح انني لو فعلت لكنت الآن أحيا بسلام وأمان!

ـ لكنت تحيا بسلام في زنزانة في شامبيري بانتظار حلولك ضيفاً على المقصلة!

يهزّ بكتفيه.

ـ السجن أفضل من هذا المكان! ثم من قال انني كنتُ سأسجن لا محالة، فالكلام في سرك يا حضرة الكوميسير، لا أعتقد ان رجال الشرطة على هذا القدر من الحذاقة.

لقد جعلتني لهجته الساخرة أفقد ما أعتزّ به من تمالك للنفس.

ـ حاذر مما تقوله يا ريري.

أما بيرو فيطوف في عالم آخر.

ـ ألم يذكر الرجل الجامايكي شيئاً بشأن الطعام؟ يقول نحالته(*) قلقاً. ليس لأني كثير التذمر والشكوى، ولكن كم أود انِ أنقد ما يؤكل ذات يوم، فقط لكي لا أفقد عادة الأكل والتطعم.

ـ إبدأ بقضم حبالي، أنصحه، لكي لا تفقد عادة القضم!

(*) على وزن سيادته، للنحول.

ـ ماذا؟

انقلب على جنبي بحيث أدير له ظهري. إنها مخاطرة ولكن بالتعاون مع بيرو يمكن القيام بذلك نظراً لحسن سيرته وأخلاقه، ولكني لا أغامر بفعلتي هذه مع آخرين سواه.

ـ حاول بما تبقى لك من أسنان ان تفك القيود التي تكبّل معصمي، أوَتدرك الآن قصدي، يا رجل الرمال الكريه؟

يقول بلى ويبدأ بالمحاولة.

ولكن في غضون دقيقتين يتراجع السيد المصون بسبب نابه الأخير الذي انفصل عن فكه دون سابق إنذار. ويروح بيرو يستعرض معجم الشتائم لديه. إذ لم يبق له سوى أحد قواطعه الأمامية ويعتزم الاحتفاظ به صالحاً للعمل في استهلاك بعض المواد الغذائية التي يمكن هضمها أكثر من ألياف القنّب.

ـ مهلاً! يقول بلواز، إني امتلك أسناناً لا تُضاهى، أستطيع أن ألتهم الزجاج والبورسولين، والحبالُ عندي مثل وجبة «السباغيتي»!

نتجمع زحفاً وقفزاً. ويُطلق المسكين أنيناً حاداً بسبب الشق الذي أحدثه المفتاح الانكليزي في أعلى جبينه. وفي آخر الأمر نفلح في اتخاذ الوضعية الملائمة ويبدأ ريري بأداء استعراضه. لم يكذب. فطقما أسنانه عبارة عن كمّاشة حقيقية! الناب يحررني من القيود! حسناً! حسناً! العقدة الأخيرة! وها هو الكوميسير طليق اليدين يمسّد معصميه ويحرك ذراعيه وكتفيه.

ـ حين تنتهي من التمطي، أشر إلينا! تزعق الانتفاخة. وللعلم فقط أذكرك بأن حالنا، ريري وأنا ليست على خير ما يرام!

فأهرع لمعالجة أمرهما دون ان أتمالك ضحكة خافتة.

في غضون ثوان أصبحنا ثلاثة نمسّد معاصمنا وكعوبنا وظهورنا وأكتافنا وحتى البروستات نظراً للحرارة التي تعرضت لها أقفيتنا خلال فترة أسرنا الطويلة.

ـ إنه النعيم حقاً أن يقدر واحدنا على التحرّك بحرية، يقول بلواز متنفساً الصعداء. لقد حسبت انني تحوّلت إلى مومياء إلى الأبد!

ـ والآن، يقول البدين، كيف السبيل لمغادرة هذه الغرفة: ليس هناك نافذة واحدة!

ويتفحّص بعين محبطة كوة المروحة. ويدرك لضيقها انها لن تتسع لقامة رجل يزحف منها إلى الخارج، فكيف إذا كان الرجل في بدانة جلالته؟

ـ سنمنح أنفسنا ترف المغادرة من الباب كما يفعل الأناس العاديون، أقول.

ـ هناك حارس في الممشى. وما إن يسمع جلبتنا محاولين معالجة القفل سينادي رفاقه!

ـ أنسيت يا بيرو ان المكر عينه صار رجلاً. سوف نبدأ بتقليد أصوات الحيوانات.

فتحدّج الانتفاخة ريري بنظرات ريبة وذهول. إذ يحسب الرجل الطيب انني جننت.

ـ أصوات الحيوانات؟ يقول مشدوهاً.

ـ نعم؛ إذا شرعنا بالصراخ سيبادر الحارس إلى اتخاذ احتياطاته، ولكن قل لي هل سمعت من قبل ألطف من أصوات الحيوانات خصوصاً، إذا قلّدها البشر؟ هذا الأمر من شأنه ان يثير فضوله ويدنو للتحقق من حقيقة ما يجري. كل ما نريده منه هو ان يفتح الباب، أليس بلى؟ أما البقية فأمرها ليس صعباً!

ـ مدهش! يقول بلواز باستحسان ملحوظ. ان شئت أستطيع ان أقلّد صوت الحمار، انه اختصاصي.

ـ عظيم! وأنت أيها البدين، صوت الخنزير، أليس كذلك؟

ـ كيف عرفت ذلك؟ يقول الساذج مندهشاً. أجل، اني أقلّد صوت الخنّوص ولن يستطيع صاحب دكان جزارة ان يلحظ الفرق!

ـ أما أنا فسأقلّد صوت الكلب لكي نستكمل حياة الزريبة! سننطلق ثلاثتنا في وقت واحد؛ مفهوم يا أبنائي؟ بلباقة، بنعومة! والآن، واحد، إثنان، ثلاثة...

وتنطلق الجوقة!

إن الفتى الذي لم يسمع هذا الفاصل الموسيقي يجهل كل شيء عن حياة الأرياف. إنه فاصل موسيقي خاص برواد الأسطبلات والزرائب وحفر الخنازير! حتى يصعب التمييز

بينهم من حيث جودة الأداء! فريري كأنه حمار أليبورون استحال رجلاً، أما سيد الأسياد فلو فعل ما يفعله الآن في حفرة خنازير لانقضت عليه الإناث الخنّوصية ولكان عليه ان يبرّر الأمر لزوجته برت!

في غضون دقيقتين يسمع صرير القفل. فأحدج رفيقي بنظرة باردة وأسارع للاختباء خلف الباب. يُفتح الباب ويُطل النجاشي الذي يحرسنا برأسه عبر الفرجة الضيقة، فلا أدع له فرصة التراجع. أعاجله بضربة ساعد تكون القاضية! وإذ هو طريح الأرضية. فيتلقفه بيرو في هذه الأثناء ويرفعه جيداً ليسدّد إلى وجهه صدمة قاطرة. فيسقط الحارس هذه المرة على ركبتيه. أصبح خارج المباراة كمثل اليوم الثاني والثلاثين من شهر تموز/يوليو، إلا ان بلواز الذي يشعر بحاجة ماسة لتصريف احتقان غيظه يعاجله بركلة تليق بحمار من أرفع طراز! وبعد أنواع المسكّنات التي نالها لا بد ان صاحبنا سيغفو لمدة شهرين على الأقل.

ـ مرحباً بالحرية! صرختُ قائلاً.

نهرع إلى خارج الغرفة ونتقدم في الممشى بحذر. فيبدو الشاليه ساكناً كالحياة الخاصة لخصيّ.

ـ إذاً هيا بنا؟ اسأل رفاق رحلتي.

ـ إلى أين؟ يسأل الهائل بقلق!

ـ لا أدري، ولكن، مع ذلك، هيّا بنا!

ـ لو كنا نحمل سلاحاً واحداً على الأقل، يتذمر البدين قائلاً، كم أمقت ان أتنزه أعزل اليدين في قفير اليعاسيب هذا!

ـ بأية حال، أقول له، ليس المطلوب ان نطوّق هذا الحصن الصغير، فكل ما بوسعنا ان نفعله هو الفرار!

وإذ أقرن القول بالفعل أتسلّل بمحاذاة الحائط حتى طرف الممشى. ثمة باب يفضي إلى باحة، وفي الجهة المقابلة مرآب حيث أرى عربتين: سيارة جيب وشاحنة عسكرية مجهزّة لاجتياز الأراضي الوعرة. وأرى الفتى الذي انتشلنا من المدفن ليلة البارحة منهمكاً بتصليح الشاحنة. وأسمعه يغني خلال العمل. أغنية اسبانية، أقصد تعلمون جيداً كيف تكون الأغنية الاسبانية، أليس كذلك؟ نوع من الغرغرة بالمياه المالحة.

ـ ستتقدم في مساحة مكشوفة، أقول لصديقي. نستقل الجيب ونقول وداعاً لهؤلاء الأناس الطيبين. أنت يا ريري ستنطلق بسيارة الجيب فيما أعالج صداع منشد الأوبرا هذا، مفهوم؟

ـ مفهوم!

نركض في الضياء القائظ. أصل أولاً متقدما بلواز بسنتيمترات وبيرو بأذرع. يلتفت الميكانيكي دون ان يكف عن الغناء. ويبدو مذهولاً لا يصدق عينيه الجاحظتين.

ـ أقفل خطمك يا توتو، أقول ناصحاً، أود فقط ان أعرف مقاس ذقنك.

فيحاول ان يمسك بإحدى أدواته، إلا ان نقانقي الخمسة مجتمعة في السرّاء والضرّاء تدخل على الفور في التحام مباشر مع فكّه الأسفل. يندفع إلى الوراء، وبسرعة البرق، يسحب سكيناً أقصر من سيف «ديموقليطس» بقليل. يحدث النصل

طقّة جافة حين يفتح. يرفع ذراعه ليثقبني. أجدني مستنداً إلى الشاحنة وليس في متناول يدي ما أدافع به عن نفسي. إلاّ ان غبطته البيرورية تمهل ولا تهمل. فيمسك البدين بدلو مليء بزيت المحركات ويدلقه على سحنة الرجل ذي السالفين. وتحسم المسألة دون الرجوع إليه. فأسدّد إليه ضربة الصياد الذي يجيد الاصطياد. انتهى! وراح محرّك الجيب يهدر.

ـ كافة المسافرين، إلى السيارة! يزعق بلواز بحبور من يستعيد صباه.

ـ مهلاً يا بني!

ألمّ مسدس الفتى المغلوب وأعمد إلى ثقب عجلات الشاحنة بالسكين. أثقب الأول والثاني وأهمّ بمعالجة الثالث حين أسمع زعيق بيرو:

ـ سحقاً! انهم قادمون!

عندئذٍ أقفز إلى داخل الجيب وينطلق بلواز في انطلاقة مشهودة.

عند مدخل الباحة الواسعة، يقف الرجل الأبيض برفقة رجلين آخرين معترضاً طريق انسحابنا، وفي يد كل منهم مسدس من طراز «بارابلو» من العيار الثقيل.

أسلحتهم مصوبة نحونا ويزعق الرجل الأبيض بنا يأمرنا بالتوقف، لكننا لا نبالي به.

ـ انخفضوا قليلاً ودعوني أناور! يقول ريري.

يحدث في حياة المرء ان تصادفه ظروف لا يستطيع معها

إلاّ ان يثق بقريبه. فيخفض البدين رأسه وجذعه وأحذو حذوه. وعندئذ يبدأ سباق التعرّج والرمي على الهدف المتحرّك. الرصاص يخترق هيكل الجيب ويتناثر زجاج المقدمة فننال منه شظايا في كل مكان. إلاّ ان العربة لا تزال منطلقة بسرعة فائقة. ثم صرخة! وارتطام! أحسب اننا اصطدمنا بشجرة، ولكن لا: يتضح ان ما صدمته العربة هو رجل. تعبر سيارة الجيب فوقه وتتابع سباقها المتعرّج. الآن أصبحت الرصاصات تصلنا من الخلف، وهذا دليل على اننا اجتزنا الحاجز. وبعد لحظات يتوقف اطلاق النار. ولا بد ان معترضي طريقنا هرعوا إلى الشاحنة للقيام بمطاردة على طريقة أفلام رعاة البقر. وسيسرّون جداً حين يتضح لهم ان العجلات مثقوبة.

ـ قضي الأمر، باستطاعتكما ان تنهضا! يقول بلواز.

نعود، بيرو وأنا، إلى مقاعدنا.

ـ لا أضرار؟ أسأل سائقنا المقدام.

فيجيبني ممازحاً.

ـ نثرة من طرف الأذن لا يُعتدّ بها. كان ذلك متعة بالغة، أليس كذلك؟ كم يذكرني ذلك بالسطو على مبنى «الكريدي ليونيه» في فيتري.

وفجأة ينتبه إلى أنّ من يخاطبه ليس سوى ضابط شرطة، فيغمغم قائلاً:

ـ أقول ذلك على سبيل المزاح، بالطبع!

ـ حسناً، لنر أين أصبحنا!

أنظر إلى الوراء. بجانب الشاليه أرى كتلة داكنة مطروحة فوق التراب.

ـ قل يا ريري، أقتلت أحداً ما، هكذا بمحض المصادفة؟

ـ بحق السماء، لقد كان يطلق علينا الرصاص فلعبت معه لعبة «الكورّيدا» ولم يهرع إلى مغادرة الساحة على جناح السرعة. أعتقد ان قفص أنفاسه قد تهدّم تماماً، فقد سمعت طقطقة العظام. سيكون عليه ان يزرع ضلوعاً جديدة، وعندها قد تكتب له النجاة!

أتفحص هيكل العربة فأجدها منخورة بالثقوب مثل قفاز درّاج هوائي.

ـ لقد حالفنا الحظ فلم تنخرنا رشقات الملبّس تلك، أقول مبتهجاً.

ـ لا تأتِ على ذكر الملبّس أرجوك، يتوسل استدارته، فأنا أكاد أهلك من الجوع!

ـ أتساءل أين نحن، يتمتم بلواز. ألا ترون معي ان هذا المنظر الشاسع تنقصه بعض الظلال؟

ـ هذا صحيح، أيها الفتيان. لا بد ان الحطابين لا يجدون ما يسدّون به رمقهم في هذه البلاد.

ـ أليست الصحراء؟

ـ لا أدري؛ كل ما أستطيع قوله انها بالتأكيد ليست غابة مارلي!

ـ أوَتظن، يسأل البَلوع، ان ثمة حانة في الجوار؟

ـ على مقربة، ولا تبعد أكثر من ١٢ ألف كلم.

فيئن.

ـ إنه أمر مريع. سنموت جوعاً وربما عطشاً أيضاً! ولكن مهلاً، هناك رجل ينتظر من يقلّه هناك!

ـ ليس رجلاً بل شجرة صبّار، يقول بلواز مصوّباً، لقد أصبح نظرك زائغاً ومائعاً كالحلوى الرخوة يا سيد بيرورييه!

يمد بيرو يده اليسرى من فوق المقود ويتشبث بياقة ريري.

ـ اسمعني جيداً أيها السافل، يزعق الضخم متوعداً، يجب ان تتذكر دائماً إلي من توجّه كلامك. فأنا لا أحب الأشقياء الذين يسمحون لأنفسهم بالتحدث إليّ من الندّ إلى الندّ، هل تدرك ماذا أقصد؟ أقصد المكارين الصغار الذين يسطون على فروع «الكريدي ليونيه» ثم يأتون إليّ ويتفوّهون بدعابات سخيفة كما تفعل أنت الآن!

يهز ريري بكتفيه.

ـ لا تغضب يا سيد بيرورييه.

ـ المفتش الممتاز، من فضلك!

وعندئذٍ يطفح الكيل ببلواز.

ـ اسمع أيها المؤخرة المتورمة، لا وجود هنا لمفتش ممتاز أو سواه! ليس من مُتع الحياة عندي أن ألعب دوراً في فيلم «سيارة أجرة إلى طبرق»! لولا خططكم الفاشلة لكنت لا أزال الآن في كورشوفيل أزاول رياضة التزلج على الثلج.

ـ أوقف السيارة قليلاً أيها المخّاط، فأعالج واجهة أسنانك بضربة واحدة!

ـ إذا كنت مصراً على ذلك، فأنا لها!

لقد حان لسلطة سان انطونيو ان تكون الحكم الفاصل.

ـ عندما تنهيان مهاتراتكما التافهة أبلغاني برقياً! في وسط الصحراء، وخلفنا قطيع من الذئاب ولديكما الوقت الكافي للمناكفة!

فتخبو حماستهما. ونصل إلى محاذاة نبتة هائلة فيتثبت بيرو من الهفوة التي ارتكبها:

ـ بالفعل، يقول، انها شجرة صبّار. ولم تحلق ذقنها.

يمد لسانه الجاف.

ـ ان لساني يشبه ذنب سمكة المورة في برميل من نقيع الملح! إذا حدث ان مَرَرت بمقهى، يا ريري، توقف قليلاً لاستراحة قصيرة!

ـ إذا كان ينقصنا الشراب فلا تنقصنا الصحراء، على الأقل(*)! يقول بلواز مداعباً بعد ان هدأت أعصابه.

ـ اسمعا جيداً، أقول لهما، ان الطرقات، حتى ما كان منها على هذه الحال من السوء، لها دائماً ما يميّزها: أي انها تفضي على الدوام إلى مكان ما. وسينتهي بنا الأمر بأن نصل إلى هذا المكان. على الأقل لدينا الوقود الكافي، أليس كذلك يا ريري.

(*) لعب على لفظي Desert وDessert، الأول: صحراء والثاني: حلوى تقدم بعد الطعام.

ـ خزان السيارة ملآن، أنظر إلى مؤشر التابلوه!

ـ إذاً لا بأس، هيا انطلق بسرعة.

وتتواصل رحلتنا وسط الصحراء. نسير لمدة نصف ساعة دون ان ينبس أحدنا بكلمة. القيظ قاتل ونشعر ان حناجرنا أشبه بطوب الأفران التي يُصهر فيها المعدن. وكنا منذ بعض الوقت قد غطينا رؤوسنا بخرق من القماش تجنباً لضربة الشمس.

السيارة ترجّ وتنط بنا لأن الطريق ليست معبدة بالطبع. وفجأة تبدر من البدين اشارات توجّس.

ـ ستقول لي انني أهذي هذه المرة أيضاً، يقول، ولكنني أعتقد انني أسمع هدير سيارة أخرى!

فأصيخ السمع. ويجد الفتى الذي هو أنا، الابن الوحيد والمدلل للعزيزة فيليسي، انه هو أيضاً يسمع هدير محرك من بعيد.

ـ أوقف طاحونتك قليلاً يا ريري!

فيوقف ريري سيارة «الجيب». فيسيطر صمت مفاجىء، وخلال عشرة أعشار الثانية كان باستطاعتنا ان نسمع شعيرات لحانا وهي تنبت. ثم تناهى صوت هدير محرك. يتقدم منا.

ـ هيّا، لا تقل ان روح البنزين يفسد عقلي، يقول بيرو.

ـ لا، اني أسمع شيئاً بالفعل، أيها البدين.

أقف داخل السيارة وأسبر المدى بعيني، في الاتساع المترامي خلفنا. مساحات شاسعة من القفر والوعر كأنه منظر قمري. وتشكل الحرارة غلالة مذهبة تتماوج عند طرف الأفق.

ـ لا أرى شيئاً.

ـ هل يوجد سراب سمعي؟

ـ أجل، أيها البدين، ولكن، مع ذلك...

في هذه الأثناء يراقب ريري الاتساع الصحراوي أمامه. ولا يرى طيف عربة ولا حتى دراجة هوائية. هناك المساحات المترامية من الكتل الصخرية والكثبان البيضاء وذلك الهدير المقلق الذي يزداد قوّة أي اقتراباً.

ومرة ثانية يلعب البدين دور الهادي:

ـ إنها ليست سيارة، بل طائرة.

ويشير بإصبعه إلى نقطة مفضضة تلمع في الأجواء.

ثم يتضح شكل الطائرة إذ تنخفض في طيرانها. انها تنقض في اتجاهنا مثلما ينقض صقر على فريسة.

ـ لقد ثقبنا عجلات شاحنتهم فاستخدموا الطائرة لمطاردتنا! يقول ريري مفسّراً.

وما هي إلاّ ثوان معدودة حتى كانت الطائرة تعبر خاطفة فوق رؤوسنا فيصمّ هديرها آذاننا. ثم تعود إلى الارتفاع وتنعطف مجنّحة بغية الانقضاض مجدداً.

ـ ستنقض مرة أخرى! يقول بيرورييه. إنه طائرهم!

ـ سيصْلوننا بوابل من الرصاص! يتنبأ بلواز. انظر: لقد فتحا باب الطائرة.

ولم ينه عبارته حتى عبرت الطائرة مجدداً من فوقنا على ارتفاع منخفض، نحو خمسين متراً لا أكثر. ثم سقطت منها أجسام كرويّة.

ـ إنها قنابل يدوية! أصرخ قائلاً، حاولا ان تحفظا عظامكما كاملة!

فنقعي متدرّئين بما تيسر. سلسلة من الانفجارات المدوّية ترج السيارة في انطلاقتها المسرعة. تبتعد الطائرة مرة أخرى وتنعطف مجدداً وتعود إلى انقضاض مشابه!

ـ هذه موجة الهجوم الجديدة! يزعق البدين.

ولمناسبة الكلام على الموجة الجديدة، فأنا شخصياً أفضل أفلام شابرول.

هذه المرة كان تصويبهم أكثر دقة فتناثرت الشظايا والنيران في محيط سيرنا. يزعق بيرو.

ـ هل أصبت أيها البدين؟ أصرخ في المعمعة.

ـ لقد أصابتني شظيّة!

ـ اقفزا من السيارة وامكثا ممدّدين فوق الرمال. سنجعلهم يعتقدون اننا أصبنا إصابات قاتلة، وإلاّ فإنهم سيواصلون مطاردتنا وقذفنا بالقنابل إلى ان ينالوا منا بالفعل.

ـ وماذا لو أطلقوا علينا النار مجدداً؟ يقول بلواز.

ـ إفعلا ما أقوله لكما على الفور!

وفيما تبتعد الطائرة في انعطافة أخرى بعيداً عنا، نقفز من السيارة ونتخذ فوق الرمال وضعيات بالغة الدلالة: أطرافنا متشابكة وسواعدنا كالمصلوبين الذين لفظوا أنفاسهم الأخيرة.

تعبر الطائرة مجدداً من فوقنا، ولكن هذه المرة دون ان تقذف بالقنابل.

ـ إنهم يراقبوننا! أقول. تابعا التظاهر بأنكما أصبحتما في عالم الأموات، فلا بد انهم يدققون بواسطة منظار.

ـ يا لك من حاذق، يتشكى الانتفاخ، ثمة سحلية تحاول ان تنسلّ من أذني إلى داخل رأسي.

ـ ذلك لأنها وجدت المكان فارغاً فأرادت ان تشغله. عليل بالصبر لبعض الوقت أيها البدين. فالتكافل ضروري بين أبناء الجنس الحيواني الواحد!

ـ يا لابتهاجك! يتشكى بلواز.

ـ دماء فوق الكثبان! أقول هازئاً.

ـ دماء فوق القمر! يقول ريري مصوّباً ألم تشاهد هذا الفيلم من قبل، يا حضرة الكوميسير؟

تدور هذه المحادثة فيما لا نزال منبطحين فوق الرمال الساخنة التي تعطر شعور أفراد الفرقة الأجنبية.

تقوم الطائرة بدورتين أو ثلاث فوقنا ثم تعود إلى التحليق على ارتفاع وتنعطف في نصف دورة.

ـ امكثا بلا حراك، فربما كانت هذه مجرد خدعة.

نمكث بلا حراك. وحسناً فعلنا. لأن السادة عادوا بعد

خمس دقائق في طلعة استكشافية هجومية. لم يطلقوا النار، فقط للتثبت من حقيقة مقتلنا. ثم تبتعد الطائرة، هذه المرة، إلى غير رجعة.

ـ الآن نستطيع ان ننهض.

ـ آه! يا رأسي! يئن بيرو قائلاً.

ـ آي، يا أذني! يتشكى ريري متألماً من القطعة الصغيرة التي بترت من أذنه الجميلة.

يتلمّس الجرح متألماً.

ـ قل لي، هل سيعيقني هذا الجرح عن اجراء المخابرات الهاتفية.

ـ قبل ان تجد هاتفاً عمومياً سيكون الجرح قد التأم نهائياً، أقول بنبرة تشاؤم.

الفصل الحادي عشر

أصبحت السماء الآن خالية. كم يُفزعنا اتساعها الهائل. لسنا سوى نمال ضئيلة الحجم تائهة في هذا العالم القمري. أطلعت رفيقيّ على ما يراودني من خواطر إلاّ انهما لا يباليان كثيراً بتأملاتي الفلسفية. وينبغي القول أيضاً انهما جائعان لأننا لم نعضّ على كسرة خبز منذ دهور ويبدو لي ان خواء بطوننا يدعو إلى الانهيار.

ـ ربما بدا الأمر وكأننا نسير فوق سطح القمر، يقول بيرو موافقاً، إلاّ ان هذا لن يوفر لنا ما نأكله. ثم ان الرحلات «التجميلية»(*) ليست موضوع اهتمامي المفضل.

ـ لنتحقق من العربة، يقول بلواز، يبدو لي انها تعرضت لصدمة كبيرة!

(*) حرفياً: cosmetique = نسبة إلى مستحضرات التجميل. ولا بد ان ما يقصده بيرو هو cosmique = كونية أو أي شيء من هذا القبيل. (م.ع).

ندور حول السيارة المتضررة ونتبين لسوء طالعنا ان شظية قد ثقبت خزان الوقود وان عصير رحلتنا الثمين قد شربته الرمال.

ـ ها نحن في ورطة جميلة، يقول ريري معلّقاً، ماذا سيحل بنا؟

ـ لن يطول بنا الأمر حتى نصبح هياكل عظمية بيضاء جميلة، أقول جازماً.

يقول البدين متلعثماً:

ـ هذا غير معقول! لن يصيبني النحول إلى هذا الحد! أوه! يا للعطش السائد، بحق الأجداد.

ـ والآن بإمكاننا ان نشرب، أقول.

ـ ماذا تقول يا سان. أ؟ هل أصبت بضربة شمس أم ماذا؟

ـ بما ان السيارة أصبحت غير صالحة للاستعمال، فما علينا إلاّ ان نشرب ماء الرادياتور.

فيبدي بلواز استحسانه للفكرة، لأنها تستحق.

ـ بإمكاننا القول انك رجل الموارد يا حضرة الكوميسير.

ـ رجل الينابيع، أجل، هذا ما تودّ قوله! يقول سيادته عطشان الأول ممازحاً، وها هو يتقدمهم ليكون أول الواردين. سحقاً! لا يلبث ان يصرخ، انه أشبه بنبيذ «البروفانس»، هل أنت واثق من أن العربة غير مجهزة بما يذيب الجليد؟

ـ ما يذيب الجليد، هنا! انه ترف ما بعده ترف! ما يحتاجونه هنا هو مضادات التبخر التي قد تمزج بالماء.

يتذوق الشراب ويبدو على سحنته الامتعاض.

. تفوه، إنها مياه ملوّثة، ولها طعم الخردة.

. هذا ما نسميه جرعة من الصدأ الخام، أيها البدين.

ومع ذلك يشرب ثم يتكرّم بغرف بعض هذا الكوثر لكي نشرب وبالفعل نجد انه ليس رائع المذاق ولكنه يطفىء ظمأنا.

ـ والآن، ماذا أفعل؟ يقول البدين منشداً.

ـ سنمكث حيث نحن! أقول.

ـ أتمازحني!

ـ لا. ولكن لن نذهب بعيداً إذا انطلقنا سيراً على الأقدام، خصوصاً ببطوننا الخاوية. هنا على الأقل لدينا الماء والفيء الذي توفره السيارة لننتظر.

ـ ولكن ما الذي سننتظره؟ يقول ريري ثائراً.

ـ رسولاً من العناية الالهية.

ـ أحسب ان رسولك لن يصل في وقت قريب، تقول الكتلة الدهنية وهي تجلس.

إلاّ انه لا يلبث ان يطلق صرخة مدوية وينتصب واقفاً. إن مؤخرته المصابة ستحول من الآن فصاعداً دون تمتّعه بمثل هذه الجلسة. ولذلك ها ان المنتفخ المسكين يستلقي على بطنه فوق الرمال الساخنة.

ـ لا أقول هذا بدافع الشكوى يا سيد بيرو، يقول ريري معترضاً، ولكنك تحتل كل مساحة الظل!

ـ ما عليك إذاً إلا ان تتفيأ في ظلي أنا، يجيب الهائل دون اكتراث.

وهكذا كان، وبينما يستغرق هذان السيدان في قيلولتهما أحاول ان أدقق بالمعدّات التي جهزت بها سيارة «الجيب». ولا أعثر فيها إلاّ على معزقة صغيرة وعلبة سجائر مفتوحة وعلبة كبريت بالاضافة إلى سكين وحبال وصورة لبريجيت باردو قُصت من إحدى المجلات. أضع الصورة على الزجاج الأمامي وأشعل سيجارة. الشمس ساطعة وحادة فأشعر بلسع أشعتها كضربات ساخنة على مؤخر عنقي. ويبدو لي كأن الهواء الذي نتنشقه يهب من فرن مستعر النيران.

أقول في سري، فيما أمتع ناظري بمفاتن النجمة السينمائية، اننا أصبحنا في طريق مسدود (وان كانت الاستعارة مستهجنة بعض الشيء) أو اننا نلفي أنفسنا وسط اتساع شاسع من الصخور والرمال. وفجأة يميل النهار إلى المغيب. فيخيم علينا الليل كأنه غطاء محكم. فنمكث ذاهلين في حيرتنا. إذ يبلغ الوهن من أجسادنا مبلغاً يجلعنا عاجزين حتى عن الكلام. فنشرب مجدداً من شراب الصدأ، ثم يغلبنا النعاس فيعلو نخيرنا تحت ضوء القمر. والمستغرب في الأمر اننا لا نشعر بالبرد، على عكس ما نعرفه في الليالي الصحراوية. فالحرارة معتدلة، يجعل أجسامنا تستغرق في راحة تامة.

نستغرق في نوم عميق. نوم حقيقي أخيراً!

*

* *

انطلق صوت بلواز وقد بُحّ من جراء النوم في الهواء الطلق:

ـ يا حضرة الكوميسير!

أفتح عيني. ضوء النهار. مع ان الشمس لم تلامس الأفق بعد إلاّ بأناملها المذهّبة(*).

يبدو بلواز بلحيته النابتة وعينيه الرخوتين المتعبتين مختلفاً عما كانه في كورشوفيل، صورة الفتى الوسيم وزير النساء!

ـ لدينا زوّارا يقول لي.

ويشير إلى البعيد في الاتجاه الذي سلكناه ليلة أمس. وبالفعل أرى في المدى الذي يشير إليه نقطة سوداء يزداد حجمها شيئاً فشيئاً. وهذه النقطة السوداء يصدر عنها هدير محرك: لا مجال للخطأ، إنها عربة.

نمكث لبعض الوقت في حالة ترقّب وصمت. ووحده نخير البدين يُصاحب اقتراب هدير العربة.

كنتُ لأوقظ «اللحيمة» النائمة، ولكن ما النفع؟ ذلك ان النوم ينسيه على الأقل مخاطر اللحظة التي نحياها.

ـ يبدو لي انها شاحنة، يؤكد بلواز.

ـ بالفعل، انها شاحنة.

(*) لديّ من مثيلات هذه الصور الشاعرية الكثير الكثير ولكن استخدامها هنا قد يُعرّضني لنيل جائزة «غونكور» الأمر الذي قد يؤثر سلباً على مبيعات روائعي!

تصرّمت بضع دقائق أخرى. أصبح شكل العربة المقبلة واضحاً: انها شاحنة حقيقية. لا بل أحسب انها الشاحنة المجهّزة لاجتياز الوعر والتي ثقبت عجلاتها ليلة أمس.

ـ إنهم هم، أليس كذلك؟

ـ أجل. لقد جاؤوا لرفع جثثنا واستعادة سيارة «الجيب» التي كادت تخونهم.

ـ وما العمل؟ يقول ريري.

أهز برأسي.

ـ ماذا تستطيع ان تفعل أيها الأرنب المسكين! أنظر انهم نصف دزينة كاملة من الرجال المسلحين حتى أسنانهم، بينما لا نملك نحن سوى المعزقة القزمة والسكين المكسور لنعلن عليهم الحرب، هذا ناهيك عن الوهن الذي يجعلنا عاجزين حتى عن الوقوف!

أصبحت الشاحنة على بعد عشرين متراً. ويترجل منها عدد من الرجال ومن بينهم الرجل ذو الملابس البيضاء. ويحمل هؤلاء السادة بنادق رشاشة ومسدسات من أحدث ما ابتكرته مصانع الأسلحة! ترسانة صغيرة حقيقية!

ـ الويل لكم، هذه المرة، إذا حاولتم ان تحرّكوا ساكناً، فسنحيلكم على الفور إلى هريسة لحم! يزعق الرجل الأبيض.

وعند سماعه عبارة هريسة، استيقظ البدين مجفلاً.

ـ أجل، أجل، المزيد من الهريسة! يقول وقد سال لعابه.

يدعك عينيه جيداً، ويتفحّص الموقف ثم يستدير نحوي:

ـ أين نحن يا سان ـ أ؟

ـ وسط الصحراء، أيها القرد العجوز!

ـ أتمازحني! أنظر إلى هذه المائدة العامرة. كم أود ان ألتهم فخذ خروف، أوَتحسب انهم سيلاحظون إذا التهمته بمفردي؟

إنها الحرارة المرتفعة، لقد التهب جرحه من دون شك.

ـ لا بأس، بإمكانك الاستئثار به، أقول متواطئاً، ولكن قبل ان تفعل ضع مريلتك فوق صدرك وإلاّ تتسخ ربطة عنقك الجديدة.

ينقض بيرو على الرمل ويقبض على جفنات منه يدسّها في فمه. يمضغ بعض الوقت ويتمتم:

ـ يا للخسارة، إنه مالح!

ينفجر الرجل الأبيض بالضحك.

ـ يتراءى لي اننا وصلنا في الوقت المناسب؟ كنت أحسبكم في عالم الأموات أيها الكوميسير!

لا أجيب. ولا يجد خاطفونا مشقة تذكر في دفعنا إلى الشاحنة. إذ يبدو الوهن على سحناتنا بحيث انهم لم يتكبدوا حتى مشقة تكبيل أيدينا.

تنعطف الشاحنة في نصف دورة، وفي هذه الأثناء يعطي الرجل الأبيض أوامره لمساعديه. فيعمد هؤلاء إلى سكب الوقود فوق سيارة «الجيب» ويشعلون فيها النار. ثم يصعد الجميع إلى الشاحنة ونعود إلى قاعدتنا. أشعر بصحوة مفاجئة.

وتفارقني كل رغبة في المقاومة أو القتال. رأسي يؤلمني، وأشعر ان طحاناً قد ثبّت طاحونته في مؤخر خزان أفكاري العبقرية، وراح يطحنها.

الفصل الثاني عشر

يحدث للمرء أحياناً، خلال نزهة في الأرياف، ان يجتاز سياجاً من الشريط الشائك، أليس كذلك؟ ويحدث له بالتالي ان يجرح كفيه وفخذيه وأحياناً مؤخرته أو أي موضع آخر من جسمه. فتخيّلوا ان فلذات أكبادي عندما عادوا بنا إلى المنتجع لم يجدوا، لكي يأمنوا شرنا، إلاّ ان يعمدوا إلى لفّنا بشريط شائك. طبعاً لم يبالغوا في شده وإحكامه على أبداننا ولكن، مع ذلك، صدقوني، ان واحدنا في مثل هذه الحالة لا تراوده الأحلام الوردية (وان لم تصدقوني فما عليكم إلاّ ان تراجعوا تاريخ الإغريق). أما التفصيل الوحيد الذي يدعو إلى شيء من الراحة وسط هذه الأهوال، هو ان ايفا هي التي تحضر لنا طعامنا. طبعاً لا أقصد بالطعام، ما لذ وطاب من مطابخ «كوك هارديبه»، لأن الوجبة الواحدة تتألف من طبق أرز مطبوخ بالماء، ولكن في حالتنا هذه نجد ان طبق الحبوب أفضل من لا شيء. ان العائق الوحيد الذي يسببه قيد الشريط الشائك هو اننا نرغم على الوقوف طيلة الوقت، لأن واحدنا، إلاّ إذا كان الفقير

الهندي با . لوش . شي بشحمه ولحمه، لا يستطيع ان ينام فوق فراش من الأشواك المعدنية. ويعمد بيرو إلى انشاد المارسييز(*) لتبرير اضطراره للمكوث واقفاً.

إلا انه لا يحفظ إلاّ المقطع الأول، وبما انه انشد هذا المقطع أربع عشرة مرة على التوالي، ينتهي به الأمر إلى التزام الصمت. ولا يوضع الرجل المكلف بحراستنا هذه المرة في الممشى بل داخل زنزانتنا. إنه يجلس مفرشخاً فوق كرسيه وبندقيته الرشاشة في متناول يده، يدخّن ويرمقنا بنظرات يقظة لا تتعب. وهذه المرة أقول في سرّي اننا نحتاج لأكثر من معجزة لانقاذنا مما نحن فيه. وما يحيّرني هو انهم لم يعمدوا حتى الآن إلى استجوابنا. إذاً لماذا تكبد هؤلاء السادة عناء اقتيادنا من فرنسا البعيدة إلى هذا المكان؟ أما زالوا يأملون بأننا سنطلعهم على المكان الذي يختبىء فيه لورمون؟ وان لم أكن مخطئاً في حساباتي، ثمة عصابتان تشتركان في العملية. عصابة كوينسي وعصابة الرجل الأبيض. ويبدو ان إيفا لعبت لعبة مزدوجة. فقد خدعت كوينسي حين أنقذتنا من المدفن واقتادتنا إلى هنا. إلاّ إذا كانت تعمل وفق مخطط آخر لا نزال نجهله. كل شيء يلفه السر والغموض، وبما ان ريري لا يكف عن التذمّر والشكوى، أقول له بأن لا يفقد الأمل.

ـ اسمعني أيها الفتى، كان باستطاعة هؤلاء الناس الطيبين ان يقتلونا منذ البداية. وإذا كانوا لا يزالون يحتفظون بنا كرهائن فهذا يعني اننا نمثل في نظرهم فائدة ما، إن لم تكن

(*) النشيد الوطني الفرنسي.

فائدة أكيدة. والحال ان لا أحد يقامر باتلاف الأشياء ذات الفائدة.

يهز بكتفيه فيتعرّض لبعض الوخز المؤلم من شريطه الشائك.

ـ كل ما تقوله يا حضرة الكوميسير ليس إلاّ من قبيل ذرّ الرماد في العيون.

تمضي ساعة ونحن في هيئة الأضاحي تلك، وعندئذٍ تدخل عزيزتنا إيفا في زي الالهة ديانا إذ ترتدي بنطال فروسية أبيض وقيمصاً حاسر المقلبين يبرز مفاتن مقدّمتها. يداها مدسوستان في جيبيها وتقف منتصبة على ساقين مرمريتين قويتين وترمقني مبتسمة. شعرها الأشقر معقود عند مؤخر رأسها بشريط من المخمل الأسود. ولو ترون ما أرى، أيها الرفاق، لراودتكم الرغبة في الالتحاق على الفور بالفرقة الأجنبية أو لأصبتم بطفح جلدي يدغدغ أبدانكم.

ـ يا لك من فاتنة، يا حشيشتي، أقول لها بأرقّ ما أملك من نبرات. إن العذاب من يدك بات متعة.

ـ أحقاً؟ تقول الفتاة وهي تقترب من سان . أنطونيو الفاتن، الرجل الذي لا تقوى ألواح التصفيح على مقاومة إغوائه.

ترمقني بنظرات تصيب فيَّ مقتلاً وتهمُس:

ـ حتى في مظهرك كشهيد، لا بأس بك على الإطلاق.

ـ شكراً. ولكن كم أود ان يكون لي مظهر ملاك.

تدني الصبية فمها من فمي، وكما أقول صدقاً لا بهتانَ فيه، وتروح تمتص شفتيَّ عبر الأسلاك الشائكة.

ـ من بعدك، إذا تبقّى لي شيء! يزعق بيروريه.

تطول القبلة وأحسّ بأن شيئاً ما يطول أيضاً في نصفي الجنوبي.

ـ ولكن قولي لي، يا عزيزتي، أتمتم قائلاً حين تطفو على سطح المياه بسبب الأوكسيجين لأنه ضرورة للحياة البشرية، أما كان عليك ان تأخذي في الاعتبار انني مكبل بأسلاك شائكة من أسفل قدمي حتى قمة رأسي. وان فعلة مثل هذه من شأنها ان تترك قلبي مُشلّعاً فوق أسنة الأشواك المعدنية؟

يروق لها كلامي فتعاود الكرة. ولكن هذه المرة خدمة كاملة، لزوم ما يلزم من الألف إلى الياء.

ـ إذا كنت لست من النوع الذي يستهويها، يزعق المنتفخ، فهذا يعني ان المشهد مجرد تقليد.

والحق يقال ليس النفخ في قربة مثقوبة، ما علقته. ان هذه الهندية الصغيرة تنتمي إلى قبيلة الألسنة الرشيقة. ولها تمام الغدد الممتصة والأسنان الملمّعة بمعجون «سوبر كولغايت»!

ولكن فجأة يحدث ما يفقدني حماستي. إذ تعمد ابنة السفلة إلى عضّ شفتي السفلى حتى النزف. فيعيدني الألم إلى الحياة الدنيا دون وسيط.

ـ يا لك من لبوة! أقول ماسحاً شفتي المصابة بلساني.

فيتملكها ضحك هستيري. ولو كنت ولي أمر الفتاة لعرضتها على أخصائي بالأمراض العصبية ولا بد ان التشخيص سيشير إلى خلل ما في دماغها.

- والآن، ستنضم إليكم رفقة جديدة! تقول.

وتستدير عائدة أدراجها في اتجاه الباب. ولا أتمالك نفسي من تأمل مشيتها المتراقصة وقامتها الرشيقة المثيرة. وتشير بيدها فيدخل شابان أسمران يجرّان ثالثاً، ويرميان به، برعونة، فينطرح فوق الأرضية. كمّادات مبللة بالدماء تغطي رأسه ويديه وأصابعه.

وإذا كنت أقول كمّادات ففي الأمر الكثير من المبالغة. والحقيقة انها مجرد خرق قديمة ربطت كيفما اتفق حول الجروح لإيقاف النزف. وعلى سحنة الوافد الجديد شحوب الموتى.

يمكث طريح الأرض لا يحرّك ساكناً. أنفاسه متقطعة وتسري في أوصاله ارتعادات قصيرة متلاحقة.

أحسب انه شهد جلسة مما لا يشتهي المبغضون: هراوات ومطاحن لحم وأسواط ذات تسعة أوتار وحجارة ملح.

- حاولوا ان تستمتعوا في إقامتكم معاً! تقول هذه السافلة إيفا وهي تغادر.

- ومن يكون الوافد الجديد؟ يسأل بيروريه.

- لا أدري أيها الولد!

- يبدو لي انه أمضى وقتاً عصيباً. فلا شك ان ما كانوا يودون قوله له لم يكن من طراز «لن أرميك بالبودرة»!

أحدّق بإمعان في الوافد الجديد. ويتراءى لي انني رأيته من قبل. ثم فجأة يحرّك أوصاله ويكشف عن وجهه المتضرر فأدرك جيداً: انه لورمون!

هل قرأتم جيداً! لورمون بشحمه (المفروم) وعظمه (المشعور). وللوهلة الأولى، اختلط عليَّ الأمر. وما لم أدركه على الفور ليس سبب وجوده هنا، بل سبب وجودي أنا. فما دام هؤلاء قد أمسكوا بلورمون، فماذا يريدون مني، منا جميعاً؟

ألديكم أدنى فكرة، أنتم، على خلاف عادتكم؟ لا، بالطبع! ولا بد أن أول استنتاج تتوصلون إليه ذلك اليوم، سيكون يوم السعد والهناء. ولكن هذا الاحتمال أشبه بتربيع الدائرة أليس كذلك يا أولادي؟ ما ان تتبادر إلى أذهانكم خاطرة حتى يشملكم التظاهر بالحذاقة. وأي خاطرة تكون! من صنف البضائع الكاسدة، تصفية أسعار، بالطبع. أفكاركم ـ وأرجو ان لا تكونوا من المتوهّمين بهذا الشأن ـ أشبه بسيارة أميركية قديمة. حتى لو وهبها صاحبها مجاناً لا يجد من يرغب فيها. ولا حتى جامع الخرق، أو بائعة تذاكر الكرمس الخيري الذي تقيمه الأبرشية. حتى في قصر صناديق النفايات تبدو لا طائل من ورائها ويتجشم الزبّالون مشقة لا توصف في نقلها إلى المكتبّات العامة. ما لديكم داخل رؤوسكم أشبه بالشرائط اللاصقة قاتلة الذباب وليس الأدمغة المتعارف عليها، هذه هي الحقيقة. الجو خانق في الداخل وترهات الحياة اليومية ترسب وتتعفّن. كل الشعارات والمفاهيم التقليدية والتصريحات الرسمية وكلام الهراء، تلتصق بأدمغتكم كما تلتصق العلكة بطقم الأسنان المستعارة.

رأسكم يشبه جراب مكنسة كهربائية بعد الاستعمال. انه محشو بعبارات من قبيل: «أفهمك جيداً»، و«أحبك يا عزيزي»، محشو «بحمرنات صبيانية» و«بترهات صحفية»، وغيرها غيرها من الحماقات العادية.

لا، لا أعلم ما الذي يريدونه مني. فحتى هذه اللحظة لم يكفّوا عن سؤالي عما إذا كنت أعرف مكانه. والحال ان لورمون في قبضتهم.

يسيطر صمت عميق متطاول. يستند فرنسوا لورمون بمرفقه محاولاً رفع جذعه، ويفلح بعد مشقة لأنه مكبّل المعصمين والقدمين.

ـ إذاً، يا سيد لورمون، أقول له، أنت مدعو معنا إلى هذه الحفلة في الهواء الطلق؟

ـ ماذا! أهذا هو لورمون! يثغو بيرو. منذ بعض الوقت ونحن لا نسمع إلاّ به فربما عمدوا إلى اطلاق سراحنا الآن.

ـ ماذا جرى لك؟ أسأله.

فتصدر عن الصناعي الموقّر شكوى مصحوبة بالأنين، وهو أمر مؤسف حقاً ان يصدر ذلك عن رجل لم يصدر عنه من قبل سوى الشيكات المضمونة الأرصدة.

ـ لقد أفقدوني الوعي في غرفتك في كورشوفيل. ادعوا أنهم من رجال الشرطة.

ـ وبعد ذلك؟

ـ كانت الرحلة طويلة. لقد جاؤوا بي إلى هذا المكان،

وشرعوا في تعذيبي. الأوغاد! لن أستطيع ان أصف لك فنون التعذيب التي مارسوها عليَّ! أشعر بأن جسدي ليس سوى جرح فاغر كبير!

ـ ولمَ سوء المعاملة هذا؟ اسأل.

لا يجيب.

ـ لابتزاز أموالك؟

ـ لا، ليس هذا بالضبط.

ـ إذاً؟

الصمت مجدداً. يبدو لورمون على وشك الإغماء.

ـ ألا تثق بي؟ أقول بإلحاح.

يبدو متردداً. وله كل الحق بعد المعاناة التي كابدها ان يفقد الثقة بعبقريتي البوليسية. ولكن ما العمل؟ يحدث لي ان أخطىء فأنا لست الحبر الأعظم. ففي كل المهن يُصادف مزاولوها الصعوبات واحتمالات الخطأ.

ـ في حالتي هذه، يقول هامساً، ما عاد الأمر مهماً على الاطلاق.

ويتنفس ببطء فأخلص من حرصه هذا إلى الاستنتاج بأنه يُعاني من بعض الكسور في أضلاعه.

ـ أنت تعلم ان مصانعي مجهزة بمختبر للأبحاث النووية.

عجباً، لماذا لم يذكر العجوز شيئاً بهذا الشأن؟

ـ وقد عمل فريق من المهندسين التابعين لأجهزة الدولة في

هذا المختبر تحت اشراف البروفسور «كلافوتي» بهدف انتاج سلاح حراري ثابت مختلط ويتم تشغيله الكترونياً ويتميز بطاقة تدميرية هائلة!

ـ وما يريده هؤلاء السفلة هو السلاح؟

ـ طبعاً.

ـ وقد عمدوا إلى تعذيبك للحصول على التصاميم؟

ـ أجل. لقد وضعت التصاميم في نسختين. النسخة الأولى محفوظة في وزارة الحرب، والأخرى ضمن ملفات التجمع الصناعي الذي امتلكه.

وينحني فجأة. ومَن يعرف النفس البشرية جيداً (وأزعم انني من بين مَن يعرفونها) يعلم ان مثل هذه الانحناءة ذات مغزى.

ـ يا سيد لورمون، اسأله، لقد أرغموك على الكلام، أليس كذلك؟

ـ للأسف!

ـ بحيث انهم سيفلحون في الحصول على التصاميم؟

ـ لقد حصلوا عليها!

فانبرى الغضب البيروري مُستشيطاً.

ـ يا لك من قرد عجوز! انظروا إلى هذا الرأس المتورم! من يُصدق ان الدولة تودع أسرارها في مثل هذه الأدمغة الفاسدة!

ـ كم أود لو كنت في مكاني! يقول فرنسوا لورمون معترضاً.

ـ وأنا أيضاً كم كنت أود لو تراني في مكانك! تجيب الكرة الغاضبة. بإمكاني ان أعطيك بعض الدروس الليلية في الشجاعة وقوة البأس! آه! يا للأثرياء المتكرّشين، يزاود بيرو الديمقراطي، ما ان يروا نملة تسعى حتى يقفز أحدهم فوق الطاولة مستجيراً بوالديه! ولا داعي لبذل الجهد الكبير في استدراجهم لإفشاء الأسرار!

ـ أصمت، أيها البدين! أقول آمراً. هكذا إذاً، يا سيد لورمون، لقد أصبح الاختراع بين أيديهم القذرة؟

ـ انه العار الذي سيلحق بي إلى الأبد! وان أطلقوا سراحي ذات يوم فسأطلق على رأسي رصاصة الرحمة!

ـ بواسطة ملعقة قهوة، هيا دعك من هذا! يقول الهائل هازئاً. يبدو لي السيد من طراز أولئك الذين يحسبون ان الموت لعبة صبيان!

أهمّ باستجواب لورمون، إلاّ ان وقع خطى في الممشى يتناهى إلى مسمعي فألزم الصمت. وإذا بالرجل البائس ينتحب من العار والألم أمام عيني بيروريه المقدام المحتقنتين.

أما بلواز فيعمد إلى كفكفة دموع المسكين بخرقة من الاستراكان.

يُفتح الباب بعنف. وإذا بهم يدخلون، إيفا والرجل الأبيض وبرفقتهما ثلاثة من المرتزقة المسلحين بالبنادق والكلابات.

ـ أطلقوا سراحه! تأمر إيفا مشيرة إليّ.

ويهرع المرتزقة لقطع الأسلاك التي تلفني. وسرعان ما أجد نفسي طليقاً.

ـ أصحبوه إلى الصالة! يقول الرجل الأبيض.

فيعلو زعيق البدين.

ـ ونحن ماذا سيحل بنا؟ لقد التهبت أقدامنا من الوقوف داخل هذا العازل المصنوع أصلاً لحماية العذراوات.

ـ كن عاقلاً! تغرّد إيفا.

ـ على الأقل احضروا لنا بعض الطعام. فطبق الأرز ليس أكثر من حبة شعير في حلق حمار!

ـ أنت من استخدم هذا التشبيه، وليس أنا! تقول إيفا مداعبة.

وتغلق الباب على أحلام السمين المليئة باللحوم المختلفة وأطياف الدجاج المطبوخ بألف طريقة.

تقتادني الثلة إلى حجرة فسيحة رائعة وقد جهّزت بمروحة ضخمة. ولا يلبث المرتزقة ان يدفعوا بي برعونة فأقع فوق السجادة وأعجب لسوء المعاملة التي يتعرّض لها رجل في مكانتي.

ـ ولكن، أخبروني أيها الفتيان، ألم يطّلع أحد منكم من قبل على أصول اللباقة؟ إني أحمل سمعة «بضاعة قابلة للكسر». يا

عزيزتي إيفا، ان حدث لي في المستقبل وافتتحت مؤسسة لنقل الأثاث، فلن أستخدم بالطبع أصدقاءك: ولو فعلت لكان الافلاس مصيري لا محالة!

ـ أطبق خطمك، يقول الرجل الأبيض برعونة، وأفتح أذنيك جيداً!

ـ قبل ان أفتح أي شيء، عليك ان تحلّ وثاقي. ان جسمي متصلب إلى حد يبدو معه مثل تمثال ابراهام لنكولن أول الفائزين في سباقات الألعاب الأولمبية!

ـ فك وثاقه يا ستيفنز، تقول «الأمازونية» الجميلة بلهجة نُصح.

ـ شكراً لك يا عزيزتي، كنت أعلم ان قلبك أرقّ من خس نيسان.

لطمة على الوجه تسكتني. كم يصعب العيش في هذه البلاد. وأكتم غيظي المتزايد. لو كنت طليق اليدين لما توانيت عن تلطيخ سحنته المغسولة بمسحوق «أومو» بلكمة أو لكمتين.

ـ سنبقيه مكبّلاً! يقول ستيفنز بلهجة قاطعة. إذ ليس بالامكان الاقتراب من هذا الشرطي اللعين إلاّ إذا أحلناه إلى مومياء!

ـ إنه مديح لي، أقول مؤكداً.

فيهز ستيفنز بكتفيه.

ـ أيها الكوميسير، يتمتم قائلاً، لقد حان الوقت لنجري حديثاً جدياً.

بوم! إنها اللحظة الحاسمة! لقد حانت ساعة الجد، لا أدري ماذا يتوقع هؤلاء، السادة مني ولكنني أعلم انهم لن ينالوا شيئاً مني ما داموا يستخدمون القوة. يا لها من توقعات! وصدقوني لو كانت لي ذرة من الحكمة لعملت في حقل تجارة أغصان السلام، فبهذه الطريقة أحظى بنحو ثلاثمئة وأربعة وستين يوماً من الاجازات في السنة الواحدة!

ـ هيا، إني لا أحب الانتظار، أقول، قل ماذا تريد. ولكن لا تقترب كثيراً من أذني: لأنها متسعة عميقة الغور وأخشى عليك من الدوار.

ـ نحن نملك تصاميم سلاح سري ونعلم ان حكومتك حريصة عليه!

ـ أعلم ذلك.

فيقطب مستهجناً.

ـ أوه! أحسب ان لورمون قد أطلعك على الأمر!

ـ لقد أسرّ إليّ متلعثماً، بلى. والكلام في سرك وسر بائع كريات النفتالين عند ناصية الشارع، لقد أذقتموه الأمرّين، هذا الأرعن البائس!

فتصدر عنه ضحكة صفراء.

ـ ثمة مثل شعبي يقول انك لا تستطيع صنع العجّة دون ان تفقس البيض!

ـ ولكن قل، أقول مقاطعاً، لمناسبة ذكر عجّة البيض... إن معدتي تصفر.

ـ لنعد إلى موضوعنا!

ـ أحسنت، ماذا كنت تقول، أيها الوغد العزيز؟

يتململ، ويحرك حذاءه. كم يرغب في تسديد ركلة جزاء إلى سحنتي، ومع ذلك لا يفعل.

ـ كنت أقول ان تصاميم هذا السلاح السري بحوزتنا وثمة بلدان أجنبية كثيرة قد تدفع مبالغ طائلة في سبيل الحصول عليها، ألا تعتقد؟

ـ بلى، بعض الشيء.

ـ سوى اننا، يُردف ستيفنز قائلاً وبجدية تامة، ننتمي إلى صنف من الناس يتمتع بإحساس وطني مرهف، يا سيدي الكوميسير، ولذلك نفضل ان نبيع هذه التصاميم مجدداً لفرنسا.

لا أحرّك ساكناً.

ـ أسمعتني؟

ـ سمعتك جيداً. وما الذي تتوقعه مني؟ ان أُنشد لك المارسييز أو أُقلّدك وسام جوقة الشرف؟

فيمط شفتيه هازئاً.

ـ ما أرجوه فعلاً أكثر تعقّلاً ويتم في الخفاء، يا حضرة الكوميسير.

ـ لعلها رزمة من الأوراق النقدية؟

ـ بالضبط.

ـ كم؟ أسأل، كأن من صلب صلاحياتي ان أوقع له فوراً على حوالة مصرفية.

ـ الحسابات المصرفية هي التي تمتلك الكلام الفصل، تقول إيفا ممازحة.

وتمد يدها وتداعب خدي.

ـ نريد مليون دولار، يا صديقي العزيز.

ـ هذا ليس ما أسميه رقماً، بل أشبه بمدرجة كريات.

ـ وينبغي ان يُدفع في غضون ثلاثة أيام، وإلاّ اضطررنا للمساومة مع جهات أخرى.

تبدر مني كشرة خفيفة، طراز التكشير الشائع في اعلانات مُليّن المعدة «بيدولار».

ـ ولِمَ وقع اختياركم عليَّ، أنا بالذات، لاطلاعي على هذا الأمر، يا أحبتي؟ أمِن قبيل الندم وإراحة الضمائر المعذبة؟

ـ إنها فكرة إيفا، يقول ستيفنز، وستشرحها لك.

ـ إذاً، تقول الفتاة الجميلة، كما ترى يا سان أنطونيو، لقد خطر لي انك المبعوث المثالي لإتمام التفاوض حول هذا الأمر... الدقيق!

فتنبعث سحب الدخان الأسود من كل فوهة من فوهات وجهي وأزعق قائلاً:

ـ أستميحك عذراً، أيتها البارونة، ماذا؟

ـ ليس بإمكان الحكومة الفرنسية إلاّ ان تصغي بالاهتمام

المرتجى لأحد أفضل موظفيها وأكثرهم شهرة. لقد رأيت لورمون بأم عينيك وتعلم جيداً انها ليست خدعة. وتعلم أيضاً اننا في مأمن كامل من كل ملاحقة، لأننا نقيم الآن فوق أرض أجنبية. كما لا بد انك لاحظت قوة تنظيمنا وفعاليته. باختصار، ليس عليك إلاّ ان تذهب لتصف ما رأيته على أعلى المستويات وتطالب بالمليون دولار مقابل التصاميم.

ـ ملاحظة في السياق، يقول ستيفنز مقاطعاً، نريد المبلغ بالدولار فعلاً، وبأوراق من فئة العشرة دولارات على الأكثر.

ـ ومقابل هذه الفدية، سنعيد إليكم التصاميم أيها الكوميسير، تتابع إيفا الجميلة قائلة. وعلاوة على ذلك نقدّم لكم بمثابة جائزة إضافية: لورمون، ومفتشك البدين، وحتى ذلك الشقي بلواز إذا كنت تحرص على بقائه حياً. إنه عرض لا غبار عليه، أليس كذلك؟

ـ إنها جائزة، لا بل صفقة، أقول هازئاً.

وأردف قائلاً مقلداً صوت البائع الدوّار:

ـ لكل من يرغب في شراء سلاح ذري، أمنحه علاوة على البيعة: صانعه وهذا واحد، شرطي بدين وهذا يساوي اثنين، وصعلوك ذو قلب طيب وهذا يساوي ثلاثة. ولكي أثبت لكم انها صفقة العصر أضيف إلى الصفقة هذا القلم. غطاؤه مكسوّ باللكّ، تعبئة أوتوماتيكية، وريشة من الذهب عيار ١٨ قيراطاً.

أنتما ظريفان جداً حتى اني حين أنظر إليكما تتملكني الرغبة في ان أسير في ركب أول جنازة أصادفها لكي أستعيد شيئاً من وقاري!

ستيفنز ينهمك بتقليم أحد أظافره ويقول دون ان يلتفت نحوي:

ـ إن مزاجك التهريجي يضلّلك أيها الكوميسير. وتذكّر جيداً انك إذا رفضت هذه الصفقة فسنجري المساومة مع جهات أخرى: ليس لنا إلاّ ان نختار، وفي هذه اللحظة بالذات هناك اتصالات تجرى بأطراف أخرى. وأن فشلت المفاوضات مع فرنسا، فسيكون علينا ان نتخلص من أصدقائك الأعزاء، من لورمون و... و.. ومنك أنت أيضاً!

ـ إن ذلك ليكون أمراً مؤسفاً حقاً، أقول متنهداً، أعرف على الأقل مئة وستاً وأربعين امرأة جميلة قد يفقدهن هذا الأمر صوابهن.

وأفكر مليّا في كل هذا.

سان أنطونيو وكيل مبيعات لوثائق مسروقة! سان انطونيو ـ عزيزكنّ سان أنطونيو يا جميلاتي ـ في حلّة بائع جوّال لصالح شبكة تجسس، إنها بدعة، أليس كذلك؟

ـ لست مُرغماً على القبول، يردف ستيفنز قائلاً بلهجة ماكرة. فما ان تقول لا حتى ينجز رجالي ترتيبات الحفرة الواسعة التي ستتسع لأربع جثث.

أعلن حالة الطوارىء في ذات نفسي وأستدعي ملكاتي الذهنية كلها للتشاور. ما الذي قد يفعله كوميسير في وحدة العمليات الخاصة في مثل هذه الظروف؟ ان يحفظ كرامته ويتلقى بالتالي ما ينصل جنبة دماغه الخلفية بواسطة سلاح مصنوع ببراعة فائقة في مصانع «سانت ايستيان» للأسلحة

النارية؛ أو على العكس من ذلك، يقبل المهمة ويمكث حياً ليرى ماذا سيحدث فيما بعد؟ مما لا شك فيه ان الخيار الثاني هو الأصوب، أليس كذلك يا أصدقائي الأعزاء؟

ـ إذاً، ما جوابك؟ يسأل ستيفنز بفظاظة.

ـ أجل يا سيد، اني أقبل المهمة.

وإذا بهما، الرجل الأبيض وايفا، يتبادلان النظرات.

ـ ولكن هلاّ أعطيتماني ما أمضغه فأنا أشعر ان العالم أصبح خواء لشدة جوعي.

ـ سأحضر لك سندويشاً، تقرّر إيفا. بلحم البقر، أيفي ذلك بالأمر؟

ـ طبعاً، كما تفي ورقة التوت بعري آدم، يا صديقتي الرقيقة. سواء كان طعمه أقرب إلى لحم الزرافة المزكومة أو النبات العفن، سأجده لذيذاً حتماً. إذاً. ما هي خطة التحرك؟

ـ أعيدك إلى فرنسا بواسطة الطائرة. وسنهبط فوق مطار خاص. سنعصب عينيك وتقلك سيارة إلى باريس. ستقابل رؤساءك وتعرض عليهم نسخة مصوّرة طبق الأصل عن المستندات لكي تثبت لهم اننا نمتلك هذه التصاميم.

ـ وبعد ذلك؟

ـ وبعد ذلك تنتظر ريثما يدفعون المليون دولار.

ـ وماذا سأفعل بمصروف الجيب الضخم هذا؟

ـ ستضع المبلغ في حقيبة حمراء.

ـ ولِمَ حمراء، هل أنت من مواليد برج الثور؟

ـ كفّ عن ترهاتك أيها الكوميسير. تحمل هذه الحقيقة وتستقل باصاً في اتجاه نيس.

ـ باصاً في اتجاه نيس! أنت تعلم ان هناك رحلات منتظمة بالطائرة...

ـ افعل ما نقوله لك! ما نقوله لك وحسب! واذكر جيداً ان أي تلاعب من جهتك سيترتب عليك فقدان فرنسا تصميم السلاح السري إلى الأبد، بالاضافة إلى جنازة عاجلة لأصدقائك، مفهوم؟

ـ مفهوم!

الفصل الثالث عشر

ربما تحسبون، بعد اختفائي الغامض هذا، ان العجوز حين سيراني مجدداً سيضمني بين ذراعيه منتحباً ويُقبل ثغري الناجي؟ إذا كان هذا حسبانكم فأنتم ترتكبون خطأ فادحاً أيها الصحب!

ـ آه! هذا أنت! أين كنت؟

تماماً كما يُستقبل مستخدم تأخّر عن دوام عمله.

ـ في الجحيم، أيها الرئيس، أجيبه متمالكاً نفسي، والأدهى من ذلك هو انه ينبغي ان أعود إليه مجدداً!

أجلس دون ان أدعى إلى ذلك وبرويّة، أنتقي كلماتي كما تنتقي ربة البيت حصى العدس لكي لا يكسر زوجها طقم أسنانه أثناء تناوله للنقانق المطبوخ على الطريقة «التولوزية»، ملخصاً له تفاصيل ما حدث يصغي شاحباً ومداعباً صلعته المدبّبة. وحين أنهي كلامي يلزم صمتاً مُطبقاً.

ثم يرفع الحليق سماعة الهاتف ويطلب وزارة الحرب (بالانكليزية War Department).

ـ لقد دُمِّرت تدميراً كاملاً، يتمتم قائلاً، فيما عامل البدالة يحاول وصله بالوزارة. هذه المرة يا سان ـ أنطونيو، مصيرنا الطيران، أنا وأنت.

يتم الاتصال أخيراً ويجري المحادثة مع الأجهزة المختصة. وينظر إليّ العجوز ويقول بعد ان غطى أسفل السماعة بكفه:

ـ إنهم يؤكدون بشكل قاطع: لم تسرق أية واحدة من نسختي التصاميم!

ـ وهذا، أقول مشيراً إلى النسخ المصورة التي أعطاني إياها ستيفنز، هل تحسب انه حساء الدجاج؟

في ظروف مختلفة ما كنت لأجرؤ على مخاطبة العجوز بمثل هذه اللهجة، ولكن في حالته هذه، قد أصفه بالمأفون المتصابي دون أن ينتبه.

ـ سأصل على الفورا يقول مخاطباً رئيسه.

يقفل الخط ويحمل الأوراق وينهض.

ـ موعدنا هنا بعد ساعتين، يا سان انطونيو. سأحاول ان استوضح هذا الأمر.

ـ أرجو ان تثمن الكنيسة جهودك، أقول هازئاً قبل ان أغادر.

* * *

ساعتان تكفيان لأعرّج على فيليسي ريثما أطمئنها إلى حالي. وما ان تراني يبدأ ما يشبه الاحتفال. فأقول لها انني مكلّف بمهمة شاقة وانني سأغادر على الفور ريثما أبدّل ثيابي.

أعود إلى مكتب الرئيس فأجده هناك يذرع الأرض جيئة وذهاباً، لا بل يدور حول نفسه كأنه قرد في قفص ينتظر من يرمي إليه بحبيبات الفستق.

ـ إذاً يا حضرة المدير، ما الذي جرى؟ اسأل بحذر.

ومغتماً يجيب:

ـ لم تسرق التصاميم بل تم تصويرها، أي كأنها سُرقت. لقد اتبع اللصوص هذه الطريقة لكي لا ينطلق الانذار الفوري. الأمر الذي أفسح لهم في المجال للعمل بحرية شبه تامة!

ـ وما قرار الجهات العليا؟

ـ الامتناع عن دفع الفدية، يقول العجوز بلهجة قاطعة.

تراودني صورة بيرو العزيز وهو يتلوى داخل الأشواك الشائكة على بعد أميال من هنا.

ـ ولماذا؟

ـ من الواضح ان هؤلاء الأوغاد سيحاولون القيام بلعبة مزدوجة، يتمتم الرئيس. ذلك ان الكليشيه الفوتوغرافي يوفر لصاحبه عدداً لا يحصى من الصور. ولا بد انهم في هذه الأثناء يساومون جهات أخرى! أخشى ما أخشاه ان نكون خسرنا كل شيء، بما في ذلك كرامتنا يا سان انطونيو.

أضرب بقبضتي على مكتبه الفخم.

ـ لم نخسر شيئاً بعد، أيها الرئيس!

فيرفع جبينه المجعّد مثل لافتة نيون.

ـ إني لا أعترف بالهزيمة بمثل هذه البساطة، أقول.

ـ وماذا تستطيع ان تفعل؟

ـ سأتابع اللعبة. سأعود إلى وكرهم وسأحاول ان أسحق هذا الجحر كما يُسحق جحر الأفاعي!

ـ إنها مجرد كلمات! أذكر جيداً انهم يقيمون الآن فوق أراضٍ أجنبية وانك لا تعلم حتى أين تقع هذه الأراضي.

ـ سأعثر عليها.

ـ لن أستطيع شيئاً لأجلك.

ـ بلى. بإمكانك ان تطلق يدي كلياً في ما قد أفعل!

ـ في مثل هذه الحال، لك ما تريد!

ـ حسناً. سأغادرك أيها الرئيس. إن رأيتني مجدداً في هذا المكتب فهذا يعني انني أنجزت المهمة وإلاّ فستصلك استقالتي الخطية... أو إخطار بالوفاة!

وأغادر.

غرفة مكتبي تبدو مهملة، كأنها هُجرت منذ وقت.

أينبغي ان أقول وداعاً لهذه الحجرة التي طالما فاحت في أرجائها عطور نجاحاتي (ومعها، تلك الروائح الحرّيفة التي

تنبعث من قدمي بيرو)؟ لا وألف لا! من يستحقون الحياة هم الذين يناضلون من أجل الحياة، قال فيكتور هوغو (الذي كان يكتب بريشة من نصل خنجر).

ولم أكد أنجز توضيب حقيبة على طريقتي الخاصة، حتى طالعني بينو داخلاً من الباب. فأجد المثير للشفقة منهمكاً بأداء شاق بالفعل: إنه يلعب لعبة كرة القرن.

ويبدو لي في طقمه البني المزيح بالأخضر والأبيض أشبه بنوع من المثلجات الايطالية. ويرتدي قميصاً ذا ياقة منشاة وربطة عنق خضراء، وجوربين أحمرين وحذاء يميل إلى الأصفر الغامق.

ـ أوه! صباح الخير، يُرغي العائد من الموت. لم نرك منذ أمد بعيد، أين بيرو، أليس برفقتك؟ لقد اهتديت إلى حانة حيث البوجوليه من أفضل ما يكون.

يرمي الكرة ويخفق باستعادتها كما ينبغي، يُعيد الكرة ويخفق مرة أخرى.

ـ هلاّ كففت عن تمريناتك العضلية، أنت هناك، يا مولاي هنري الثالث! أقول زاعقاً.

ـ انه تمرين جيد لتركيز الأفكار، يشرح المصاب بفقر الدم. فقد قرأت شيئاً من هذا القبيل في إحدى المجلات.

ويعاود الكرة. ومتمادياً في غضبي أتناول المقص من حقيبة الجلد الصغيرة وأقطع الخيط الذي يربط الكرة بالمقبض. يعترض

بينوش بشدة على اتلاف المعدات ولكني آمره بأن يصمت وبما انه رجل مطيع يبتلع ما تبقى لديه من عبارات الشكوى والتذمر.

ـ لا أصدق فعلاً ما أراه، أقول له مؤنباً، لا أصدق انك منهمك بلعبة كرة القرن في الوقت الذي يكابد فيه بيروربيه العزيز خطر الموت على بعد آلاف الكيلومترات.

ـ ما الذي تقوله؟ يقول الحطام متلعثماً.

أشرح له الموقف، فيقطّب متوجساً.

ـ يجب ان نفعل شيئاً يا سان ـ أ.

ـ هذا ما انتويه فعلاً، أيها العبد الرفيق!

ـ وماذا ستفعل؟

ـ سأملأ حقيبة مزيّفة بالأوراق النقدية المزيفة التي صودرت في قضية «مايرمان» وسأستقل الباص قاصداً مدينة نيس، تماماً كما قيل لي أن أفعل.

ـ وبعد ذلك؟

ـ بعد ذلك؟ هنا بيت القصيد، هنا السر في هذه القضية.

ـ سأرافقك! يقول بينوش بلهجة قاطعة.

أنظر إليه. أرى عينيه دامعتين، يا للسامريّ الطيب. ثم يرتعش قليلاً و...

ـ ينبغي استئذان الرئيس أولاً، أقول متنهداً.

ـ ان رفض سأتقدم باستقالتي!

ـ لقد قدّمت استقالتك ذات مرة وقبلت، ولم تتم إعادتك إلى الخدمة إلاّ منذ وقت قصير، يا بينوش. حاول أي طريقة أخرى تتيح لك البقاء في السلك.

يهز برأسه.

ـ السلك لا يعود سلكاً من دون بيرو ومن دونك. ما يجذبني إليه هو طابع الأسرة الكبيرة. وما ان تتغيبا حتى أشعر انني وحيد في ميتم.

إنه بينوش الطيب! وله كل الحق بأن يحظى بمودّتنا، وبتقاعد الموظفين والتحية الجنائزية في الختام! أرفع سماعة الهاتف الداخلي واطلب مكتب العجوز.

ـ ما الأمر مجدداً؟ ينبح قائلاً.

ـ أود ان تسمح لي باصطحاب بينوش يا سيدي المدير.

ـ اصطحب الحبر الأعظم إن شئت! يجيب الأصلع قبل ان يقفل الخط بعنف.

في الحقيقة لستُ ممن تروق لهم صحبة الأحبار. وأرى نفسي لوهلة في صحبة البابا بولس السادس في الباص الذي يتجه نحو نيس. وأدرك كم أفضّل رفقة بينوش.

ـ قضي الأمر، أقول. ستستقل الباص بمفردك متظاهراً بأنك لا تعرفني وستختار مقعدًا في مؤخر العربة وتحرص على مراقبة حركات وسكنات جميع الركاب، أوكي؟

ـ أوكي، دع الأمر لي.

ـ خصوصاً لا تحاول ان تغفو. في العادة يستبد بك النعاس ما ان تصعد إلى سيارة أو قطار.

ـ أنام حين لا يكون لدي ما أفعله يا سان انطونيو، وأنت تعلم ذلك جيداً.

ـ حسناً. احمل سلاحاً، فالليالي باردة وقد تواجهنا متاعب جمّة.

يدنو من درج مكتبه ويسحب منه مسدس «بارابلو» طويل أشبه بعظمة فخذ خروف.

ويدسه تحت حزام بنطاله وعلى الفور، نظراً لوزن المسدس، يُصاب بالتواء في العمود الفقري.

وما ان نهمّ بمغادرة المكان حتى يدخل علينا مونييه، أحد تقنيي المختبر، وعلى سحنته معالم بهجة.

ـ مرحباً يا حضرة الكوميسير! كيف النشاط؟

ـ على أفضل حال، أقول مؤكداً ومنطلقاً من مبدأ مفاده ان التفاؤل خير من التشاؤم.

فيتوقف قليلاً ويرفع صندوقاً من الكرتون كان يحمله تحت ذراعه:

ـ إن سمحت لي بدقيقتين من وقتك فسأريك هذا الشيء الهائل الذي سيوضع في الخدمة في قسمكم.

ـ لا أملك دقيقتين من وقتي يا مونييه.

ـ إذاً، ندعها لمناسبة أخرى. إنه عبارة عن جهاز إرسال فردي. مع لاقطات مصغر...

فأحسب ان لا وعيي العميق هو الذي يأخذ المبادرة حين أجيبه:

ـ أرني قليلاً!

مبتهجاً يفتح مونييه صندوق الكرتون. وفي داخله أرى زوجاً من النظارات الشمسية وقلمي حبر.

ـ ينبغي ان تلمس باصبعك لتصدق؟ أليس كذلك.

ـ اشرح لنا.

ـ تضع قلم الحبر في جيب سترتك، وهكذا: إنه اللاقط. ثم تضع النظارة فوق أنفك، هكذا: إنهما السماعتان.

ـ ثم ماذا؟

ـ ثم يفعل شخص آخر ما فعلته أنت. ويحمل كل منهما بطارية صغيرة في جيبه، وعندئذٍ يمكنهما التخاطب عبر مسافة تبلغ الخمسمئة متر. وسترى بنفسك.

يضع النظارة فوق أنفي والقلم في جيبي ويبتعد.

ـ أتسمعني؟ يتمتم بعد ان غاب عن أنظاري.

ـ أسمعك جيداً. انه أمر رائع.

ـ لا داعي للتحدث بصوت عالٍ يا كوميسير، همسة تكفي...

فنتبادل بعض العبارات أمام أنظار بينو المذهولة ثم يعود مونييه إلى الغرفة.

ـ أرأيت يا حضرة الكوميسير، مقدار فعالية هذا الجهاز في مهمات التعقب والمطاردة مثلاً؟ وسط الزحام، في أحد المخازن الكبرى، في...

ـ في باص، أقول مقاطعاً، أجل، أنت محق، إنه مُقنع جداً. مقنع لدرجة انني سأستعيره منك لبعض الوقت.

فيمتقع مونييه.

ـ هيه! دعك من المزاح، إنها مجرد عينة للاختبار ولا تزال ملك صانعها.

ـ سيان عندي. إن هذا الجهاز هو ما احتاجه بالضبط، أيها المغفل.

ـ أرجو المعذرة يا حضرة الكوميسير، ولكن الأمر مستحيل!

ـ هاته وبسرعة. وسأضمن لك الغطاء القانوني على مسؤوليتي.

فيسلمني الأجهزة مُبرطماً. لا بد انه يكيل لنفسه اللعنات حسب أصول اللغة (واللعنات باللاتينية أشد إيلاماً).

ـ إسمع أيها الكوميسير، لا يجوز ان تفعل ذلك.

ـ والحال اني سأفعل.

ـ على الأقل وقّع لي تعهداً بعدم المسؤولية، وإلا، وقعت الواقعة على رأسي!

وفي الموقف الذي أجدني فيه أستطيع ان أوقّع له ما يشاء من تعهّدات.

وأغادره حاملاً هذا الاختراع العجائبي.

- هل فهمت؟ أقول مخاطباً بينوشيه. سيكون بإمكاننا ان نظل على اتصال مباشر خلال رحلتنا في ا لباص. وسيتيح لك هذا الجهاز ان تعلمني بكل شاردة وواردة دون ان تسترعي انتباه أحد. خذ: أحمل أحد الجهازين ولنفترق. وبدءاً من هذه اللحظة تصرّف وكأنك لا تعرفني!

* * *

دون ان يكون مكتظاً، إلاّ ان الباص المتوجه إلى نيس كان مزدحماً بكامل عدد ركابه تقريباً. وأنا، تعرفونني جيداً، أليس كذلك؟ إذا كان عليَّ ان اتجشم عناء مثل هذه الرحلة الطويلة نسبياً، فالأفضل ان أختار مقعدي إلى جانب راكب من الجنس اللطيف. وعلى الرغم من ان عددهن قليل جداً في هذا الباص، إلاّ انني أهتدي فوراً إلى فتاة رقيقة الطلعة ذات مظهر متواضع وترتدي معطفاً بياقة من فرو الأرانب. لها وجه طفولي عذب بوجنتين كلثوميتين وعينين ضاحكتين. ولو كان شيخ العيد أقل تزمتاً لوضع هدية مثلها في حذاء كل تلميذ مراهق صبيحة الخامس والعشرين من شهر كانون الأول/ديسمبر.

- أتسمحين لي يا آنسة؟ أهمس بصوتي الغزل عيار ٦٤ مكرر، الذي استخدمه عادة في حالات المراهقة المزمنة.

أضع حقيبتي فوق الشبكة وأجلس إلى جانب الصبية.

فترمقني بنظرات استحسان لها ما يبررها.

- إذاً، أصبحت في سن تسمح لك بالذهاب إلى مناطق الساحل بمفردك كما يفعل البالغون؟ أغرد قائلاً.

فترتسم ابتسامة قلق على شفتيها.

ـ إني في طريقي لزيارة إحدى رفيقات المدرسة، تقول بصوت خفيض.

أتفحص الجوار بنظرات عاجلة بحثاً عن امرأة في أرذل العمر ربما تكون رافقت هذه المراهقة الرقيقة إلى محطة الباص. ولكن لا شيء: لا أثر لأي امرأة ذات شاربين.

ـ إذا كانت رفيقة المدرسة جميلة مثلك أعطني عنوانها فقد يكون في ذلك فائدة ما!

فتكتم ضحكة كما يفعل فرخ الدجاجة الرومية.

ـ ولكن أخبريني، أقول واضعاً الساق على الساق، كيف حدث لك ذلك؟

ـ ما الذي حدث؟ تقول وصيفة الالهة حورية.

ـ جمالك؟ هل لأن السيدة والدتك قد أمضت عطلتها في اليونان أم لأن عرّابتك هي الجنية انجيليك؟

وفي تلك اللحظة أسمع نشيشاً مفاجئاً بين صدغي وصوت بينوش هامساً:

ـ قضي الأمر! لقد عثرت على شقيقة الروح يا سان ـ أ!

ـ وما خطبك أنت، أقول هامساً، هل أصابك حكاك الحسد، يا رفات البشرية؟

وأشعر بالرضى لاختباري الجهاز الجديد «ميدانياً» إذا جازت العبارة. وأدرك على الفور انه حقاً لاختراع من الطراز الأول.

ـ سوف تتعرض للاعتقال بتهمة التحرّش بقاصرا يجيب بينوشيه.

ـ لا أتعرض لمثل هذا الأمر إلاّ حين أكون برفقتك لأنك ما زلت في سن الطفولة! ما الجديد؟

ـ لا شيء يذكر.

ـ إذاً توقف عن الثرثرة، إذ يكاد صرير رغوك يمزّق أذني.

فيجيب بغمغمة أشبه بـ«إذهب إلى حيث ألقت» وبالفعل انصرف إلى حيث ألقت رفيقتي سحرها الطفولي.

أعتقد ان جيرودو هو الذي كتب ان أجمل شيئين in the world هما الفتيات الجميلات والريف. وصدقوني لم يكن رأس السيد المذكور فارغ الوفاض. ففي هذا الباص أدرك الآن جيداً كم كان على حق في عبارته. إلى يساري تجلس فتاة جميلة وإلى يميني ينسلّ مشهد الريف. وكم أشعر بالغبطة لجمعي المجد من طرفيه.

ـ إذاً، يا عزيزتي، أتروق لك الرحلات؟ أسأل رفيقة مقعدي.

ـ أحبّ الرحلات كثيراً.

ـ هل أنت من محبّذي التبادل المتكافىء؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ إن كنت من محبّذيه، أبادلك اسمك باسمي.

ـ أدعى هوغيت!

ـ جميل. يذكرني باسم «موغيه»، أوَتعلمين انك تشبهين زنبقة الوادي.

ـ أما أنت فتشبه باقة من الهليون! يقول بينو هازئاً.

إنها لدعابة حقاً، ان تتحدث إلى فتاة قرب جهاز تنصّت. فحين يهدل واحدنا بغزلياته الحرّى لفتاة جميلة لا يرغب على الاطلاق في ان يفعل ذلك أمام ميكروفون الـ بي.بي.سي، أليس كذلك؟

ـ وأنت، تسأل، ما هو اسمك؟

ـ أنطوان.

فتضحك.

ـ ما كنت لأصدق. عندما كنت لا أزال طفلة صغيرة كنت أملك حُقة(قجة) نقود في هيئة خنزير وكان يُدعى انطوان.

كلام ساحر، ألا ترون؟ كلماتها ذات وقع قد يجعل من كازانوفا أشبه بمهرج. وهناك عند مؤخر الباص، يحلس الهزيل مقهقهاً.

وحين أذكر انني كنت أخشى ان يغفو! كم أود لو انه يغفو الآن.

ـ كم عمرك، أيتها الجميلة؟

ـ ١٨ سنة.

ـ وماذا تفعلين بانتظار الـ ١٩؟

ـ لا شيء!

ـ إنه حلمي! أقول جازماً. لقد كان اساتذتي في المدرسة يؤكدون ان لي استعدادات هائلة لأن أفعل ما تفعلينه الآن، إلا ان القدر عاجلني بمصير مختلف.

ـ وماذا تفعل، أقصد ما العمل الذي تزاوله؟

ـ ممثل.

ـ وماذا تمثل؟

ـ الفرنسي النموذجي، يا صغيرتي.

تضحك وتقول:

ـ أعطني سيكارة!

ـ في مثل سنك! أقول باستهجان. ستجعلين من رئتيك أشبه بقاطرة الوقود في قطار.

أراهنكم بما شئتم أنها تحسب نفسها اليزابيت تايلور، هذه الصغيرة. إنها رحلتها الأولى، ولأول مرة تسمع مثل هذا الكلام المعسول الذي يغدقه عليها رجل جميل الطلعة كأبولون(*). ولا بد ان الأمر قد أيقظ كبرياءها. فألعب معها مشهد السجائر على طريقة غاري غرانت. حيث أشعل سيجارتين وأعطيها إحداهما.

ـ هكذا سيكون بإمكانك قراءة أفكاري، أقول.

وتجيب سريعاً وبالمثل:

(*) قد أكون أول من لاحظ هذا الشبه، ولا بد انني الوحيد.

ـ أطمئن، لن أصفعك!

يا لعذراوات هذا الجيل!

ـ إلى أين أفضت بك مخيلتك! أقول مؤنباً. إن أفكاري من الاحتشام بحيث يصلح طبعها في الكتب المدرسية بدل نصوص بسكال التي أصبحت قديمة بعض الشيء!

تضحك ثم تسألني بغتة:

ـ لماذا ترتدي نظارات شمسية في عزّ الشتاء. أتؤلمك عيناك؟

ـ لا، يا عزيزتي، ولكنها تشعرني بالدفء.

تمسّ ساقها ساقي. يا لها من فاسقة صغيرة! فأبادلها بلعبة اليد المداعبة وأسوّي حاملة جوربيها.

عندما وصلنا إلى «فونتانبلو» وجدتني ألعب معها مشهد الوداع بالقبل. وبمرورنا بـ «سانس»(*) (وربما بفعل الاسم) أعمق المشهد قليلاً. وباختصار ما ان نصل إلى «أوكسير» حتى نصبح، هوغيت والفتى الذي هو أنا، على حال من المودة والحميمية.

ـ استراحة لمدة ثلاثين دقيقة! يعلن السائق وهو يركن الباص أمام مطعم للمسافرين وسائقي الشاحنات.

ـ أدعوك لتناول شراب ما، يا جميلتي! أقترح عليها.

ـ حسناً!

(*) sens = حرفياً، حاسة.

ونهضنا مع بقية الركاب.

ـ لا تنسَ الحقيبة! يقول بينو في الجهاز. إن رجلاً يحمل مئات الآلاف من الدولارات لا يترك حقيبته فوق شبكة الحقائب.

كلامه ذهب، صاحبي الركام، أليس كذلك؟

فأحمل حقيبتي، فتبدي الفتاة دهشتها.

ـ ماذا تفعل، أتحمل حقيبتك؟

ـ دائماً بين وجبتين يا عزيزتي.

ـ إنه أمر غريب حقاً، ماذا وضعت فيها، ذهباً؟

ـ أثمن من الذهب: أموال نقدية! فأنا بائع جوال للأوراق النقدية من فئة العشرة دولارات، وأبيع الورقتين منها بعشرين دولاراً، إنها صفقة، صدقيني!

ندخل إلى المطعم. إنه ركن هادىء. أدوات من النحاس معلقة فوق الجدران والأثاث ريفي وستائر منزلية تغطي النوافذ، بالاضافة إلى رجل بدين، صاحب المحل، يزعق في وجه الجميع استعراضاً لسطوته.

ـ هيا يا عزيزتي، اجلسي فوق هذا المقعد بطريقة تلفت أنظار الرجال وتسرّب الخدر إلى أصابعهم!

تجلس محاذية وركي المفضل!

ـ ماذا تشربين: فنجان قهوة أم لعلك تفضلين بيضتين مسلوقتين؟

ـ أريد كوب شاي! ولن أرفض سندويشاً معه.

ـ وأنا أيضاً. ماذا تأكلين: رقائق لحم الخنزير أم رقائق فخذ الشرطي؟

ـ أفضل سندويشاً بالطماطم.

ـ سأذهب إلى المطبخ مباشرة لاستعجال طلباتنا. إذ يبدو لي ان المكان مزدحم بعض الشيء.

والحقيقة انني في عجلة من أمري للانفراد قليلاً ببينوش. فأغادر رفيقتي وأتوارى.

الفصل الرابع عشر

أوصي النادل بأن يحضر لنا طلبيتنا وأدخل الى غرفة المغاسل لبعض الوقت لكي أتمكن من التحدّث الى بينوشيه عبر الجهاز.

ـ أتسمعني، أيها الكهل! أهمس قائلاً.

صمت.

ـ هه! بينوش، إن القديس ميشال يناديك!

ـ أوه! ماذا! غمغم! أوف، يجيبُ الركام الوقور.

ـ أكنت نائماً!

ـ يعني، أوه، أقصد، أجل، كنتُ... لا، إنها مجرّد كبوة بانتظار عودتك.

ـ اسمع أيها العبد الرقيق، لقد فكّرت ملياً. لابدّ أن أحداً ما سيحاول اختطاف الحقيبة أثناء الرحلة...

ـ أتعتقد ذلك؟

ـ أجل، أعتقد. لابدّ أنّ المعنيين قد تدبروا أمراً ما من هذا القبيل لافتراضهم المسبق بأننا قد نكلّف أحداً بهذا النوع من المراقبة من بعد الذي تقوم به الآن.

ـ أجل، هذا أمر محتمل.

ـ هلاّ اتصلت بالعجوز هاتفياً. واطلب منه أن يتدبر أمر تعقبنا، انطلاقاً من «أوكسير»، بواسطة سيارة للشرطة. ولكن حذار: يجب أن تتعقبنا من بعد، من مسافة بعيدة جدّاً، لكي لا توقظ شكوك أصحابنا.

ـ سأتصل به فوراً يا سان ـ أ.

ـ إذهب لاجراء اتصالك من المطعم المجاور لمزيد من الحيطة والحذر وحاول أن لا تنهق مثل حمار أثناء اتصالك.

ـ لا، ولكن كفّ عن...

ثمّ يصمت. وينتابني القلق إذ أخشى ما أخشاه أن يطرأ عطلٌ ما على جهازي البث.

ـ هه! أيها البينوش! أما زلت هنا؟

ـ سحقاً، لا تحرّك ساكناً، ينعق الأشَلّ.

ـ ما الذي يجري؟

ـ الفتاة التي كانت برفقتك...

ـ ما بها؟

ـ لقد سكبت شيئاً ما في كوب شايك.

ـ ماذا تقصد بشيءٍ ما.

ـ نوعاً من المسحوق الأبيض سكبته من كيس نايلون صغير. في البداية وضعته في كوبها هي كما لو أنها تمزج الشاي بدواء ما، ثمّ بدّلت الكوبين خلسةً.

ينتابني انفعالٌ شديد.

ـ لقد أبليت بلاءً حسناً، أيها العجوز الأجرد، أقول له باستحسان، لقد فتحت عينيك العمصاوين الجميلتين بمقدار ما تتسعان جاحظتين حين تتلصّص من ثقب باب (جينا) لولو بريجيدا خلال ارتدائها لحمالة نهديها، وها نحن نمسك بطرف خيط لا يستهان به! عافاك الله! والآن إذهب للاتصال بالعجوز، هيّا.

أعود أدراجي الى حيث تنتظرني رفيقتي الفاتنة، مشرق الوجه كمن يعود من بيت الخلاء بعد قضائه حاجةً أرهقته.

لا تزال الصبيّة هوغيت جالسةً، كالفتاة العاقلة، خلف الطاولة ذات الغطاء المنزلي المربّع. ومن ينظر اليها على هذا النحو يحسب أنها الملاك الطاهر بهالته وجناحيه.

كأنها تلميذة راهبات في إجازة. ولولا ثقتي العمياء بأن المحترم بينو هو أكثر رجال الشرطة نزاهة على سطح البسيطة وجوارها القريب لحسبت، لرؤية هذه الفتاة ذات المظهر البريء، انّه يختلق الحكاية من ألفها الى يائها. إلا أن بينو فسكايا هو الصدقُ عينُه. وعندما يقول شيئاً ما، نصدّقه دون أن نرى.

ـ أرجو المعذرة، أيتها الفاتنة الصغيرة، أقول متهالكاً بجوارها فوق المقعد.

وأضمّ بكفيّ يدها اليمنى بحرارةٍ غرامية.

ـ لا يمكنك أن تتخيلي مقدار سعادتي للقائك. لقد مررتُ بمرحلة قنوط. لا بل كنتُ على حافة الانهيار، ثمّ طالعني وجهك مثل شمس أشاعت الدفء في صقيع روحي.

التقط أنفاسي بعد هذه المداخلة الطويلة التي أراد حارس المعجم الفرنسي أن يشتري حقوقها مني خلال الشهر الفائت ولو كلّفه ذلك ثقلها ذهباً.

ـ وأنا أيضاً سعيدة لأنني التقيت بك في هذه الرحلة، تشهد هذه الفتاة التي لا بدَّ انها نالت شهادتها الابتدائية.

أحاول أن أصرف انتباهها عن كوب الشاي بأي وسيلة لكي يتسنى لي أن أفرغ محتوياته في أص النبات الموضوع فوق «اسكملة» عالية القوائم طراز شارل الحادي عشر بجواري. وأجدُ صعوبةً في ذلك.

ـ أرأيت إبريق القهوة الذي يحمله النادل! أقول. ليس ذاك الذي يحمله بيده بل الآخر فوق كتفه، بماذا يذكّرك؟

تنظر الفتاة وتهمس قائلة:

ـ لا أدري.

ـ انظري جيّداً!

وبينما تحدّق جيداً، أفرغ كوب الشاي فوق تراب الأص الرطب.

ـ بصراحة إني لا أرى ما يذكرني بشيء، تؤكد الفتاة وقد استدارت مجدّداً نحوه.

ـ إنه يذكّر بمورياك، أقول جازماً، وإن كان هذا الأخير أقل ظرفاً وأكثر رصانة، أليس كذلك؟

وأتظاهر باحتساء الجرعة الأخيرة من الكوب.

ـ ألا تجدين أن لهذا الشاي طعماً غريباً؟ أقولُ بنخيرٍ مسموع.

وها هي الآنسة شاي اللطيفة تشرب كوبها.

ـ الحقيقة انه ليس من الصنف الفاخر! تقول الصبية الفاتنة.

لا بدّ أنكم توافقونني الرأي على أنّ الفتيات في هذا السيرك الذي نحن فيه كلهن جميلات جداً وفاسقات جداً. حتّى تحسب أنهن من يَقُدن اللعبة برغم لطفهن.

أسمعُ نخيراً خافتاً. إنها نبتة الأرضّ التي نامت. ولكي أتظاهر بأن المكيدة قد انطلت علي، أتعمّد التثاؤب بشكل ملحوظ.

ـ أتظاهرٍ وكأنّ تاجر الرمل قد أفرغ عربةً كاملة في عيني، أغمغم قائلاً.

يعلن سائق الباص عن استئناف الرحلة. وما إن نعود الى مقاعدنا أحاول أن أبحث عن بينوش بعينيّ، وإذا به داخل الباص، حيث كان يجلس من قبل. نظراته فاترة وشارباه متدليان كأنه فأر عجوز مصبّر.

ضوء النهار أصبح كابياً. وهدير محرّك الباص له مفعول المنوّم.

ـ أشعر بأنني سأغفو لبعض الوقت، يا صغيرتي، أقولُ، فأرجو المعذرة؟

ـ سأحاول أن أنام أنا أيضاً، تؤكد هوغيث.

ـ أوكي. إذا رأيت أثناء نومك حلماً بمقعدين فما عليكِ إلاّ أن تشيري عليَّ باصبعك.

وعلى الفور أحاول أن أمدّد أطرافي في وضعية ملائمة وأهمسُ بين أسناني مخاطباً بينو:

ـ هل اتصلت بالحيزبون؟

ـ أجل. سيقوم بالاجراءات اللازمة.

ـ حسناً. عليك باليقظة التامة. أما أنا فعليّ أن ألعب دور الجميلة النائمة. إذ أحسب أنهم أرادوا تخديري لأنهم سيحاولون شيئاً ما عمّا قريب.

ـ اطمئن يا سان ـ أ.

أجدني مُرغماً على مقاومة النعاس. فللأمر علاقة بالانعكاس النفسي. الباص يسيرُ في عتمة الليل ومطرٌ لزج ينهمر على النوافذ وتحدث العجلات فوق الاسفلت المبلّل جلبة أشبه بالامتصاص. ما الذي سيحدث؟ ما هي الخطة التي وضعتها هذه العصابة المنظمة بدقة؟ أفكر في صديقي المسكين بيرو، هناك، أسير الأسلاك الشائكة، أفكر في لورمون وبلواز. ويزداد اصراري، أكثر من أي وقتٍ مضى، على العمل لاطلاق سراحهم. فهل سأتمكن من ذلك؟

أسمع خشيش الجهاز. ثمّ صوت بينوشينو فيتش هامساً:

ـ انتبه!... ثمة رجل نهض من مكانه للتوّ من خلفك. لا تحرّك ساكناً...

ثمّ لحظات صمت. وفي الأثناء كانت خفقات قلبي قد أسمعت مَن به صمَمُ.

ـ لا تضطرب، خصوصاً لا تضطرب، يعاودني صوت بينوشار الهامس المتيقظ، فالرجلُ يراقبك. إنه يأخذ حقيبتك. لقد وضعت بجانب حقيبته. ثمّ عاد للجلوس، والآن بتّ لا أرى ماذا يفعل...

يسير الباص على هدي أنوار مصابيحه البرتقالية. تتناهى الى مسامعنا أصوات السيّارات المسرعة التي تجتاز ركوبتنا في طرقات الريف المبلّلة.

ـ إذاً، ما الذي يجري الآن؟ أهمسُ سائلاً.

ـ انتظر قليلاً، انه ينهض مجدّداً، يمسكُ بحقيبته ويرفع الفاصل بيده، ثمّ يدفعها الى ناحية مقعدك. سحقاً إنها حقيبة حمراء أصبحت الآن فوق رأسك كأنها حقيبتك. ثمّ يجلس مجدّداً... لقد قضي الأمر. أفهمت الآن؟ لقد استولى الآن على حقيبتك المحشوة بالدولارات. هذا ما أسميه عملاً متقناً. استبدال حقائب دون عناء. لم ينتبه أحدٌ الى ما جرى.

يتابع الباص سيره. كلّ شيء هادىء في الداخل. إلاّ صاحبكم سان ـ أ، كأنه موصول بتيار بقوة ٢٢٠ فولت. إذاً، كان هؤلاء السفلة يحسبون أن الأمور ستجري بمثل هذه السهولة؟ بعض المنوّم في الشاي ثم استبدال حقيبة بأخرى، ثمّ مساء الخير؟ إنها لعبة فتيان في آخر الأمر.

تستغرقني مثل هذه الخواطر حين يفرمل سائق باصنا بقوّة شاتماً بأعلى صوته. فيسود هرجٌ ومرجٌ داخل العربة. ولم تنقض أكثر من ثانيتين ونصف الثانية حتّى واجهتنا الصدمة. إذ أرى من خلال ستار نافذتي المرفوع سيّارة صهريج كبيرة تعترضُ الطريق. لقد اصطدمنا بها، لم تكن الصدمة قوية، ولكنها كافية لأن تحدث أضراراً في هيكلي السيارتين. والسائق الذي لا يزال تحت وقع الصدمة يمسح أنفه النازف فوق المقود. يسود الهلع، لا بل الذعر! يطل الركاب برؤوسهم من النوافذ ويشتمون سائق الصهريج الذي انبرى فجأة من طريق فرعيّة.

ـ عليك باليقظة التامة! أهمسُ لبينو. فقد يكون الحادث مدبراً بهدفِ إيقاف الباص.

ـ كنتُ سأقولها لك، يتمتم الفضلة، لقد أمسك صاحبنا بحقيبة المال. وها هو يترجل من الباص.

ـ تعقبه دون أن تدعه يراك، ثم اطلعني على ما يفعله!

فينفذ بينو الأمر فوراً. في الخارج كان السائقان منهمكين في جدال سيكولوجي حاد:

ـ إذاً، أيها الأخرق، هل تعلمت قيادة السيّارات على جرّار زراعي أم ماذا!

ـ ولكنّك لم تستخدم إشارة المصابيح كما ينبغي!

ـ آه! هذا لأنك تحتاج الى كشافات المضادات الأرضيّة لكي تحترم قواعد السير وأفضلية المرور!

الخ... الخ...

العزيزة هوغيت التي لم تحرّك ساكناً حتّى الآن تغادر مقعدها خلسةً. ولم يبق داخل العربة، بالاضافة الى شخصي الكريم، سوى عجوز مزكومة وفتاة صغيرة نائمة.

ـ إذاً، أيها الفحل، ما الجديد؟

ـ هناك سيّارات تتوقف بسبب الحادث في الاتجاهين. وحامل الحقيبة ينتهز الفرصة للابتعاد.

ـ والضرّاطة الصغيرة؟

ـ تراقبه مبتعداً وهي تراقبك عبر النافذة!

ـ تابع مهمتك، ففي هذه اللحظة ستعزف موسيقى المعركة يا بينوش. أترى سيّارة الشرطة التي يفترض بها أن تكون على مسافةٍ منا؟

ـ اسمع جيّداً، لقد تجمّع صفّ هائل من السيّارات، والسائقون يترجلون منها بأعداد غفيرة، فلا...

ـ إذاً، استمرّ في تعقب حامل الحقيبة.

جلبة أصوات، وزمامير وهدير محركات. أمكثُ مُتحفّزاً في مكاني. ذلك أن صاحبكم سان ـ أنطونيو، أشبه بوتر الكمان المشدود. نسمة هواء واحدة تجعله يرنّ. كيف ننجز هذه المهمة؟ لسنا، الى الآن، سوى اثنين ونواجه أناساً منظمين خططوا بدقة لعمليتهم!

ـ سان ـ أ! يصدح صوت بينوسفسكي، لقد استقل الرجل سيّارة سريعة تقودها شقراء فاتنة. وهي تحاول الآن أن تغادر صفّ السيارات متجهةً نحو الجنوب...

ـ سجّل رقمها بسرعة.

ـ لقد فعلت.

ـ والآن حاول أن تعثر على سيّارة الشرطة التي تعقبتنا. يجب أن تعثر عليها.

يتناهى إلي صوت بينو اللاهث وقد هرع للبحث عن سيارة الشرطة.

ـ هيه! يقول، أيها السادة... أنتم من رجال شرطة «أوكسير»، أليس كذلك؟

ـ وما الذي يعنيك أنت في هذا الأمر أيها الو...؟ يجيبه صوت.

لا مجال للخطأ: انهم رجالنا. وها هو بينوش يؤكد النبأ بعد أن أطلعهم على بطاقته:

ـ لقد عثرت على زملائنا، يا سان ـ أ.

ـ وماذا عن السيّارة السريعة؟

ـ لقد غادرت.

ـ أوكي. أوقفوا الفتاة التي كانت برفقتي، الآن، على جناح السرعة، سأوافيك حالاً!

أوافيهم في اللحظة التي يتشبث فيها بينو وشرطي آخر ضخم بذراعي هوغيت.

ـ ولكن ماذا تريدون مني؟ تقول حانقة، ما هذه التصرّفات الفظة؟

أدنو منها وأقول لها بعد أن أرغمها على الصعود الى سيارة الشرطة:

ـ لا تتظاهري بالغباء يا هوغيت، وإلاّ نلتِ مني صفعةً على مؤخرتك قد تموتين بعدها معمّرةً أكثر من مئة سنة وقد حُرمت الجلوس منذ الصغر.

ـ ولكنني لا أفهم، تقول معترضة: دعوني وشأني وإلاّ صرختُ طلباً للنجدة!

يبدأ بعضُ المحتشدين بالالتفاتِ نحونا بنظراتِ ارتياب. فأصفع الصبية على فمها وأطلب من الشرطيين اللذين أوفدتهما شرطة «أوكسير» أن يتوليا ما تبقى.

ـ يجب أن نلحق بالسيّارة السريعة! أقول.

وأجدهما مبتهجين للعب دور رعاة البقر تحت أمرتي.

ـ إلى أين يتجه صديقاك، يا عزيزتي؟ أسألها. لمصلحتك أن تعترفي وإلاّ فسأجعل من حياتك مأساة.

ـ لا أدري حتّى عمّا تسأل!

ـ لا تحاولي خداعي بمثل هذا الهراء. لقد ابتليت بمثل هذه البضاعة في الأسبوع الماضي ومازالت كاسدة لدي!

ـ ولكنّي لا أعلم شيئاً. ولا أدرك القصد من سؤالك! فما معنى كلّ هذا؟

ـ تريدين أن أهضمَ مسألة براءتك كما كان علي أن أهضمَ مخدّرك منذ قليل، أليس كذلك يا دميتي؟

فيبدو الذهولُ على وجهها.

ـ ماذا؟

فأشير الى بينو. ولا بدَّ أنها تذكر سحنته بشكلٍ غامض، ولكنها تدرك أخيراً أن خدعتها لم تنجح بسببِ جهوده المشكورة! ولكي أنهي المسألة أضع نظارتي المجهّزتين فوق أنفها.

ـ هيا أهمس بشيءٍ ما في أذن الفتاة يا بينو، لكي تقتنع أخيراً بالاعتراف بما اقترفته.

ـ أنت كستنائية اللون، يهمس الركامُ الحيّ بصوتٍ خفيض.

هذه المرّة تدرك الآنسة طاعون ما الأمر.

ـ لقد كنت طيلة الوقت، وبفضل هذا الاختراع المدهش، أطلع على تفاصيل حركاتك وسكناتك، أيتها الصغيرة. استبدال الحقيبة وكلّ شيء... وكذلك الأمر علمت بأمر صديقك الذي غادر الآن برفقة العزيزة إيفا. أترين؟

إنها ترى جيداً.

ولكنها تصرّ على التزام الصمت المطبق.

ـ الآن إعترفي، على الفور، إلى أين يتوجّهان. فوراً أتسمعين، وإلاّ فإنّ بشرتك الجميلة ستنزف كما لم ينزف الثور الذبيح!

صورة الرفاق الثلاثة المعتقلين في مكان ما من أفريقيا لا تغادر مخيلتي.

هذه المرّة لن أدع الفرصة المتاحة لاعتقال العصابة.

أفتح باب السيّارة من جهتي وأدلّي جذع هوغيت الى الخارج. تحاول أن تقاوم وتصرخ وتتوسّل ولكني أمكثُ غافلاً عن توسلها كجلمودِ صخر. جذعها خارج العربة ورأسها المتدلي لا يبعد أكثر من أربعين سنتيمتراً عن العجلة التي تنهب الطريق بسرعة ١٤٠ كلم/ساعة!

ـ أتعترفين أم أرمي بك الى الخارج، أيتها الفاسقة الصغيرة؟

زميلاي من شرطة أوكسير لا يصدقّان ما يريانه بأم العين. ولابدّ أنهما يقولان في سرّهما ان الوسائل التي تستخدمها الشرطة الباريسية لعجيبة حقاً.

هوغيت التي تكاد تقضي ذعراً وهلعاً لا تتوقف عن الزعيق. فأرفعها قليلاً ولكن دون أن أغلق باب السيّارة.

ـ قولي لنا الآن، الى أين يذهبان، وإلا رميتّ بك!

ـ إلى الطائرة، تقول متلعثمةً.

ويبدو شعرها المشعث أشبه برأس ذئب. وجهها محتقن وعيناها معتكرتان، ودموعها تسيل فوق خديّها ولا يخطر لها أن تمسحها.

ـ وأين هي الطائرة؟

ـ في حقل.. .في منطقة مورفان، لا أدري أين بالضبط!

أحسبُ أن المكان ليس بعيداً منّا، وإلاّ لما عمد المخططون الى افتعال الحادث في هذا المكان بالذات. وأفكر أنّ الأوغاد قد سلكوا طريقاً فرعية مختصرة، وإلاّ لكنّا أدركناهم منذ بعض الوقت نظراً للسرعة الكبيرة التي نسير بها.

ـ ألديكما جهاز اتصال في السيارة؟ أسأل الشرطيين.

ـ أجل يا حضرة الكوميسير.

ـ حسناً إذاً اتصلا فوراً بقاعدة فيلاكوبلاي.

فينهمك الرجلان بتأمين الاتصال. أما هوغيت المسكينة فتصابُ بنوبة فواق ونحيب.

ـ القاعدة معك، يا حضرة الكوميسيرا

ـ Thank you very much!، أقول لهما وقد انحنيت من فوق مسند المقعد الأمامي لأتمكن من ضخّ صوتي داخل جهاز الارسال.

أعرّف عن نفسي، وأذكر رقمي المتسلسل، وأعلن لهؤلاء السادة أن طائرة غير شرعية ستقلع من مورفان بين دقيقة وأخرى. والأرجح أن وجهتها ستكون أفريقيا. الأوامر تقضي باعتراضها مهما كلّف الأمر، وبأية وسيلة لارغامها على الهبوط في مطار «شالون سور سون».

يُجيب السادة من القاعدة بالسمع والطاعة. سيبلغون وحدات الرادار وسرب الطائرات المطاردة. ويُخيَّل إلي أن عزيزتي إيفا ستواجه بعض الانفعالات الشديدة عمّا قريب.

ـ إذاً، يا حضرة الكوميسير، وماذا نفعل الآن؟ يسأل السائق.

ـ نتجه نحو شالون، أقول. إذ لا داعي لأن نواصل سيرنا بهذه السرعة، لقد جاء دور الطيارين الآن.

الفصل الخامس عشر

بعد ساعة من التأخير المفضل على ندامة السرعة، كما قد يقول بيرو الذي يُجيد الفرنسية أحياناً، نصل الى مطار شالون. انه يُحاذي الطريق العام. لقد أخطرت مراكز المراقبة بقدومنا وسطعت إنارات المداخل في جيونو.

نركن السيّارة على مقربةٍ ونجيل أبصارنا في اتساع الحقل المترامي. ولا نرى أي طائرة جاثمة هناك. أتصل بفيلاكوبلاني.

ـ لم يطرأ جديد، يا حضرة الكوميسير! يزعق صوت من جهاز البث.

ـ أيعقل أن تكون الطائرة قد أفلتت من طوقِ المراقبة؟

ـ انه أمر محتمل. خصوصاً إن لم تسلك خطّ طيرانٍ في اتجاه الجنوب، ذلك أن كلّ عمليات البحث والمراقبة تمّت، حسبَ الأولوية، عند خط ليون ـ بوردو.

ـ أطلعني على كلّ جديد، سنظلّ على اتصال.

ـ حسناً!

ننتظر لبعض الوقت. وفي الأثناء يأتي عددٌ من العاملين في المطار فنتبادل أطراف الحديث والسجائر، ونفنّد تقلبّات الطقس وسواه... ثمّ، توتوتو... توتوا يصدح الجهاز.

ـ لقد تمّ الابلاغ عن طائرة غير شرعية فوق الأراضي السويسرية. إنها تتجه نحو أقصى الجنوب بسرعة ۳۰۰ كلم/ ساعة.

أشعر بالغيظ يحتقن ناراً في وجنتيّ وصدري. لقد أفلتوا منا، الأوغاد. لقد اتخذوا كافة إلاحتياطات وبدل أن يتّجهوا مباشرةً الى حوض المتوسط، انحرفوا عن خطة الطيران المعهودة لتضليل المطارِدات الفرنسيّة.

ـ وهل يستطيع الطيران السويسري أن يطارد الطائرة؟

ـ لن يتسع الوقت لذلك. تكون الطائرة في الأثناء قد أصبحت في الأجواء الايطالية.

ـ إذاً الطيران الايطالي!

ـ إن الاجراءات الرسمية لمثل هذا الأمر تستغرق وقتاً طويلاً. وبأية حال، حتى لو طاردت الطائرات الايطالية هدفنا فهي سترغمها على الهبوط داخل الأراضي الايطالية.

فأُطرق لبعض الوقت.

ـ ولكن قل لي، الطائرة المعنية تسير بسرعة ۳۰۰ كلم/ ساعة. فإذا ما طاردتها طائرة تبلغ سرعتها ثلاثة أضعاف السرعة المذكورة، سيكون بإمكانها أن تلحق بها، أليس كذلك؟

ـ بالطبع.

ـ أطلب قدوم طائرة من طراز «ميستير ٤» إلى مدرج شالون سور سون واطلب من السلطات الايطالية تعقب الطائرة المعنية.

يبدو الرجل متردّداً.

ـ لا أدري إذا كنت تدرك جيّداً ما...

ـ أطلب من باريس تأكيد هذا الأمر، إنها قضية لها الأولوية؛ الأولوية، أتسمعني جيّداً!

ـ حسناً، سأبلغ أوامرك.

يطبق الصمت مجدداً. ويسأل الأب بينوش الذي استيقظ لتوّه من النوم:

ـ أتريد أن تطارد الطائرة فوق البحر المتوسط؟

ـ بالضبط.

ـ ولكن بهذه الطريقة لن تتمكن من إرغامها على الهبوط.

ـ لا تنشغل كثيراً بمصير قبعة الصبية، أيها العجوز. دعها تطفو حيثما تطفو ولا تغتمّ.

ومجدّداً صوت الجهاز.

ـ لقد أبلغ الأمر أيها الكوميسير. ستنطلق طائرة من قاعدة «تراويس» وستهبط في شالون في غضون خمس عشرة دقيقة.

ـ شكراً.

ـ لم يبق إلاّ أن ننتظر.

ـ أينبغي أن أرافقك؟ يسأل بينوش.

ـ بالطبع، يا صديقي العزيز.

ـ أنت تعلم أنني أخاف الطائرة. إنها تسبب لي الغثيان.

ـ سيزول الغثيان فور وصولنا.

وأطلب من أحد الزملاء أصفاده وأضعُ السِوارين الأميرِيين في معصمي هوغيت الرقيقين.

ـ ضعوا هذه الصغيرة في مكان آمن بانتظار تعليمات لاحقة. وخصوصاً لا تنخدعوا كثيراً بنظرةِ الاشفاق في عينيها حين تمثل دور «الجوكاندة».

ـ ليس من عادتنا أن نُخدع هكذا، يؤكد الشرطي البدين. الأحرى أننا نحن الذين نليّن عريكة أشدّهم بأساً، أليس كذلك يا دوراتون؟

ـ تقريباً، يا ابن أخي، يجيب السائق.

يدخن كلٌّ منا سيجارتين على التوالي، ثم ينبثق هدير يملأُ السماء. وإذا بطائرة حربيّة تنعطف بسرعة خاطفة فوق الحقل ثمّ تهبط فوقه. فنهرع، الركام وأنا، إليها.

نجد على متنها رجلين: الطيار وعامل جهاز الارسال. ودون أن نهدر دقيقة واحدة في القيل والقال والأحاديث النافلة نحتلّ المقعدين الشاغرين على متنها.

ـ الملازم أوّل دوسّاس! يعرّف الطيّار عن نفسه.

ـ الرقيب دوبوا يقول اللاسلكي (لقد كان في السابق بهلوان أسلاك، ولكنّه نظراً لفقدان المواد الأولية ارتدّ الى رعاية جهاز اللاسلكي).

نربط أحزمتنا. ويُطلق بينوش صرخة ألم لأن بكلة الحزام قرصت أسفل بطنه. إلاّ أنها ليست إلا حادثة عرضية. وتقلع الطائرة بوقتٍ قياسي. ولا ألبث أن أدرك أننا على فوهة الصاعقة! يا لها من سرعة، يا أخواني! إذ تعبر الأرض من تحتنا كالسيل. حتى النجوم يقلقها عبورنا وأقسم لكم أنها كفّت عن الالتماع! أمّا القمر فيشعر بالقنوط، حتّى انه توارى خلف غيمة متسخة كمنديل بيروربيه.

لا أذكر جيداً إذا كنا تنزّهنا من قبل على متن طائرة من طراز «ميستير». ورُبّما صدمكم هذا الأمر، أليس كذلك؟ ربّما تقولون في درع روعكم ان الحكاية برمّتها لا يصدّقها عقل مختل، وإذا كان هذا حالكم فلا شيء يدعوني الى الاستهجان. أنتم تزعمون أنكم من أنصار العقلانية الديكارتية لأنكم جميعكم فاقدو الحسّ ليس في رؤوسكم ذرّة من الشعر. وما ان يستدعي الموقف بعض المخيّلة أرى أنكم قد ولّيتم الأدبار، ذلك أنكم تملكون من المخيلة ما يتيح لكم بالكاد أن تتخيّلوا مقدار حماقتكم. هل سبق لكم أن رأيتم ليمونة بعد العصر، آمل أنكم رأيتم؟ وقد لا يروق لكم ما أقول - ولكن لما أقوله ما يبرّره - إن أدمغتكم أشبه بالثمرة المعتصرة. وتحسبون أنفسكم أوّل من اخترع البنيسيلين! تباً لكم! لو شئت هنا أن أتنزّه على متن طائرة «ميستير»، فلي مطلق الحق أن أفعل ذلك، أليس كذلك؟

إنها طائرة مريحة وسرعتها لا تُضاهى. إذ لم تستغرق رحلتنا أكثر من نصف ساعة، وإذا نحن على مقربةٍ من طائرة إيفا.

ـ حاول أن تتصل بهم لاسلكياً، أقول للرقيب دوبوا.

بعد محاولات عديدة وأداءٍ تقني مطوّل لن أدخل في وصفِ تفاصيله غير المملّة. يدخل دوبوا في اتصال مشوش بالطائرة المُطاردة.

ـ هنا، برتزيل ١٦! يقولُ الرقيب، أنادي على الآنسة إيفا!

سيقول بعضكم، هنا أيضاً، انه مجرّد تخريف. ومع ذلك أقول لكم إن الأمور تمّت على هذا النحو. وإني أنقلها هنا حرفياً دون أن أضيف فاصلة ـ فأي تبديل في مجريات الأمور الحقيقية يكون بمثابة كارثة.

يصمت الجهاز لبعض الوقت، ثمّ يصدح صوت السافلة المكّار معلناً:

ـ أني أصغي.

ـ سأصلك بالكوميسير سان أنطونيو! يقول عامل الجهاز.

ويناولني سمّاعته فأبادر الى القول:

ـ هالو، إيفا، كيف حالك في هذه الليلة المنجّمة؟

ـ لا بأس، وأنت يا كوميسير قلبي؟ لابدّ انك تحسب نفسك عبقرياً لأنك لحقت بنا، ولكنك تجهل أمراً: وهو أننا أصبحنا بعيدين من الأراضي الفرنسية، ولذلك لن يكون بامكانك أن تفعل شيئاً!

ـ وشقيقتك، يا إيفا، بماذا تقدر أن تخدمك، أيتها الماكرة الصغيرة؟ أقولُ بشيء من الدهاء.

يبدو أن الأمر يربكها لبعض الوقت، ما ينبهّني الى ضرورة استكمال المساومة.

ـ اسمعي يا إيفا، ستتطلبين من طيّارك أن يعود أدراجه ليهبط في نيس، وإلاّ فستتذوّقين طعم مياهِ البحر المتوسط قبل أوانك.

تجيبني بضحكة صادحة.

ـ أنسيت أين نحن!

ـ لا، أبداً على الاطلاق، يا جميلتي. وأصارحك القول إنني انتظرت حتى أصبحنا فوق عرض البحر قبل أن أطلب محادثتك!

ـ أتعتزم اطلاق النار علينا! تقولُ هازئةً. نحن نعرف جيّداً طراز طائرتكم ونعرف انها غير مجهّزة بمدافع رشاشة.

إنها شديدة البأس، هذه السافلة. ومن المؤكّد أننا لن ننال منها بضربة منبّه.

والخداع مقابل الخداع، أحاول أفضل ما لديّ:

ـ افتحي أذنيك جيداً يا عزيزتي. لابدّ انك تنقلين، على متن الطائرة، الحقيبة التي استوليت عليها مني ببراعة، أو التي دفعتكِ للاستيلاء عليها مني ببراعة؟

ـ أجل!

وكفّت عن الضحك. فيبدو لي من نبرةِ صوتها أنَّ صدمة ما قد هزّت أعماقها الفارغة.

ـ أودّ أن أعلمك بأمرين اثنين حول هذه الحقيبة، يا دميتي الجميلة: أولاً، ان الدولارات التي تحتويها مزيفة كأسنان عضوٍ في الأكاديمية الفرنسية، وثانياً، إنها ذات قعر مزدوج.

صمتت.

ـ أما زلت على السمع، أيتها الشقراء الفاتنة ذات الابتسامة الساحرة.

ـ إذاً، ماذا تقصد؟ تسأل بجفاء.

ـ لا تحاولي أن تفتحي القعر المزدوج للحقيبة، فأنت لا تمتلكين العدّة اللازمة لذلك: فقد تحتاجين الى مقص حراري. داخل هذا القعر المزدوج يا عزيزتي هناك قنبلة أستطيع أن أفجّرها بواسطة جهاز الارسال. وليس علي إلاّ أن أقوم بحركة اصبع واحدة فأحيلكم الى مسحوق العطوس لا أكثر. انه أمرٌ مضحك، أليس كذلك؟

ـ أنت تكذب! تقول إيفا بلؤم.

ـ إن لم تبادري الآن الى سلوك طريق العودة، فلن يكون لديك حتى الوقت الكافي للتثبّت من صحة كلامي. وخصوصاً لا تحاولي أن ترمي الحقيبة من الطائرة، لأنني ما إن أراك تفعلين فسأحيل الطائرة الى ضراط أرنب. فلابدّ أنك تعلمين جيّداً يا صغيرتي أنني لا أخوض مثل هذه المعركة من دون سلاح!

بجواري تأخذ بينو النشوة.

ـ مذهل! أنت عبقري، يا سان . أ.! إنّ خدعة مثل هذه، تليق بمن هو مثلك!

بحركة من وجهي أشير عليه بأن يُطبق فمه. وهو لا يحب أن يُشار عليه فيطبقه.

ـ من الآن فصاعداً سأراقب نبضي. وخلال خمس ثوان سيتحول حضورك الفاتن الى سحابة دخان. أتقبلين الرهان؟

ـ مهلاً تقول.

ـ ما الأمر؟

ـ أنت تخدعني!

ـ أوكي، إني أخدعك، ولكن صدّقيني أن دماغي الآن بات يعمل كصاعق.

«خمسة، بدأتُ العدّ... أربعة.. ثلاثة... اثنان..».

ـ انهم ينحرفون عن خطة طيرانهم! يصرخ الطيّار، أحسنت أيها الكوميسير، هذا ما أسميه وسائل اقناع ناجحة!

ويدلي عامل اللاسلكي بدلوه المدائحي:

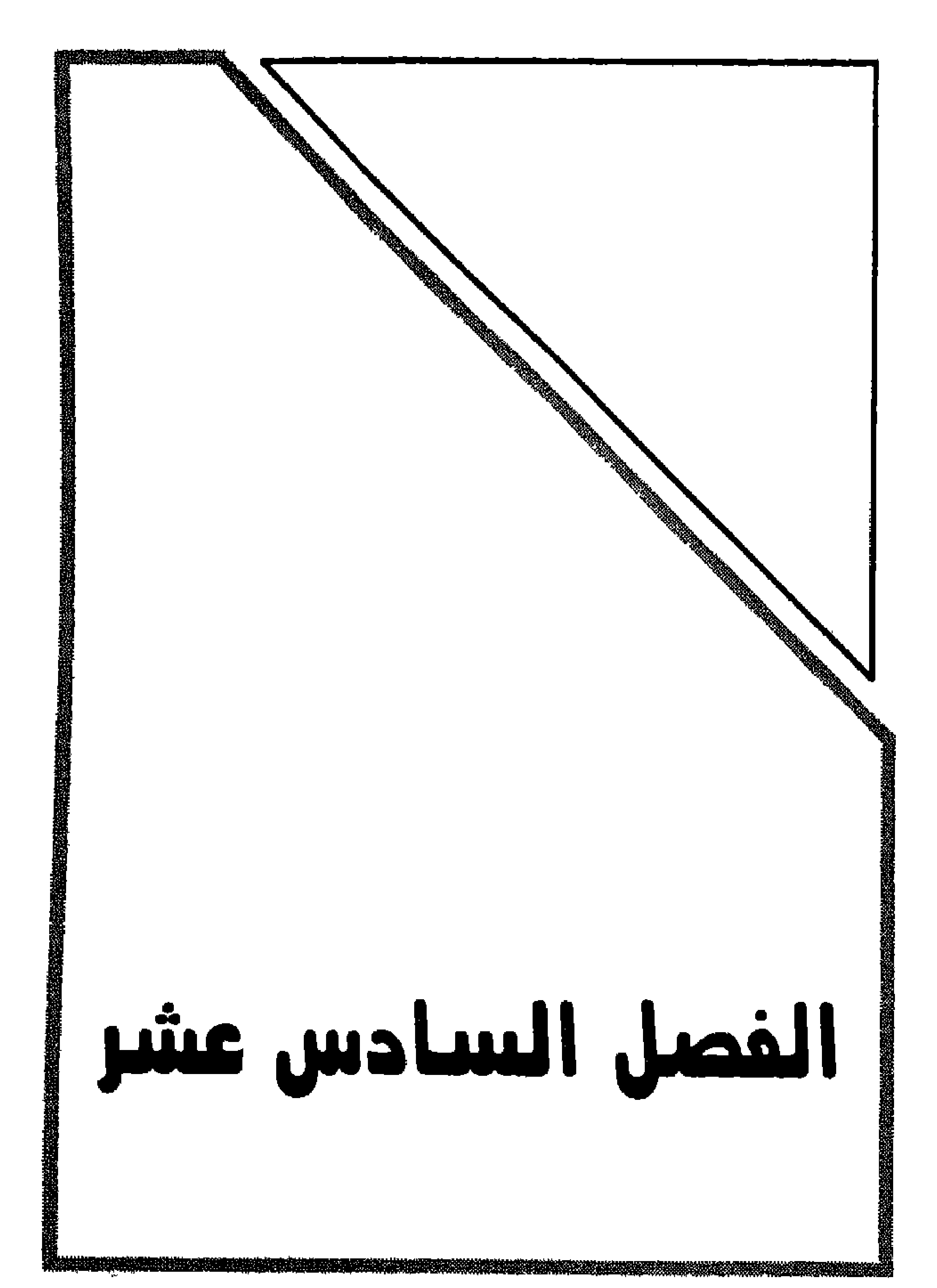
ـ أنت بالفعل سوبرمان السلك!

ـ لقد عرفت رجلاً أراد أن يُضاهيني، أقولُ بلهجة تواضع، فأجريت له عملية فتق في الدماغ.

ـ وأعاود فتح صنبور الهذر اللاسلكي:

ـ حافظوا على خط الطيران في اتجاه نيس، يا أولادي؟ فنحن نتعقبكم عن كثب. ولدى أوّل محاولة للخداع، تعرفون ما سيحلّ بكم!

بعد أقل من ساعة، نهبط في نيس وكنا أبلغنا جهاز المراقبة في المطار عن هبوط طائرتينا. أليس هذا عملاً متقناً، يا رفاق؟ هيا، أقرّوا بذلك.



الفصل السادس عشر

يُفتح باب الطائرة وتخرج منه أيفا أوّلاً.

ـ مرحباً يا أيفا، ما الذي دهاكِ تبدين شاحبة يا عزيزتي؟ أرجو أن تكون الغدد الكلوية تعمل لديك على خير ما يرام!

فتجزيني ابتسامة سخرية لا مبالية.

ـ لا داعي للتفاخر يا سان أنطونيو. لقد نلت منا، حسناً؛ إلاّ أن هذا لن يعيد اليك لا الوثائق ولا الرهائن!

ـ هيّا بنا لنناقش هذا الأمر في مركز الشرطة في مبنى المطار، أقولُ دون أن أتخلّى عن ابتسامتي المغوية.

برفقة أيفا هناك الرجل ذو السالفين الطويلين الذي كان يقود الطائرة والرجل الآخر الذي استولى على حقيبتي: انه قصير القامة، أصلع، وله سحنة محاسبٍ قديم يُعاني من سوء التغذية.

وما ان نصل، هم وبينو وأنا، إلى غرفة مكتب فيها كلّ أسباب الراحة، حتى أبادر الى متابعة حديثنا.

ـ أرأيتم يا سادة، ان قضيتكم باتت في أسوأ حال، حتّى انكم لن تجدوا شركة تأمين واحدة في العالم تقبل بالتأمين على أرواحكم. فحظكم في النجاة من مواجهة فرقة الاعدام يعادل حظي في أن أصبح ذات يوم اسقفَ كانتربوري. لا بل أسوأ من ذلك بكثير!

يمكثون باردين ممتقعين، كأنهم تماثيل من رخام!

ـ ماذا تقولين يا صغيرتي أيفا، أتتخيّلين نفسك في دور ماثا هاري (*) وهي تواجه صفّ الجنود الوسيمين في فرقة الاعدام؟ سوف يغمزُ هؤلاء الفتيان بعيونهم ليس تقديراً لفتنتك بل لكي يتاح لهم التصويب بدقّة إلى وجهك الجميل؟ إثنتا عشرة رصاصة! ومهما صرخت: أضربوا في القلب مباشرةً، فهناك دائماً من يخطىء الهدف في فرقة الأعدام وهكذا ستحظين بجثة مثقوبة في أكثر من موضع.

تبدر منها إشارة امتعاض.

ـ حتّى لو افترضنا أنك ستنجين من فرقة الإعدام، يا محكومتي الجميلة، فلابدّ انك ستواجهين السجن المؤبّد حيث يتعفن جسدك في وكرٍ ما من أوكار المجرمين. هذا ما أقوله دائماً للنساءِ اللواتي يشبهنك. ولن يمضي وقت طويل حتىّ يستحيل جمالك الى دمامة منفّرة تأنف منها الجرذان!

ـ ما الذي ترمي اليه من هذا الهراء المتواصل؟

ـ أريد الوصول الى مبتغاي، يا أميرة «قفاي». إني أعرض

(*) راقصة شهيرة لعبت دوراً بارزاً في الجاسوسية العالمية في بداية هذا القرن.

عليك فرصة لا تعوّض: نستقل طائرتك معاً ونعود أدراجنا الى حيث يختبىء صديقك ستيفنز. فبالنسبة لي اني مفتون بالصحراء. اتفقنا؟

تصفن قليلاً. وأتوقع رفضاً قاطعاً من قبلها، ولكن بدل أن تجيب بالنفي أو مداورةً تتمتم وهي ترمقني بنظرات تنفذُ الى عمق سروالي:

ـ حسناً!

لا تخدعك المظاهر يا سان ـ أ. إنّه التحدي. فلابدّ أن ما يجول في رأسها خطة بحجم «الامباير ستايت». وتحسب في سرّها أنها ما إن تصبح وسط أعوانها هناك فلن يصعب عليها أن تنجو بنفسها! لا فائدة من محاولتك نزع كلّ رجاء من أعماقها. المهم، الآن، أن توافق. ولمجرّد أنها قبلت أن تعود أدراجها فهذا يعني أنها تخشى الموت. ولذلك لا يُعقل أن تكون مصمّمة على أي خطوة، أثناء طيراننا فوق البحر. أما حين نصل الى هناك، فسوف نرى!

ـ اشرحي لصديقك الطيار الذي ـ إن فهمتُ جيّداً ـ لا يفقه شيئاً من لغة الأريب «مونتانيه» الجميلة. أمّا أنتَ يا عزيزي المحاسب، أقولُ مخاطباً الأصلع، فألفُ اعتذار، لكنّك ستمكث هنا.

* * *

ـ وهل سأرافقكم أنا أيضاً؟ يثغو بينو كالنعجة.

ـ ولِمَ السؤال، أيها الهرم الموقّر؟ هل أنت خائف؟

ـ بالعكس، كنت أخشى أن تدعني هنا!

ـ لا تخف. ولكن قبل ذلك سأعالج هذه الحقيبة قليلاً.

ـ أجل، يقول. فقد تنفجر القنبلة ونتناثر أشلاء في الهواء!

ـ ليس في هذه الحقيبة قنبلة تماماً كما ليس في الحكم على شرطي أي رغبةٍ في المزاح!

ـ بلا مزاح. كانت خدعة إذاً؟

ـ طبعاً. فما يُعوّل عليه في هذه الحياة هو أن تكون لك السلطة.

ونطلق. يقودُ الطيّار الطائرة كطيّار يقود الطائرة تحت تهديد مسدّس مصوبٍ الى رأسه، أما عزيزتي أيفا، فجامدة في مقعدها. ويبدو انها تخلت نهائياً عن محاولة خداعي أو النيل مني!

تقول المتصدرة الجميلة (أقصد أن لها صدراً جميلاً) في سرّها، إن المستقبل غير واعد وانها خلال الساعات القادمة ستواجه امتحاناً عسيراً.

وحسب ما قالته لنا في المطار، ان المكانَ المقصود يقع في الأراضي البابوشية، ليس بعيداً من حدود ميستي ـ فريزيه، وعلى بعد نحو مئتي كيلومتر عن كولدوم ـ بي ـ لي ـ دو ـ موسكيه(*)، وهي المدينة الشهيرة بمزارع الزرافات..

تستغرق الرحلة أربع ساعات قبل أن نحط في معقلِ الأشقياء. إلاّ أننا نصل اليه في ساعاتِ فجرٍ برتقالي يُرخي

(*) كلّها أسماء وهمية لمدن وبلدان يفترض أن تكون في الصحراء الافريقية.

نسيجه الأزرق فوق خط الأفق.

وبينما تحوّم الطائرة فوق المكان العتيد، أمسك بذراع أيفا بقسوة وأوجه اليها العبارات التالية:

ـ قبل أن نصل يا عزيزتي سوف أضعُ في سرّك بمثابة علاوة، هذا التحذير الأخير: إني أحملُ معي ما يعالج الصداع النصفي في رأس فيل. فإن آثرتِ التلاعب وعدم تنفيذ ما أقوله لك بالحرف، ستكونين أوّل من يختبر فعاليته، مفهوم؟

ولا بدّ أنكم أدركتم أيها الصحب أنني قبل مغادرة نيس قد جهّزتُ نفسي بما يلزم من قاذفات الرصاص والنار. ما يليقُ بشرطي عتيق قد خبر كافة أنواع القواذف!

أما الآن وقد وصلنا، فسأحيطكم علماً بما اعتزمته. كان بوسعي أن أفعلَ قبل الآن، ولكن نظراً لذكائكم طراز لويس الثالث عشر (الأعوج القوائم)، كنتُ أخشى أن تنسيكم مجريات الرواية ما أطلعكم عليه.

الدقيق في هذه المهمّة هو انه يتوجب علينا أن ننجزها منفردين، أقصد بينوشيه وأنا. إذ كان يستحيل علينا أن نصطحب فرق مساندة الى أراضٍ أجنبيّة، أليس كذلك؟ هذا منطقي، أليس بلى؟ حسناً إذاً، إن خطتي هي التالية:

سوف تتولّى الفتاة، حاملة الحقيبة الحمراء، أمر رفاقها، أما أنا، ومرتدياً بزة الطيار البيضاء، فانتحل شخصيته وأذهب لتحرير الأسرى الثلاثة. وفي تلك الأثناء يمكث الوقور بينو في الطائرة ويواصل احتجاز الطيّار الحقيقي. فأعود برفقة أصدقائي الثلاثة ونستقل الطائرة عائدين أدراجنا.

وماذا عن الوثائق، قد تسألون؟

أما بخصوص الوثائق فلدي خطة أيضاً، ولكن وقت اطلاعكم عليها لم يحن بعد. وعلى الأخص لأنكم لم تتناولوا بعد جُرعتكم اليومية من فيتامين ب١٢.

أشرح القسم الأوّل من خطتي لبريجيت باردو الرمال.

ـ كلّ الاتكال عليك، أيتها الصبيّة. ستحملين الحقيبة المفخخة. ولدى أي بادرة خطر أفجّرها بواسطة جهاز الارسال وعندئذ يتناثر كل شيء أشلاء، بما في ذلك أنت. أما إذا كنتِ صادقة ومتعاونةً قلباً وقالباً، فستعودين الى الطائرة وعندئذ لن تنفجر القنبلة إلاّ حين نصبح في الأجواء. اتفقنا؟

تبدر منها إشارة موافقة. تحط الطائرة وأفتح الباب. وتمسك الفتاة الحقيبة بيدٍ مرتعشة.

ـ خصوصاً إيّاك والمزاح! أقول لها فيما أعينها على النزول من الطائرة.

هوذا ستيفنز يتبختر في طقمه الرسمي الأبيض. انه حاسر الرأس لأنّ أشعة الشمس لم تُصبح نفّاذة بعد.

ـ صباح الخير يا أبنائي. لقد تأخرتم بعض الشيء، فهل من خطب؟

ـ لا. ولكننا بدّلنا كثيراً من خطط طيراننا تحسُّباً لأي طارىء.

ـ لقد أحسنتم فعلاً!

«هل كانت الصغيرة هوغيت على مستوى المسؤولية؟».

ـ بصورة رائعة.

ـ وشرطيّك العزيز، الكوميسير سان أنطونيو؟

ـ الحقيقة، أعتقد انه الآن يلعن الظروف التي جعلته يتعرف إليّ، تقول الفتاة ببرودة أعصاب من شأنها أن تجمد قلب ثعبان.

وأعجبُ لرباطة جأشها. فمن شأن هذه الصغيرة أن تكون بطلة العالم في رباطة الجأش دون منازع.

ـ اعترفي انّك كنتِ تشعرين ببعض الميلِ لذلك الشرطي الوسيم! يقول ستيفنز هازئاً.

فتبدر منها ضحكة فاترة.

ـ أحسب انّك على حق ولكن الرجال على درجة من الغباء...

ـ أعطني حقيبتك يا إيفا.

وينتزع منها الحقيبة الحمراء.

ـ كم هي ثقيلة! المالُ فيها؟

ـ أجل!

ـ سوف يبتهج الزعيمُ كثيراً. لقد دبّر الخطّة بشكل رائع، أليس كذلك؟

ـ انه من طراز رفيع، تقول أيفا موافقة.

نصل الى الفيللا.

يربت ستيفنز على كتفي.

ـ إذاً أيها الطيار! يقول بالاسبانية، لماذا تمكث صامتاً.

ـ أشعر بالنعاس! أجيب بالاسبانية وبتثاؤب، ذلك أني أجيد هاتين اللغتين بطلاقة.

ـ ستذهب الى النوم، وستنام جيّداً، ولكن قبل ذلك سنشرب نخب نجاحنا!

كم أودّ لو أرفض دعوته، ولكن أخشى ما أخشاه هو أن أكون مُرغماً في معرض رفضي الدعوة على استخدام عبارات مطوّلة فينتبه الرجل الأبيض الى أنني لستُ بالضبط من يظنّ أنني هو. فأتبعهما الى الحجرة الرئيسية.

ـ لم ينهض الزعيم بعد! يقول، لقد انتظر طيلة الليل ولم يذهب الى فراشه إلا عند الرابعة فجراً.

ـ لندعه ينام، تقولُ أيفا همساً.

يأخذ ستيفنز ثلاث كؤوس من فوق طاولة بعجلات، ثمّ يسكب منها شراب «البوربون» ويقول بصوتٍ عالٍ:

ـ في صحتكم: لا شيء يُضاهي الكأس لتبديد مشقة ليلة بيضاء.

ويشرب. تأخذ إيفا كأسها. وأحذو حذوها. وأسارع الى إفراغه في جوفي لأُغادر مسرعاً لأنّ ستيفنز هذا سيدرك في آخر الأمر مَنْ أكون. حتّى لو كانت عيناه مُرهقتين عمصاوين بسبب سهره الطويل، ولكن مع ذلك، مَنْ يدري.

وما إن أفرغ كأسي حتى أتلقّى سائلاً حارقاً في عيني: كأنّها لسعة جهنم. لقد رمتني إيفا بمحتوى كأسها في عينيّ.

وفيما أتدارك النيران المشتعلة فيهما بيدي تعاجلني بضربة شديدة على معدتي بواسطة جسم صلب أقسم يميناً مغلظة انه ليس مقبض فرشاة أسنانها.

ـ لا تتحرّك، أيها المكّار، وإلاّ أرديتك!

ـ إيفا! يصرخ ستيفنز، ماذا تفعلين؟

ـ ألم تتعرّف إذاً إلى هذا الرجل! لستَ بارعاً في علم الفراسة يا عزيزي!

فينزع متعتي.

ـ سان أنطونيو!

ـ الأحرى أن تقول: الشيطان! تقول إيفا. لقد أربكنا هذا الوغد منذ البداية. سأروي لك ما جرى، ولكن في هذه الأثناء يجب أن نتصرّف بسرعة! الحقيبة تحتوي على دولارات مزيفّة وقنبلة يمكن تفجيرها من بُعد، وقد تنفجر بين لحظة وأخرى.

ـ إن حرّك ساكناً لا تتردّدي لحظة في القضاء عليه! يوصيها ستيفنز.

ـ حذار! أقول. إن أطلقتم علي النار فقد ينفجر الصاعق تلقائياً. إنها حلقة مفرغة، أليس كذلك؟

يغادر ستيفنز حاملاً الحقيبة ويقول انه سيعود!

من جهتي، أحبّذُ مغادرته الآن. وسأطلعكما على السبب عمّا قليل. باختصار ها أنذا وحيدٌ برفقة الفتاة.

ـ يا إيفا، أقول، لقد أخطأت، لقد أخطأت لاثني عشر مليار

مرّة، في تصرّفك هذا. لقد تلاشت فرصتك الأخيرة كما يتبدّد الدخان، ولن يكون في وسعك أن تلتقطي سحابة بشبكة فراشات.

ـ آه! أهذا ما تعتقده فعلاً!

ـ أعتقد انني على يقين، يا آنستي الجميلة.

وما إن أنهي عبارتي حتى نسمعُ صوت رشقات في الخارج. تهرع إيفا لتتبين ما الأمر. وأحذو حذوها. وسط الباحة جثة ستيفنز، لقد شقّته الرشقة الى اثنين. أما الحقيبة فقد فتحت حين سقطت من يده وإذا بالأوراق الخضراء تغطي الأرض، بنظرة متوقّدة أتفحّص المشهد وجواره. ثلاثة رجال يحملون رشاشات طومسون يقفون هناك. وأتعلمون من يكون هؤلاء؟ كوينسي وراي ورجل يرافقهما!

تتهالك إيفا. ولا أجد أية صعوبة أو حرج أو مشقة في الاستيلاء على فرقعاتها (أقصد مسدسها بالطبع). إذ ليس عليَّ إلاّ أن ألمّه كمن يقطف زهرة بنفسج.

ـ الآخرون! تقول! لقد عثروا علينا!

ـ لقد استمتعت بخداعهم، أليس كذلك؟ وها هم الآن يعودون لتقديم الملبّس الناري بمناسبة رأس السنة.

يَصلُ بعضُ الرجال السود الذين استيقظوا مذعورين من نومهم وحملوا الأسلحة التي طاولتها أيديهم على عجل! بضع طلقات نارية تُطلق من جهة الفيللا. فيردّ المهاجمون الثلاثة بعنف. يا للرصاص الذي يوزّعونه غزيراً في كلّ اتجاه! وتعرفّت

للتوّ الى ثالثهم، يا إخوتي: لقد كان متنكراً بزي خادم في القطار الذي التقيت فيه ليديا. لا مجال للشك: هو الذي قتل عشيقة ريري.

في الخارج القتال على أشدّه. انهم ينفذون إعادةً حيّة لمعركة «الآلامو» وبتعرفة مخفّضة.

وززززن! وبوووم! وباااف! وتووك!

الرجاء بصق النواة بعد الاستهلاك!

يستولي المهاجمون الثلاثة على الحقيبة الحمراء. ثمّ، بعد أن أسعدتهم غنيمتهم وأدركوا أنهم لن ينتصروا في معركة «حصن الأبّاش» هذه يبدأون بالتراجع، في اتجاه سيارتهم نصف المجنزرة. لابدّ انهم يشعرون بأن رحلتهم الطويلة هذه كانت تستحقّ العناء فعلاً، ذلك انهم يجهلون الى الآن أن ما تحتويه الحقيبة ليس أكثر من مزاح سمج وثقيل. وفي الأثناء إذا بصوت يزعق (كما قد يقول بيرو):

ـ الرشاش، على السطح، أسرع!

يصعد كوينسي وجيشه المُختصر الى السيّارة. فعلى الرغم من كل شيء، لقد قاموا بأداء رائع هذا النهار، ونالوا جزاءهم على ذلك، أليس كذلك؟ فتنطلق سيّارتهم مسرعة فيما الرشقات الغزيرة تنعف الرمال من حولها.

ـ إذاً ماذا تنتظر أيها الوغد، تقول الفتاة. لماذا لا تفجر قنبلتك الآن؟ انه الوقت الملائم لذلك!

أنظرُ الى ساعتي.

ـ أستمهلك خمس دقائق، يا حلوتي، لا أكثر!

ـ لماذا؟

ـ سأسرّ إليك بأمر ما: عندما كنا نحلّق فوق مياه المتوسط وسردتُ عليك قصّة القنبلة التي يتم تفجيرها لاسلكياً، إنما كنت أسرد ترّهات.

فتمتقع.

ـ ماذا!

ـ ولكنْ في نيس راودتني فكرة أن أجعل من هذه الكذبة حقيقة. لذلك فالحقيبة الآن تحتوي على قنبلة. ليست من النوع الذي يُفجّر لاسلكياً بل من النوع الموقوت. قبل أن نغادر الطائرة ضبطت ساعتها لكي تنفجر بعد الهبوط بربع ساعة. كنت آمل أن تمكثي على وعدك لي لمدة ربع ساعة، وكنتُ على صواب، أليس كذلك؟

ويدوي انفجار هائل، وتنبثق على الطريق المفضية في اتجاه الشمال أعمدة من لهب ودخان.

ـ سحقاً! أقول حانقاً، ما عاد بامكاننا أن نثقَ بصناعة اليوم. لقد انفجرت القنبلة قبل ميعادها بأربعِ دقائق!

وفيما أواصل التحديق بإيفا، أهمسُ متأملاً الحريق الذي أحدثه الانفجار:

ـ كم يفضّل المرء أن يموت هكذا على أن يموت بالحمّى القرمزية.

إنها حكمة ممتازة، أليس كذلك؟

ـ والآن، لنطلق سراح الرهائن!

أدفعها الى خارج الحجرة لكزاً بفوهة مسدسي. وفي الخارج كان الرجال السود يهرعون في اتجاه العربة المحترقة. وأرى انهم محقّون في ذلك: إذ، على هذا النحو، يتركون لي مطلق الحرية في التصرّف.

* * *

باب القبو مقفل بالمفتاح، ولكن ليس بيني وبين طرزان إلاّ فارق واحد: هو المزين الذي يُعنى بقصّ شعرنا. وبضربة منكب واحدة أحطّم الباب الخشبي.

وفي غمرة العتمة شبه التامة أتبيّن كتلتين جاثمتين بلا حراك فوق الأرضيّة. فأشعل ضوء المصباح الضخم المعلّق على الجدار الفاصل، وإذا ببيرو وبلواز مُستلقيين على الأرض وقد استكان كلّ منهما الى لفافة الشريط الشائك التي تلفّ بدنه. لقد انتهى بهما الأمر الى النوم فوق الأسلاك.

ـ بيرو! يا تفاحتي الهائلة! أناديه برقّة وإشفاق.

زفرة ثمّ صوت البدين:

ـ هذا أنت يا سان ـ أ؟

ـ هذا أنا.

ـ إن كنت لم تحضر لي طبقاً من «الشوكروت» فلا داعي لأن تخاطبني بعد الآن! هؤلاء الأوغاد لم يعطونا ما نأكله حتى الآن!

ـ أين لورمون؟ أسألُ متوجساً.

ـ هنا! يجيب صوت.

وإذا بفرنسوا لورمون يرتدي مبذلاً قرمزياً ويحمل بندقية رشاشة يصوّبها نحوي من تحت ذراع إيفا، بحيث أني إذا أطلقت النار فلن أصيب سوى الفتاة فيعاجلني بعدئذٍ برشقة قاتلة.

ـ يا للعجب! أقول متلعثماً.

ـ حذار! حذار! يا فتيان، يزعق البدين. انه الزعيم، زعيم العصابة! أؤكد لكم.

ـ اصمت أيها الزعّاق البدين! يقول لورمون موبّخاً. وأنت يا عزيزي الكوميسير أعط سلاحك لإيفا.

ـ أهز برأسي.

ـ لعبة موفّقة يا لورمون.

ـ أليس كذلك؟

أمدّ سلاحي متظاهراً بتسليمه الى إيفا ولكني في الوقت نفسه أعاجل المصباح بركلة مِن قدمي فينطفيء. مذعوراً، يطلق لورمون رشقة. وقد يكون ملك المخططين والمؤامرين ولكنّه في موضوع السلاح ليس ممّن يُعوّل على دقةِ أصاباتهم! هكذا يفرغ ممشط بندقيته برشق واحد في الوقت الذي تراءى لسان ـ أ، الابن البارع الوحيد للعزيزة فيليسي، ان النجاة كلّ النجاة في القفز جانباً. وما هي إلاّ ثوانٍ معدودات حتى أفرغ الممشط. وبما أني أغلقت عتلة الأمان في المسدس الذي سلّمته الى إيفا، أصبح لدي الوقت الكافي للتعامل مع السيّد والسيّدة.

صفعة واحدة ترمي بالفتاة أرضاً وتزيل الحمرة عن شفتيها. وها أنذا ولورمون وجهاً لوجه. يحمل رشاشه من فوهة «الاستون». ولمجرد أن أرى طريقة امساكه بالسلاح أدرك انه لاعب غولف محترف. ولكن قبل أن يتاح له ضرب رأسي ككرة غولف يتلقى مني ركلة هائلة على خصيتيه.

فيُصعق وتُقطَعُ أنفاسه. يُطلق زعقةً مدوّية ويتكوّم على نفسه. فيصبح مؤخر رأسه في متناول قبضتي فينال منها ما من شأنه أن يُنيِّم نصف سكان فرنسا. وإذا به طريح الأرض لا يحرّك ساكناً. ثمّ أعود الى إيفا، لكمة واحدة وإذا بها نزيلة النجوم!

لم يعد أمامي إلا إطلاق سراح رفيقَيّ وبعد أن أحرّرهما من الشريط الشائك يمكثان بلا حراك لتصلب جسميهما وأطرافهما، بالاضافة الى النزف المتواصل من كلّ مسامات جلدهما.

ولكن بعد التريّض قليلاً، أصبحا أفضل حالاً.

ـ أين طبق الشوكروت؟ يسأل المفترس.

من يراه يحسب انه شقيقه التوأم لشدّة نحوله. لقد فقد ثلاثين ليبرة على الأقل من وزنه طيلة فترة احتجازه!

ـ سأحضر لك طبقاً من الشوكروت يكون من الضخامة بحيث لن يستطيع خادم المطعم حمله إليك، بل عمّال الاسطبلات!

وإذ ألقي نظرة الى مكان اشتعال السيّارة، أرى رجال لورمون يرقصون ابتهاجاً حول جثث الخصوم.

ـ إذا تبقى لديكما بعض القوّة، اسحبا هذين الى الطائرة، أقول لهما. أما أنا فمازال لدي ما أفعله.

ـ ما الأمر؟

ـ أن أشعل النار في وكر الأفاعي هذا! الوثائق موجودة هنا وستحترق مع الأثاث والمبنى، ولا يتسع وقتي الآن للبحث عنها، وبما أنها مجرّد نسخ...

ـ ولكن إن عثرت على قطعة خبز أو اصبع نقانق، تذكرّني، يتوسل البدين وقد أمسك بقدمي إيفا.

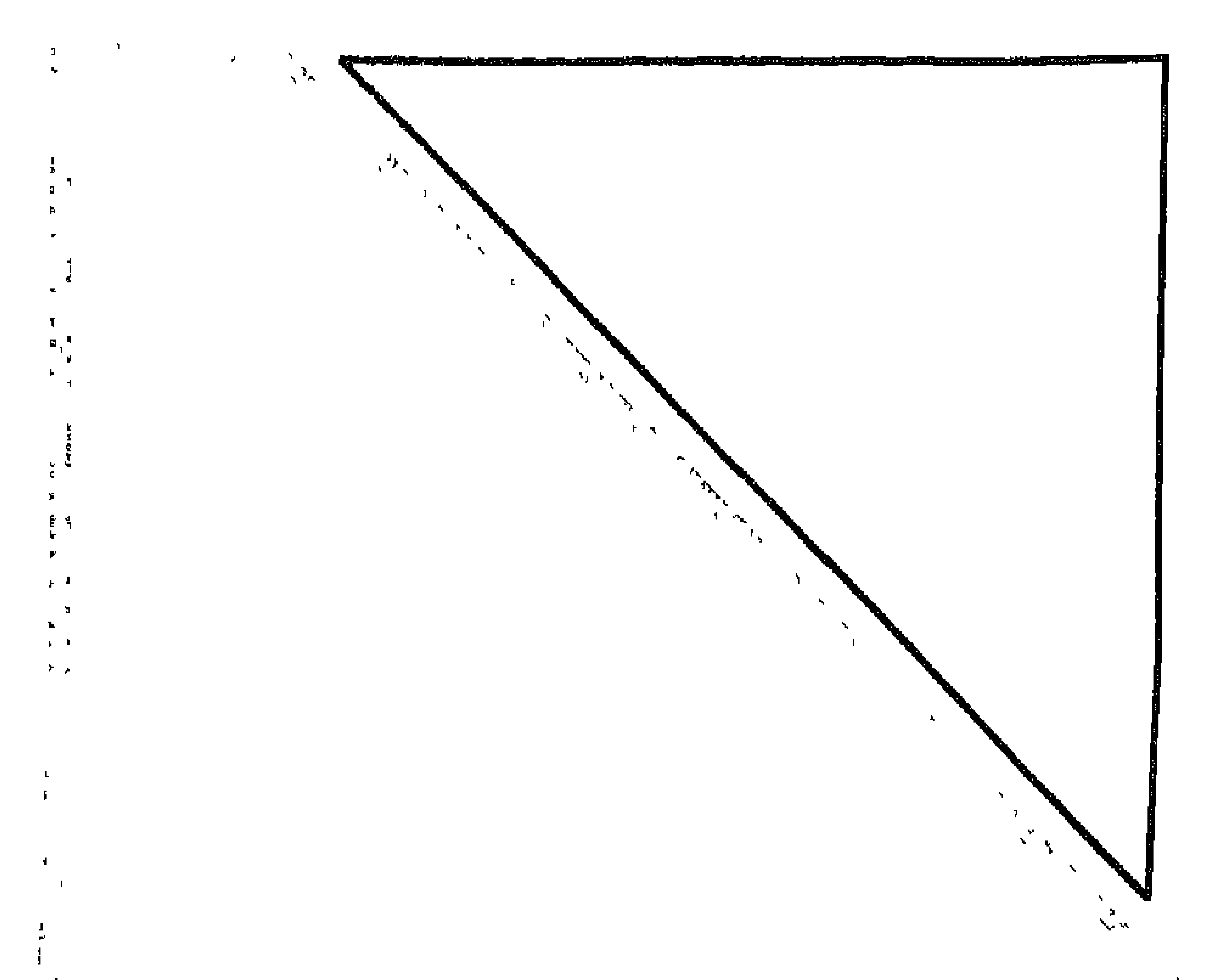
بوووم!

فترتعد فرائصنا. أنظر الى ريري وإذا به يحمل مسدسي والدخان ينبعث من فوهته. وبقربه لورمون وقد انفلقت جمجمته الى نصفين وبقّعت الأرضيّة.

ـ بلواز، ماذا فعلت بحق السماء! أصرخ قائلاً.

ـ انها المرة الأولى التي ألطخ فيها يدي بالدماء، يا سيدي الكوميسير، يقول متمتماً، ولكني لستُ نادماً على ما فعلته. لقد جعلنا الوغد نقاسي ما قاسيناه!

«ثم ماذا! يضيف قائلاً، ألم أكلّف بقتله من قبل؟ كان ينبغي أن أفعل عندما طلب مني ذلك! ولو فعلت لما حدث كلّ هذا ولما فقدت حبيبتي ليديا!».



الخاتمة

فيما يمضغ ملء فمه، ليس اصبع النقانق ـ لأنني لم أجد النقانق التي طلبها ـ بل فخذ الخروف البارد، ينهمك البدين ـ أو الأصح، النحيل الجديد ـ في تأمّل المنظر عبر شبّاك الطائرة.

ـ أهو لذيذ؟ يسأله بينو بلهجة المشفق المتعاطف.

ـ أجده ألذَّ وأشهى مع المايونيز ولكن بعض الظروف القاهرة تجعل من الشراهة ترفاً! يجيب الأكول الأوّل، ملك المِعَدِ وامبراطور الأمعاء.

ويضيف مشيراً الى الأرض تحتنا:

ـ إن ميزة هذه البيوت المشيّدة من خشب، هي أنها تشتعل بسرعة وتحترقُ احتراقاً كاملاً!

أما أنا، فأنعم ببهجتي وانتصاري متأملاً السماء الشاسعة. انه لشعور طيّب أن يهنأ المرء بنجاته مظفراً من مهمّة كهذه، أليس كذلك؟ وكلّ شيء فيها كان يدعوه لتوقع الأسوأ.

ـ ذلك الوغد لورمون! أقول. لقد أراد أن يساوم لحسابه على

السلاح الذي كانت الحكومة تصنّعه في مصانعه! يا له من طمّاع، أليس بلى؟ وأحسبُ أن الفتاة إيفا ستجد الكثير لتطلعنا عليه بشأن هذا النصّاب وأعماله.

ـ بالطبع، يؤكد بيرو بحماسة نابعة من قضمه اللحم لا من قناعة راسخة. ويضيف، سعيداً، ماضغاً، متغذياً بالبروتينات:

ـ لحسن الحظ أن ساق هذا الخروف ليست من خشب، أليس كذلك يا فتيان؟

نضحك جميعاً. إلاّ أن ضحكتي ليست من صميم القلب، لأنّ الأسئلة تراودني الآن، وأحد هذه الأسئلة يدور ويدور في رأسي: لماذا كلف بلواز بقتل لورمون مادام لورمون هو زعيم العصابة؟

ـ في آخر الأمر ما الذي حدث فعلاً! لنفترض أنّك لم تصب بنوبة الضمير المفاجئة و ...

ولكنه يهزّ بكتفيه ويعلن بملء فمه.

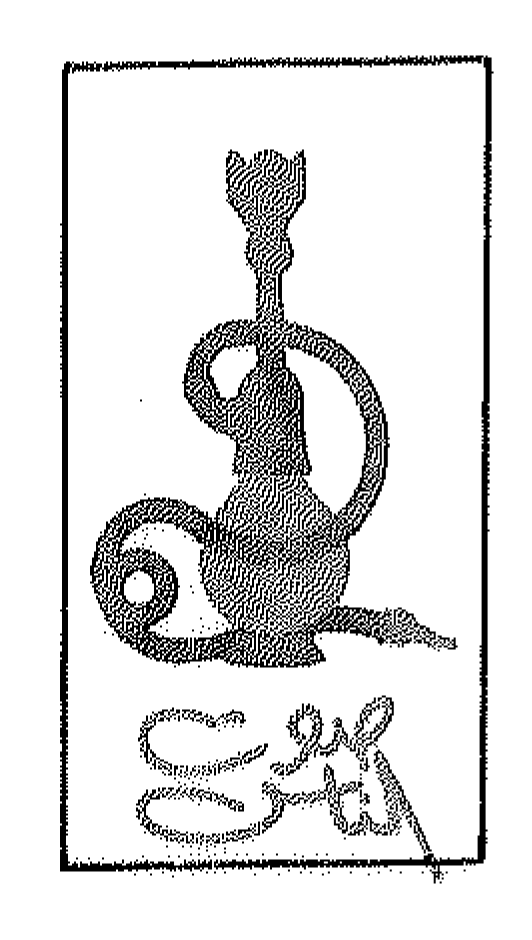
ـ أوه! هيّا يا حضرة الكوميسير، لأعترف الآن بكل شيء. لقد خدعتك في البداية... وبعد ذلك حين أحسست أن الأمور تسير نحو الأسوأ وأنهم يطاردونني خانتني الجرأة وفضلت أن ألزم الصمت... إن لقاءنا في كورشوفيل كان مدبّراً. كلّفت بأن ألعب معك هذا الدور وأن أقنعك بأنني مكلف بقتل لورمون. أحسب أنه هو نفسه الذي دبّر كلّ هذه الحكاية. وبما أنه قرّر التواري عن الأنظار، أراد أن يوحي للشرطة بأن حياته مهدّدة، أوتدرك قصدي؟ وفيما كنتُ أقتل زميلك، توارى عن الأنظار. بعض أفراد العصابة كان يجهل

هذا الأمر المدبّر وأحسّوا بأنهم خدعوا أيضاً... ومن هنا حقدهم على لورمون. على الأقل هذا ما أعرفه و... آخ خ خ!!.

يرتطم وجه ريري بمسند المقعد أمامه. انّه بيرو الذي دفعه حنقه الى ضربه بعظمة فخذ الخروف على مؤخر رأسه.

ـ أرجو المعذرة، قد لا يكونَ الرجلُ على هذا القدر من السوء، ولكنني أمقتُ أن يكذب أحدٌ على رئيسي رتبةً وراتباً! يقول مبرّراً فعلته.

ثمّ يلمّ أجزاء العظمة المكسورة ويروح يمتصّ مادتها النخاعية.



تلك النمنمة، يا اصدقائي، لا تشترى، والحق يقال، فحمالات صدرها من عند «ميشلان» وما يترنح امام رئتيها، عندما تسير، يبدو فعلاً جزءاً من جسدها وليس من النوع الذي يمكن «تنفيسه» بدبوس مرضعة الحليب لكي يصبح مفلطحاً. وانا اعرف مئة وخمسين الفاً من السادة، المستعدين لبذل ثروات طائلة لاستئجار هذه «الدرة» من الحليب مع توابعها.

لها عينان تقضان ارغد المضاجع، وثغر اشهى من الطبعة الكاملة غير المنقحة، لكتاب «الكاماسوترا»!

بهذا الاسلوب الساخر واللاذع يروي لنا «سان انطونيو» مغامراته البوليسية وتحرياته للكشف عن الجريمة.


1855132222